# ويسكي

رواية

أحمد محمد زويل

دار الكنزي للنشر والتوزيع

الكنزي
ALKANZY

رئيس مجلس الإدارة
محمد صلاح شديد

المدير العام
إيناس الدسوقي

مدير الإنتاج
أحمد عبد الوهاب

الكتاب : ويسكي
تأليف : أحمد محمد زويل
تصنيف الكتاب : رواية
مصمم الغلاف : إسلام مجاهد
إخراج : أحمد عبد الرحمن
المقاس ١٣ × ١٩
رقم الإيداع : ١٩٢٦١ / ٢٠١٨
الترقيم الدولي : 978 - 977 - 6660 - 05 - 2

All Rights Reserved
Alkanzy for Publishing and Distribution
+01062104822
Alkanzy.co@gmail.com
info@alkanzy.net

محفوظة جميع الحقوق

**«تسكر تبكي» أغنية ظهرت ضمن أغاني ألبوم الإخفاء ٢٠١٧.**

**غناء وألحان وتوزيع: مريم صالح، موريس لوقا، تامر ابو غزالة.**

**كلمات الشاعر: ميدو زهير .**

«إذا تذكرتني أنت، فلا يهمني إن نسيني الجميع»

هاروكي موراكامي

# -١-

«نعم، هذه هي حياتي وكلماتي، على ما أظن!».

أغنية: (عندما أرحل) إيمبنبم - ٢٠٠٥.

نوفمبر ٢٠٢٨.

حين أتجول بذاكرتي داخل دهاليز السبع سنوات الأخيرة؛ أجد أنه يكاد يكون مبنيًا من القَش، أو شيء أقل هشاشة، كان قابلًا للكسر أو الاستبدال، قبل أن تتكوم أعواده فتزيده قوةً وتمده بالصلابة؛ فتتحول الأمور القابلة للتغيير لأمور تستلزم التعايش والتكيف مع توابعها، سبع سنوات.. أمضيتهم سالكًا طريق القطيع قبل أن أدرك أنني لا أنتمي للماشية، لم أحاول الصراخ أو التذمر أو المعارضة ولو للحظة، حتى بيني وبين نفسي لم أكن أحمل بداخلي الزئبق؛ كلما ضغطت عليه فَر من بين أصابعك، كنت أحمل قدرًا لا بأس به من الصلصال الذي ينصاغ ويتشكل تحت كل الضغوط.

وما أسوأ الوصول لنهاية طريق تجاهلت اختياره!

كنت واقفًا خلف البار بحانة «البحر الأبيض» ــ وهي الحانة التي اُفتتحت قبل عامين من الآن، بالعام ٢٠٢٦ - أُدخن سيجارتي حين راودتني تلك الأفكار، فلم أنتبه للزبون الذي طلب كاسًا من «التكيلا»، فأعاد

الزبون طلبه بشـــيء من نفاذ الصبر، وطرق بإصبعه على البار الرخامي أمامه، أومأت برأســـي مُبتســـمًا، وتناولت زجاجة التكيلا راجًا إياها عدة مرات قبل أن أُفرغ القليل منها داخل كأس صغير أمامه، تناولها الزبون ذو الوجـــه العبوس، وأفرغها بجوفه دفعةً واحـــدةً، أغمض عينيه قبل ان تنكمش ملامحه لذةً، وهز رأسه عدة مرات طاردًا لذعته، زفر ثاني أكسيد الكربـــون عبر فمه وأنفه معًا؛ ثـــم أردف مُثبتًا عينيه على الكأس الفارغ: «هل تســـمح لي بسيجارة؟ فقد نسيت عُلبتي بالمنزل!».

«خذ ما تشاء». قلتها وأشرت لعلبة السجائر الملقاة فوق البار.

التقط العابس منها ســـيجارة وأشـــعلها بقداحتـــه الزيبو الصغيرة، وتوســـدت رأســـه كفًا هزيلًا ينتمي لبنية يكاد الهواء يُهشمها، بنية من تلك الأنواع التي لا تصلـــح إلا للأعمال المكتبية أو عمل يحتاج أقل قدر من النشاط، شـــكرني ودخن سيجارته بهدوء، أغنية «هوتيل كاليفورنيا» للإيجيلـــز كانت تصدع بأرجاء الحانة، وقـــد كانت وما زالت تترك بي انطباعًا كئيبًا كلما سمعتهـــا ــ رغم مرور أكثر من نصف قرن مُنذ ظهرت وربع قرن مُنذ اكتشافي إياهاــ ولكن زبوني ذلك المدخن الشارد الهزيل لم يكن ينتبه لشـــيء كهذا، تابعتـــه في انتظار فورانه بالحديث، وقـــد كانت تلك طريقتي المثالية في تبديد الوقت، خصوصًا مع الزبائن العابرين، أما الدائمين فهم حريصون كل الحرص على ألا يُعرف عنهم شـــيء مهما بلغت ضآلته، ومن تُكشف أحد أســـراره يومًا؛ لا يعود لزيارة الحانة مرة أخرى.

حكت لي إحدى السيدات العابرات مرة خيانتها لزوجها، ولم أرها مرة أخرى، لقد كانت حانـــة البحر الأبيض بالنســـبة للعابرين كالحوت بالنسبة ليونس، تلتقطهم مســـاء ليلة ماطرة بؤساء ممتلئين بالأهوال، وتلفظهم بالصباح رحبي الصدر قادرين على اســـتقبال أعباء جديدة.

انفجر أصلع الرأس بسؤال: «أخبرني.. ما اسمك؟».

- «مراد يا سيدي».

- أفلت ضحكة قصيرة وأردف: «اسم قديم».

- «الرجال وهاجسهم بتخليد أسماء أباءهم».

- «لم يكن أبًا سيئًا أليس كذلك؟».

- «لقد توفى بعد أربع أعوام من مولدي، لم أعاصره لأعرف».

- «ماذا عنك؟ هل ترى أنك أب سيئ؟».

- ابتسمت: «رُبما».

أشعلت سيجارة، ومسحت بأناملي على طرفي شاربي الرفيع، ونفثت دخانها عاليا في انتظار سؤاله التالي، وإن لم أكن حقًا أود الإجابة عليه، أقف أمامه مُبتسمًا أراقب رصاصة الإعدام تخرج عبر فوهة بندقيته.

- «لماذا؟».

- دسست السيجارة بين شفتي، تناولت منشفة، وبدأت أمسح بها البار الرخامي، أكافح كي لا أنظر له وأجيب: «لا أعرف تحديدًا.. لدي ابنة في العاشرة، ولم أراها مُنذ كانت بالثالثة.. أعتقد أنه سبب كاف لأكون أبًا سيئًا». خرج صوتي متلعثمًا، فالتقطت السيجارة بين أصابعي وأعدت ما قلت بكلمات أقل، ومعنى كثيف اللهجة: «لم أر ابنتي منذ سبع سنوات، لهذا أعتقد أنني أب سيء». ثم أضفت: «سيدي.. لا أعتقد أنك جئت لهنا خصيصًا لسماع حكايات مملة كهذه.. آسف لذلك».

- «لا أرى مشكلة في هذا».

- «شكرًا لك».

سعل مرتين ثم سألني: «أين زوجتك إذن؟».

- «لقد رحلت فجأة، استيقظت ذات صباح فلم أجدها ولم أجد الطفلة».

- «هجرتك إذن.. دون أسباب؟ بهذه البساطة؟».

- «للنساء دائمًا أسباب خفية يتصرفن وفقًا لها».

أشار برأسه موافقًا. وأشاح ببصره بعيدًا يسترجع ذكرى باهتة انطبعت على ملامحه، ثم قال باسمًا: «ستتزوج أختي غدًا».

أسندت كفاي على البار ناصبًا ذراعاي وقلت له: «هذا خبر رائع.. مبارك».

- «نعم رائع، ولكنني لن أستطيع حضور حفل زفافها؛ لأنها ببساطة لا تتذكرني!، لم أمر بشعور كهذا من قبل، شيء بداخلي يتمزق، كل ما تمنيته أن أكون معها بليلة كهذه».

- «هذا غريب يا سيدي!، ولكنها ستدعوك دون شك.. إن لم يكن الآن ففي يوم ما، لن تتخلى بسهولة عن أخيها بالتأكيد».

- ضحك بمرارة: «النساء ترتمي داخل أحضان أزواجهن بالنهاية، اما الرجال فيعودون مهما طال غيابهم لأسرتهم، الذكريات تعيش بالرجال مدة أطول.. إنها فِطرة الحياة».

- «ليس بالضرورة سيدي، هناك شواذ لكل قاعدة».

- ابتسم ودخن ما تبقى من سيجارته بهدوء، وطلب كأسًا إضافيًا من التكيلا، وضعت الكأس أمامه، واستأذنته، وانشغلت ببعض الوافدين الجدد على الحانة، واختفى الرجل عن ناظري لِما تبقى من الوقت..

- كان الوقت فجرًا حين دوت صرخة امرأة بخارج الحانة؛ بلبلت أجواء ليالي نوفمبر الهادئة، وحركت أعناق رواد الحانة لمنفذها، وأشعلت شغف المجاورين بالتجمهر، فلبوا النداء على عجل، مُلتفين حول شيء ما بالشارع، كنت أراقبهم من خلف الباب، مسحت يدي في منشفة قريبة، وعبرت بوابة الحانة مزاحمًا الواقفين وصولًا للصفوف الاولى، لأجد الزبون العابس مستلقيًا على ظهره، أطرافه ترتعش فوق بركة من الدماء الداكنة، افترشت الأسفلت وتناثرت فوق مقدمة سيارة تقودها امرأة بمنتصف عقدها الثالث، لم تُنزل يدها من فوق مقود السيارة، تُحدق فيما صنعت للتو مشدوهةً خائفة.

- صاح أحد الواقفين: «اطلبوا الإسعاف!».

- وصاح أخر: «هل من طبيب هنا؟». تقدم أحدهم والتقط معصم العابس يتحسس نبضه، فتح مقلتيه يبحث عن حياة بداخلهما، ثم زفر براحة وقال: «مازال على قيد الحياة، سارعوا بطلب الإسعاف».

- قلت: «يمكننا إدخاله للحانة ريثما تأتي سيارة الإسعاف، بالحانة مستلزمات طبية».

حدق بي أحدهم ثم نقل ناظره للقميص الأسود الذي أرتديه، الذي نُقش فوق صدره بحروف انكليزية اسم الحانة «White Sea» ثم أردف: «الحانة! أستغفر الله العظيم.. الرجل على وشك مقابلة ربه».

- «لا يُمكننا تركه على طريق الكورنيش هكذا، كما أنه مازال حيّ، يُمكننا على الأقل..».

قاطعني صائحًا: «لا، لن يدخل الرجل للنجاسة، سيبقى على الرصيف إن كان الطريق يُمثل لك مشكلة، اذهب بعيدًا واتقِ الله».

- «سأحضر الإسعافات الاولية من داخل الحانة إذن». قلت بغيظ صكًا أسناني.

- «لا تحضر شـــيئًا، عُد من حيث أتيت هداك الله، لا نحتاج لإسعافات تستعملونها في علاج السكارى والأوساخ».

- «أتركه مكانـــه إذن ريثما تأتي الإســـعاف، فربمـــا بحركته تزيد إصابته».

- «ها، ماذا؟ ألم تقل للتو ادخلوه للحانة.. إما النجاســـة وإما وســـط الشـــارع، الله يلعنك، ابتعد من هنا».

لم أضف شيئًا، وقفت أتابعهم وهم ينقلونه إلى الرصيف، وعندما مددت يدي أســـاعدهم صفع معصمي الرجل ذاته وأردف: «أذهب للنجاسة التي خرجت منها»؛ زفرت بضيق وضربت كفًا فوق الأخر.

كانت السيدة داخل سيارتها لم تتحرك تقريبًا، فيما وقف شابان أمام الســـيارة ليمنعاها من المضي. وتهامس رجل مع أخر: «هذا ما كســـبناه من سواقة الستات!». تراجعت لأقف أمام باب الحانة أراقب الحدث شابكًا ذراعـــاي، فكرت بأن أفصح لهم أنني أعـــرف الرجل، لقد كان زبوني مُنذ دقائـــق، ولكن ربما لو علموا أن الرجل كان ثملًا لابتعدوا عنه؛ وتركوه يموت وحيدًا بلا ترحم أو دعاء كما كان يشـــرب التكيلا وحيدًا.

مـــرت دقائق ثقيلة علـــى المتجمهرين، حتى قطـــع أحدهم الصمت باغتمـــام مُصطنع: «لقد مـــات الرجل!».

# -٢-

«لا نرحل الآن فأنا لا أعرف الطريق!»

أغنية: (رجل على الطريق) بيل هارتون - ٢٠٢٧.

للموت أنشـــودة خاصة يتغنى بها مُنتظريه، لحن خاص لا يستطيع كارل أورف [*] أن يحاكيه، يســتقبلونه برحابة صدر، بابتسامة صادقة تختلــف عن كل الابتســامات الــتي حملوها لأعــوام بجعبتهم، وهي الابتسامة ذاتها التي رأيتها على وجه زبوني قبل أن تُغطى جثته بالقماش وأوراق الجرائد.

كما رأيتها ســابقًا تُرســم فوق وجه والدتي قبل دفنها بساعات، أما الأحياء فتنتزع منهم ســيرة الموت ابتســامتهم تاركة مســاحة كافية للشــرود باعتلاء هرم الانفعالات.. إن أبشع ما بالموت هو مروره بجوارنا دائمًا دون أن نراه.

— «هل أنت بخير؟». قالها حســام، أحد العاملــين بالحانة، مربتًا على كتفي، فنجاني من شــرودي، التفت له وأجبته باحثًا عن ابتسامة مناسبة: «نعم، بأفضل حال».

* - كارل أورف: ملحن ألماني، ومن أشهر ملحني القرن العشرين، من أشهر أعماله «كارمينا بورانا».

- «يبدو عليك الإرهاق، يمكنك الرحيل إن كنت تحتاج للراحة».

- التقطت كأسًا فارغًا وصببت به قطرات من الفودكا، تجرعته على مـــرة واحدة، لهثت وعيناي مثبتة على رخام البار: «حاولت إنقاذه من الموت يا حســـام، ولكنهم رفضوا، تركوه يموت بدلًا من إسعافه داخل الحانة». ضحكت بمرارة: «لقد نعتونا بالأنجاس».

- «إنه قدره لا شأن لك في هذا». قالها باسطًا كفيه بالهواء.

- «كان يمكنني تغيير قدره ولكنهم لم يسمحوا لي!».

- «ربمـــا لو سمحوا لك لمـــات الرجل داخل الحانة، قُـــدر له أن يموت بتلك اللحظـــة ولا يهم المكان».

تنهدت محاولًا فك الضيق الذي تملك مني، وقلت له: «ربما ســـأعود لمنزلي، أحتاج للراحة».

أضفت بعد ثوان فيما كان حسام يُرتب الكؤوس: «لقد كان للمتوفي أخت، ستتزوج غدًا.. لقد قال إنها لا تذكره».

- «وماذا في ذلك؟».

- «يجب على الأقل أن تعرف ما حدث».

- ابتسم وقال: «أنت تبالغ في تقدير الأمور يا مراد، الناس تموت بشكل يومي على الطرق».

- «ولكن على الأقل فإن أهل الميت يعرفون».

حاوط رقبتي بذراعه، وقـــد أحتاج أن يقف على أطراف أصابعه لفعل ذلك وقال: «ستتزوج أخته غدًا، ليس من الحكمة أن تبحث عنها وتخبرها الآن.. أليس كذلك؟ كما أن الشرطة ستخبرهم بلا شك».

– «ربما.. معك حق».

عدت لمنزلي باكرًا تلك الليلة عن نهاية دوامي اليومي، جارًا معي وجهًا شاردًا وعقلًا لم يتوقف عن التفكير، تناولت طعامي الخفيف، المكون من بيضة وبعض الجُبن الأبيض، وخلدت للنوم، ولكن الأمر لم يكن أبدًا بهذه السهولة؛ أستعيد صورة زبوني المتوفى، لم يكن كبيرًا أو صغيرًا في السن، في منتصف العمر أو بأواخر منتصف العمر كما تصفه روايات «كارلوس دولكو» – وهو الروائي الأرجنتيني حديث العهد وذائع الصيت مُنذ ظهوره الأول بالعام ٢٠٢٢. – يقول «دولكو» في وصف ملامح شخص كهذا: «إنه رجل فقط، لا يتميز بشيء أو يعيبه شيء، لن تحبه ولن تكرهه، رجل إذا ما رأيته بمحطة القطار لن تشعر بشيء تجاهه أبدًا».

ينطبق وصف دولكو عليَّ كذلك؛ إذا ما كان يتحدث عن رجل بربيعه الخامس بعد الثلاثين، هجرته زوجته مُنذ سبع سنوات دون سبب تُلقي عليه رحيلها.

رن هاتفي برقم حُسام، ترجلت نحوه وألقيت نظرة خاطفة على ساعة الحائط، السادسة صباحًا، أجبت المكالمة، فقال حُسام بصوت مُنخفض: «مراد، عليك أن تأتي حالًا، إن الشرطة هنا تبحث عنك للإدلاء بشهادتك».

# -٣-

«نظن إنك تمر بحوادث غريبة.. حسنًا الجميع يظن ذلك أيضًا».

فيلم: (الحروب هي أصدق الأفعال) - ٢٠٢٢.

«قبل ساعتين من الآن.. هل كنت متواجدًا وقت الحادثة؟».

سألني الشُرطي بوجه بارد وعينين ناعستين، أجبته وأنا أتفحص زيه الأبيض المعتاد: «نعم، كنت هنا».

«أممم، يقول أحدهم أنك قد اقترحت أن يُعالج بالحانة». حك طرف شاربه، وابتسم.

- «لم يكن علاجًا بالمعنى الحرفي، ففي الحانة علبة إسعافات أولية، وهو ما حاولت فعله ريثما تأتي سيارة الإسعاف».

- «هل كنت تعرف المجني عليه؟».

- «لا، إنها المرة الأولى التي أراه فيها.. كان يشرب التكيلا هنا فقط، لا أعتقد أنه زار المكان من قبل».

- «وما الذي منعك من إسعافه؟».

- «لقد رفض الواقفون أن يتم إسعافه بشيء من الحانة.. نعتونا بالأنجاس ورفضوا إدخاله للحانة».

- حدق بي الشُرطي متهكمًا وتابع وصلة أسئلته: «هل تحب إضافة شيء أخر؟».

فكرت قليلًا، ثم قلت: «هل يمكنني معرفة اسم المجني عليه؟».

- «يونس سلامة.. هل هناك شيء أخر؟».

- شرد ذهني للحظات، لم يكن اسمه غريبًا على مسامعي، نظفت حنجرتي وقلت: «في الحقيقة، هناك..».

أشار بيده أن تحدث فقلت: «لقد أخبرني أن أخته ستتزوج بالغد». نظرت لساعة يدي، وأكملت: «أعني اليوم، وأضاف أنها لا تذكره.. فهل يمكن للشرطة أن تؤجل خبر وفاته على أسرته؟».

- «أعتقد أن هذا ليس من شأنك يا مراد.. اهتم بشغلك واترك لنا أشغالنا».

لم أكن أتوقع ردًا أكثر لُطفًا، انحنيت قليلًا فطريًا، وقلت: «شكرًا لك يا باشا».

رحل الشُرطي عن الحانة، وبقي اسم «يونس سلامة» برأسي، كذكرى مُبهمة، شظايا لوحة صعبة التجميع..

بحثت عن الاسم عبر الإنترنت فور عودتي لمنزلي، لقد انتشر خبر وفاته بعد ثلاث ساعات ونصف من حدوثها، مما يعني أنه كان حديث المجتمع في وقت من الأوقات، قرأت مقالًا قصيرًا كتبته إحدى المواقع:

وفاة الروائي يونس سلامة:

قبل ســاعات، تحديدًا فجر الســابع من نوفمــبر ٢٠٢٨ توفي الروائي الغامض «يونس ســلامة» إثر حادث على طريق الكورنيش، حيث صدمته فتاة شــابة تُدعى «هديل خالد محمد» بسيارتها التويوتــ...

توقفــت عن إكمال القــراءة، وتذكرت على الفــور من هو «يونس سلامة» الذي اختفى تقريبًا مُنذ أعوام بلا سبب واضح بعد أن صدرت له روايتان، قيل إنه كاتب جيد، لا بأس به، ولكنني شــخصيًا لم أقرأ له من قبل، مُنشــغلًا بالأدب المترجم، وبالظاهرة «دولكو» على وجه الخصوص.

بحثت عن شيءٍ أدبي خاص بيونس ســلامة؛ لقراءته على الإنترنت، وســرعان ما وجدت له قصة وحيدة قصيرة، وبدأت بالتهام سطورها..

***

طفل يقود حافلة

«يونس سلامة»

كُتبت في ٣ يوليو ٢٠١٤.

صعد رجل في الخمســين من عمره للحافلة، يرتدي معطفًا قماشــيًا مهترئً ووشــاحًا أســود طويلًا ملفوفًا حول رقبته، وقبعةً شتويةً بإلية، وبخطوات بطيئة اتكأ على جوانب بابها، وزفر براحة أمام الركاب، التقط أنفاســه، ثم صفق بيده ثلاث مرات فانتبه له الجالســون وقال: «السلام عليكم، ســنتطلق الحافلة خلال خمس دقائق، لذا فالتزموا بمقاعدكم من فضلكم، وإن أراد أحدكم قضاء حاجته فليتفضل بســرعة».

لم يتحرك أحد من موضعه فأكمل بعد أن مســح الجالسين سريعًا بعينيه: «حســنًا هذا جيد.. لدي خبر مهم لكم».

انتبه له الجالسون فأكمل: «لقد قررت شركة الرحلات أن تتبع نظامًا جديدًا مع عملائها، فمن الآن وقبل كل رحلة، سيتوجب على الرُكاب اختيار سائق الحافلة من بين عدة سائقين نظرًا لكثرة الحوادث على الطرق مؤخرًا، والتي يتحمل السائقون فيها الذنب كاملًا».

- «ماذا تعني؟» سأله فتى بالخامسة والعشرين. يرتدي معطفًا أبيض.

- أجابه الرجل بعد أن حدق به لثواني: «ما أعنيه أنكم المسؤولون من الآن فصاعدًا عن اختياركم بالرحلة».

- أشار الرجل بيده مناديًا السائقين، فصعد للحافلة طفل بالرابعة عشر يرتدي قميص شركة النقل، ورجل بالأربعين يرتدي قميصًا قطنيًا ومعطفًا جلديًا فوقه.

- قال الرجل مُبتسمًا: «عليكم اختيار أحدهما».

نهض كهل من موضعه، وسعل مرتين قبل أن يصيح: «هل تمزحون معنا؟ يتوجب علينا الرحيل بسلام على ضمانة الشركة دون اختيار سائق أو غيره».

قال الطفل ذو القميص بنصف انحناءة: «مرحبًا يا سيدي، أقسم لك أن الرحلة ستمر بسلام، لقد كنت مُنذ نعومة أظافري بالشركة».

- صاح به الشاب ذو المعطف الأبيض ساخرًا: «ماتزال أظافرك ناعمة».

- «ليس هذا ما قصدته، أقصد أنني قد ولدت هنا، أنا أنتمي لهذا المكان تحديدًا، لقد درست الطرق كلها، وتمرنت على القيادة مُنذ كنت بالتاسعة.. إنها رحلتي الأولى، ولكنها ستكون آمنة تمامًا أؤكد لك ذلك».

جلس الكهل مُجددًا وقد بدا على وجهه الرضا.

- قال الرجل: «حسـنًا أيها الرُكاب سيتوجب عليكم الآن الاختيار بين السائقين».

- قـال الفتى ذو المعطف الأبيض مُجددًا: «سـأختار الرجل، لن أختار طفلًا مهما حدث».

- قال لـه الكهل: «لقد قال لك الطفل أنه تربـى هنا، يعرف الطرق جيدًا والقيادة، كأنه رجل بالخمسـين، انظر له، رغم صغر سنه إلا أنه يبدو متمرسًا».

- «ماذا عنك؟». سأل الفتى ذو المعطف الأبيض السائق الآخر.

تلعثم الرجل قبـل ان يقول بلهجة هادئة: «إنها مرتي الأولى في قيادة الحافلات.. لقد كنت طوال عشـر سنوات أقود السيارات».

ضحـك الكهل ثم قـال: «لا اختيار أمامنا إذن غـير الاعتماد على الطفل».

- «أليـس لديكم آخرين للقيادة؟». سـأل الفتى الرجـل الواقف بين السائقين.

فهز الرجل رأسه نفيًا وأجابه: «لا، إما هذا وإما ذاك».

- «ماذا عن انتظار الرحلة القادمة؟».

- «سـتنطلق الحافلة القادمة بعد أربع ساعات، لا أعتقد أن أعمالك يمكنها التوقف أربع ساعات».

- قال الكهل مجددًا: «إذن فلنبدأ الاختيار.. لا أسـتطيع الجلوس هنا طوال اليوم».

نظر الركاب في شتّات لبعضهم البعض، قال أحدهم: «لن أخاطر باختيار سائق ليس بالشركة». ــ وأردف آخر: «لقد تربى الطفل هنا ويعرف كل شيء عن الرحلة». وبدأت الهمهمات تعلو حتى صفق الرجل وقال: «يجب أن تنطلق الحافلة الآن.. من يريد الرجل يرفع يده».

رفع سبعة ركاب أيديهم من ضمن أربعين راكبًا.

ضحك الرجل ثم قال: «هذا جيد، خذ موضعك أيها السائق وقم بعملك».

اتجه الطفل لمقعد السائق، ووضع أسفل مؤخرته ثلاثة وسائد ثم أدار المفتاح وأردف: «الآن تبدأ الرحلة».

«النهاية»

***

لم تكن القصة سيئة، ولكنها أيضًا لم تكن جيدة بما يكفي، على الأقل بالنسبة لي. بها مَسحة سياسية واضحة، ولكنها كُتبت على عجل واضح، أشعلت سيجارة وتركتها تحترق بالمنفضة الزجاجية، أرخيت ظهري على الكرسي، لقد كان يومًا طويلًا، وقد استجاب جسدي لغفوةٍ استمرت لدقائق، رأيت فيها يونس سلامة، يقف ناصبًا ظهره بجوار امرأة جاثية على ركبتيها، انسدل شعرها ليغطي وجهها كستار مسرح، إلا أن عينيها كانتا تلمعان من خلف ستار الخصلات؛ مد يونس أصابعه وأزاح الستار الأسود عن ملامحها.. إنها «سلمى»!

# -٤-

«وإن صحابك عِشقوا صبايا.. وأنت عِشقت عرايس قطن!».
أغنية: (نسكر نبكي) مريم صالح - ٢٠١٧.

سلمى تبتسم.. فكنت دون وعيّ سعيدًا!

سلمى تبكي.. فكنت دون وعيّ حزينًا!

سلمى مولعة بعلم الفيزياء.. فكنت دون وعيّ هائمًا بأينشتاين!

سلمى تقرأ الروايات البوليسية.. فكنت دون وعيّ ألهث خلف شارلوك هولمز بجوار واتسون!

***

قلت لها وأنا أحتسي فنجان قهوتي مساءً: «علينا أن نمضي بعض الوقت معًا، ربما نسافر لمكان ما».

رمقتني بطرف عينيها، وملست على شعر الطفلة ذات الأعوام الثلاث في مهدها الخشبي الصغير، التفتت لي وقالت: «لقد نال مني التعب».

- «لقد لاحظت، ولهذا أقترح السفر لبعض الوقت، لتصفية أذهاننا قليلًا».

جلســـت على الأريكة بجواري، ورفعت رأســـها للســـماء الغائبة تحت طبقـــات البناية: «لن يصفي الســـفر ذهني أبدًا».

زحفـــت أصابعي تُعانق أصابعها المتيبســـة فلم تلـــين، ابتلعت ريقي، واستشـــعرت جفاف حلقي، وســـألتها: «ما بكِ؟».

أغمضت عينيها، وتوســـدت الأريكة بدلًا من كتفي وغاصت في النوم، مؤشـــرات العلاقة بيننا تميل لجاذبية الأرض هاملة جاذبية النجوم..

***

سلمى تميل لجاذبية الأرض.. فكنت دون وعيّ أحب نيوتن!

سلمى تبكي ليلًا.. فكنت دون وعيّ أكره الليل!

سلمى تحتسي القهوة صباحًا.. فكنت دون وعيّ يقظًا!

سلمى تعاني من شيء ما.. فكنت دون وعيّ أعاني من ذات الشيء!

***

اســـتيقظت في اليوم التالي، فركت عيني طاردًا النعاس، وبحثت عن سلمى بأرجاء الشـــقة؛ ولكنني لم أجدها ولم أجد الطفلة، هاتفتها مئات المرات بلا استجابة، هاتفت أقاربها وأقاربي القلائل، أصدقائها وأصدقائي الأقل، وقد أقسموا أنهم لم يروا أحدًا، بعد أربع وعشرين ساعة حررت محضر اختفاء، وبدأت الشرطة بأداء عملها، وكنت بالطبع المتهم الوحيد، العديد من الأسئلة المطروحة أمامي بغرفة يعلوها مصباح ضوء مرتعش؛ يزيد من توتري ويضغط على أعصابي.. لا فائدة، لقد رحلت سلمى ولن تعود.. !

***

رحلت سلمى فجأة.. فكنت دون وعيَ شاردًا بالشوارع!

رحلت سلمى دون سبب.. فكنت دون وعيَ أقترح مئات الأسباب!

رحلت سلمى مع الطفلة.. فكنت دون وعيَ أموت وأُبعثُ كل دقيقة!

رحلت سلمى لسبع سنوات كاملة.. فلم أنساها!

***

رن هاتفي، خلصني من الشرود، هرعت نحوه واستجبت للمكالمة، ألهث وأمسح العرق البارد من فوق جبهتي، جاءتني الكلمات دقيقة وحادة كسكين سُن حديثًا: «مراد.. لقد توفيت أختي سلمى صباح اليوم». ثم أنهى مكالمته.

العالم يُظلم تدريجيًا، يُصبَغ بالطلاء الرمادي، تتكاثف الغيوم لتحجب الرؤية، الفواجع تستقر فوق الصدور ولا تذوب، تضغط على القلوب فتزداد هشاشة، التأقلم مع الوضع الجديد، معانقة الغيوم وعشق الرمادي، أو الاستسلام للموت البطيء.. الاختيار الثالث ترف لا يحظى به أحد. فلم يعد وجود الأحياء الأموات وهمًا داخل الروايات، لقد تحقق ولكن بشكل أكثر بشاعة.

هاتَفْتُه مجددًا.. «سمير» الأخ الأصغر لسلمى، استجاب للمكالمة، أتخيله يضغط الهاتف على أذنه ولا ينطق حرفًا.

— «سمير.. هل أنت متأكد مما قلت؟».

— «نعم».

— «واين كانت طوال سبع سنوات؟». نبرة صوتي تعلو دون إرادة مني.

— «هل هذا كل ما يهمك؟ ابنتك يتيمة الأم!».

ضربت الحائط بكفي. وتنهدت: «وأين ابنتي؟».

– «معي».

– «أمل عنوانك».

دوّنت العنوان على ورقة، ثم نقلته على هاتفي. أقاوم دموعي.. أقاوم التساؤلات.. أقاوم أشباح الذكريات.. أقاوم المقاومة نفسها وأبكي كما لم أبكِ من قبل!

# -٥-

«كن أنت محور العالم».

الجملة الافتتاحية لموقع التواصل الاجتماعي (Town).

لم يختلف الصباح عن المساء، فقط هناك من ضغط مفتاح الضوء، وأمر العجلة باستكمال دورانها، لم تصدأ مفاصل العالم بعد. اثنتا عشرة ساعة كاملة، ذائبًا في المحيط، أصم وأعمى، جزءًا من طين القاع، ميتًا لإشعارٍ أخر، الناس لا تنام جراء الصدمة بل تموت مؤقتًا..

غسلت وجهي، أزيل العبوس والدموع الملتصقة عنه، وارتديت بذلة سوداء. وقفت أمام المرآة للحظات أتأمل وجهي، وقضيت وقتًا أحاول نفي رؤيتي لامرأة قصيرة ترتدي فستانا أحمر تقف خلفي مباشرةً!

كان صوت القرآن الكريم مُنبعثًا من خلف باب الشقة، أقف أمام الباب مباشرةً، لا يفصلني عن رؤية ابنتي سوى ضغطة من إصبعي على زر الجرس، سبع سنوات تتلاشى بضغطة زر!

صوت الجرس المزعج كالمعتاد، وصوت عذب يقرأ سورة الفرقان مُنبعثًا من جهاز ما خلف الباب، ثوان مرت كالساعات، قبل أن أسمع صوت دوران الكالون بالباب، سمير ينظر لي، من أسفل نقطة لأعلى نقطة، الماسح الضوئي بمقلاته يرمقني، مسح مخاط أنفه وأفسح لي الطريق:

– «تفضل».

خطـــوت ببطء، يُمكنني سمـــاع نقر حذائي على الســـيراميك، أربع خطوات وسمعت البـــاب يوصد من خلفي، أنهى الشـــيخ المُنبعث صوته من المذياع تلاوة الســـورة، تاركًا الهـــواء الثقيل يعبئ صدورنا، والصمت يصم أذاننـــا، بحثت عن فتاة صغيرة بالأرجاء، ماســـحي الضوئي يعمل بكفاءة أيضًا، أناس كثيرون متشحين بالسواد، وجوه أتت لقضاء الواجب فقط، يمكن ملاحظة ذلك من زفرات الملل، ومعانقة الأصابع واهتزازات الأحذية فوق الأرض، ومراقبة عقارب الســـاعة.

– «ياسمين، أين هي؟». سألته.

– «داخل غرفتها».

– «وكيف حالها؟».

– «كحال أي فتاة فقدت أمها».

– «أريد رؤيتها».

– «تعال معي». قالها وقادني لغرفة الصغيرة، طرق الباب وكاد يُلصق أذنه على خشبه، قال لها من خلف الباب: «ياسمين.. حبيبتي، هناك شخص يريد رؤيتك».

«لا أريد». جاءنا صوتها، أرق من صوت أمها، وإن لم أكن قد سمعت أرق منه، نفس النغمات التي تُميز صوت الناي، ولكنها تخرج من حنجرة آدمية.

تبادلنـــا النظرات، أنا وسمير، همَّ ليقول شـــيئًا أخـــر؛ ولكنني أوقفته بإشـــارة من يدي. وقلت لها: «ياسمين.. أنا مـــراد.. أبوكِ».

مرت ثـــوان من الصمت قبل أن يُفتح البـــاب، كانت ياسمين ترتدي تنـــورة قصيرة زرقاء وبنطال من الجينز، حدقت في بعيون أمها، ولم تنفرج شـــفتاها بشيء، فتحت ذراعاي لأضمها؛ ولكنها سرعان ما أوصدت الباب أمامي.

جلست مع سمير على الأريكة بعد انتهاء مراسم العزاء، فنجانان من القهوة الداكنة أمامنا، أمسك برأسي من فرط الصداع، تنهد سمير ثم قال: «يمكنك المبيت لدينا الليلة، تبدو مرهقًا للغاية».

– «أنا فقط أريد بعض الإجابات حتى يمكنني النوم بهدوء».

تناول فنجان قهوته وأخرج ســـيجارة من علبته وأشـــعلها، وأشار لي بطرح الأسئلة.

– «أين كانت سلمى طوال السبع سنوات؟».

– «أهذا ما يهمك؟».

– «لا يهمني كثيرًا الآن ولكنني بالفعل أود أن أعرف».

– «تلك هي مشـــكلتك يا مراد، أنت لم تســـألني لماذا رحلت عنك بل سألتني إلى أين رحلت».

– «يمكنك الإجابة على السؤالين».

– «في الســـنة الأخيرة جاءت لي، أمـــا ما قبل ذلك فأنا لم أكن أعرف مكانها بالفعل، كانت تطمئنني عليها وعلى ياسمين كل مدة، وهذا كل ما كان يصلني منها».

– «ولماذا رحلت من البداية؟»

– هز رأســـه نفيًا. فبدأت بكبح بعض الغضب، وسألته: «لماذا لم تخبرني بهذا من قبل؟».

– «هـــي من طلبت مني ذلك.. قالت إن هـــذا في مصلحتها ومصلحة الطفلة».

أشـــعلت سيجارة وأشـــحت بنظري بعيدًا عنه للحظات، وعندما عدت من شرودي وجدت أنني كنت أحدق بكتاب تُرك على المنضدة، كتاب ذي غلاف من الأبيض والأســـود، «شـــطرنج بلا ملك». حدقت باسم الكاتب «يونس سلامة»!

أشرت للكتاب وسألته: «لمن هذا الكتاب؟».

«إنها رواية.. كانت سلمى تقرأها في الآونة الأخيرة».

ترجلـــت حتى الكتـــاب، والتقطه بين أصابعـــي، ذي كعب سميك، أربعمائة وخمســـين صفحة. فتحـــت أولى صفحاته وقرأت:

– إلى قارئتي العزيزة.. سلمى

أهدي إليك هذه الرواية عســـى أن تعجبك.. وآسف لعدم نشر رواية (السكير) حتى الآن فلم تنتهي بعد.

يونس سلامة.

التفت لسمير وقلت له: «هل يمكنني استعارتها لقراءتها؟».

أومأ برأسه إيجابًا.

تناولتهـــا بين أصابعي وعدت لمقعدي، ثم قلت له: «لن ترضى ياسمين بالمجيء معي بالتأكيد».

– «كنت أريد قول ذلك لك، ولكنك سبقتني».

– «سآتي لزيارتها يوميًا حتى تعتاد عليّ، إنها ابنتي، وقلبي يُعتصر لابتعادها عني بهذا الشكل».

عدت لمنزلي برفقة الرواية، ولكنني وبعد مقابلة سمير وابنتي؛ لم أصدق للحظة أن سلمى قد ماتت، بدأ الشك يرهق أعصابي، ولكنه شك يمكنني الثقة به، لم تمت سلمى.. هناك جزء مفقود لم أصل له بعد..

***

كل الخيوط تقودني لروائي مجهول، رجل توفي قبل أيام، لم يكن حديث وسائل الأعلام فقط، ولكن بعض الجرائد الإليكترونية والقليل من الجرائد المطبوعة، خبر هنا ومقال هناك، الفِتات هنا وهناك، وإن نظرت للإشكالية بعين غريب لوجدت أنني أبحث عن امرأة قيل لي أنها توفيت أمس.

محاولة بائسة لإنعاش جثة، أين دُفنت جثة سلمى؟ لم يخبرني سمير عندما هاتفته فور قفز السؤال برأسي.

قرأت مئتي وخمسين صفحة من رواية «شطرنج بلا ملك» في جلسة واحدة من أربع ساعات متواصلة، ولم أتوصل لشيء، مجرد رواية تتحدث عن طفل تركته أسرته وحيدًا؛ ليختلط فيما بعد بعصابات الشوارع، التي تسعى خلف رؤوس أصحاب المصانع، في محاولة لمكافحة احتكار السلع حسب رؤية زعيمهم المثقف.

تركتها على المنضدة وزفرت بملل، قبل أن التقطها مرة أخرى، أقفز بين المئة صفحة الأخيرة، قفزات قارئ ملول، سقطت ورقة صفراء صغيرة حُشرت بأخر الصفحات، التقطها؛ وقرأت ما بها:

رواية سيئة يا يونس، لن أرضى بأقل من السكير

قارئتك المخلصة (سلمى)

السكير.. السكير.. السكير..

على الفور بحثت عبر الشبكة العنكبوتية عن رواية «السكير» ليونس سلامة، لا نتائج عبر محرك البحث «GO». ولا أثر على موقع التواصل الاجتماعي «Town». حتى أقدم مواقع الكتب كجود ريدز لم تذكر عنها شيئًا، إنها رواية لم تُكتب بعد!

أشعلت سيجارة ومددت ظهري على الأريكة، دخنتها ببطء، هناك امرأة تقف عند باب الغرفة.. امرأة بفستان أحمر قصير!

هذه المرة لم أكن أهذي بالتأكيد، نفس المرأة التي رأيتها قبل ساعات تقف خلفي بالمرآة؛ أراها الآن بطرف عيني، لم أتحرك من مكاني؛ خوفًا ربما؛ وربما لشعور أخر لم أكن قد مررت به من قبل، تقدمت المرأة لمنتصف الغرفة بخطواتٍ واثقةٍ، قلت لها بعد حشرجة حلقي ومقاومة ذاك الشعور المجهول: «من أنتِ؟».

التفتت لي، كانت سلمى!، ولكن بها شيء ما مختلف، وكأنها دُمية قطنية ريفية، اهتزت أضلاعي، وانكمشت رئتاي، سقطت السيجارة من بين أصابعي على السجادة، صرخت بصوت لم ينقله الهواء! اختفت كما ظهرت سابقًا، ألهث وكأنني للتو توقفت عن الركض في ماراثون، تعبئ رئتاي الهواء ورائحة طرف السجادة المحترقة من لفافة التبغ. كانت الرواية على المنضدة مفتوحة على الصفحة الثانية، المطبوع فيها اسم الناشر وعنوانه..

في الصباح التالي، ذهبت لعنوان دار النشر عبر تاكسي، توقفت السيارة أمام بناية عصرية من تسعة طوابق، حشر السائق سيجارة بأسنانه، وأشعلها ثم قال لي: «هذا هو العنوان يا أستاذ».

نظرت عبر نافذة السيارة إلى اللوحة الدائرية المعلقة بالدور الأول، وقرأت ما كُتب عليها «دار الحُر للنشر والتوزيع». شكرت السائق، وخرجت من باب السيارة بعد دفع ثمن الرحلة.

كانت بناية كبيرة، تُشبه مداخل عيادات الأطباء، أخبرت حارسها ذا الزي الأزرق بمرادي؛ فسمح لي بالصعود بعد أن مسح بعينه مظهري.

في الطابق الأول كانت اللافتة ذاتها مع سهم يشير للمكتب المرجو، كان الباب مفتوحًا، وفتاة حسناء بعوينات زجاجية صغيرة، وشعر قصير أسود ياباني التصفيف جالسة خلف مكتبها، منهمكة في شيء ما، أفرغت هواء صدري بزفير طويل: «السلام عليكم».

رفعت رأسها تجاهي وأمسكت بطرف عويناتها: «وعليكم السلام».

— «أريد مقابلة صاحب دار النشر».

أشارت لأريكة جلدية، وقالت بتهذيب مبالغ فيه: «تفضل بالجلوس يا سيدي».

جلست فقالت وهي تُسجل شيئًا على اللاب توب أمامها: «ما اسمك يا أستاذ؟».

— «مراد شافعي».

— «هل هناك سبب للزيارة؟».

— «بعض الاستفسارات».

— «حسنًا، انتظر للحظات؛ سأبلغه». قامت من جلستها، وبدأت تخطو تجاه المكتب المجاور لها، طرقت الباب ثلاثة مرات ثم فتحته، وقالت شيئًا ما لم يصل لأذني، ثم التفتت لي؛ وقالت بنصف انحناءة: «تفضل يا سيدي».

كان صاحب الدار جالسًا على كرسي جلدي من النوع المتحرك، وعلى المكتب لوحة تعريفية كُتب عليها «سامح الحُر» مدير عام دار الحُر للنشر والتوزيع». ، أشيب الرأس، ذو كرش يحاول الفرار من أزرار القميص، قال لي مشبكًا أصابعه: «السلام عليكم، كيف يمكنني مساعدتك ؟».

غصت في الكرسي الجلدي أمامه ومددت يدي بالسلام: «وعليكم السلام، أعلم أنك مشغول للغاية؛ ولهذا لن أخذ من وقتك الكثير».

حك لحيته القصيرة وابتسم.

– «هناك رواية منشورة في داركم، وقد جئت لأخذ بعض المعلومات عن كاتبها».

أخرجت رواية «شطرنج بلا ملك» من جيب سترتي، ووضعتها على المكتب أمامه، حدق بها لبضع ثوان ثم قال: «يونس سلامة!».

أومأت برأسي: «نعم، لقد توفي قبل أيام».

حدق بي لجزء من الثانية، ثم قلب الرواية بين أصابعه، وأردف: «إني أتذكرها بالتأكيد، رغم مرور سنوات على نشرها، لم تحقق المبيعات المطلوبة منها.. ولكنني لا أتذكر كاتبها».

– «إن كان هناك شيء مشترك في رحلة بحثي تلك فهي ألا أحد يذكره».

ضحك وأردف: «أخبرني أولًا، ما الفائدة مما تفعله؟».

– «لقد توفي الكاتب في حادث سيارة أمام عيني، ولم أكن أعرف إنه هو.. لديه شيء يخصني».

بـــدأت أصابعه تنقر على لوحة المفاتيح أمامه، يحك لحيته من حين لأخـــر، قال بعد دقائق: «إنه على ســـجل البيانـــات أمامي، ها هو وجهه؛ ولكنني لا أذكره، أذكر الاســـم ولا أذكر الوجه!».

– «غريب!».

أدار اللاب توب تجاهي، وسألني: «أهذا هو؟»

نظرت للصورة .. إنه هو وإن كان أصغر ســـنًا مما رأيته. أنا الوحيد الذي أذكر وجهه على ما يبدو!

– «نعم، إنه هو».

– «لقد نشر مع الدار روايتين، وكان على وشك نشر الثالثة ولكنه لم يفعل».

– «روايته الثالثة.. السكير؟».

– «أنت محق، الســـكير، لقد هاتفني ذات يوم، وقال لي أنه أنهاها، ولكنه اعتذر عن نشـــرها.. هذا ما ســـجلته بخانة الملاحظات الخاصة به، حدث ذلك منذ سنوات!».

– «ألم يفصح عن السبب؟».

– «أتذكر أنه قال لي إنها لم تعجبه بعد أن انتهى منها».

تنهدت وسألته: «هل لديك عنوانه؟».

– «العنـــوان المدون لدي يخص عائلتـــه، ولكن أخبرني أولًا بما تريد أن تفعله تحديدًا».

– «في الحقيقة كنت أريد ان أطلع على روايته الأخيرة.. السكير».

- «أهذا ما يخصك لديه؟».

- «ليست الرواية تحديدًا».

- «لا مشكلة لدي في أن أعطيك العنوان، ولكن أخبرني أولًا عن السبب».

تنهدت، وفكرت في الإفصاح عن السبب؛ ولكنني لم أستطع، بعض الأشياء مكانها الظل.

قال لي: «هناك امرأة قد سألتني على يونس مُنذ أيام، وقد قالت لي إنها ترغب في قراءة رواية السكير».

قضبت حاجبي، وسألته بصوت جاف: «من هي؟».

- «لم تذكر اسمها، كانت مكالمة هاتفية قصيرة».

بدأ العرق البارد يتسلل لجبيني، وبدأ الأدرينالين يتدفق بعروقي: «في الحقيقة يا سيدي، أنا أبحث عن تلك المرأة..». أفصحت عن سببي، لم يعد الظل مكانا مناسبًا.

حك لحيته بقوة هذه المرة، بعض الشعيرات تخلت عن مكانها والتصقت بأصابعه: «أهناك مشكلة معها؟».

- «إنها.. زوجتي!».

صمت لثواني وأشاح ببصره بعيدًا: «لم يكن عليك أن تفصح عن السبب».

- «يونس هو تذكرتي الوحيدة لإيجادها، كل شيء قد حدث بمحض الصدفة، ولكنها صدفة متقنة الصنع، لم يعد لدي طريق أخر غيره لكي أتبعه».

تنبهت للمحادثة كلها فجأة، وكأن نورًا قد أضاء جزءًا من رأسي: «قلت إنها قد هاتفتك.. هل ما زلت تحتفظ برقم الهاتف؟».

- «أظن».

أمسك بهاتفه، وارتدى نظارة طبية صغيرة، وبدأت عيناه تضيق، ثم أخرج ورقة وقلم ودوّن الرقم: «هذا هو الرقم». ناولني الورقة، قرأت الرقم ثم دسست الورقة بجيبي.

- قلت له: «هل يمكنني الحصول على عنوان عائلة يونس؟».

- «بالتأكيد».

ناولني ورقة أخرى دوّن عليها العنوان. شكرته وطلبت منه الانصراف، أوقفني وقال لي بلهجة هادئة: «لا تخبر الشرطة عن شيء كهذا، أنت تعرف جيدًا كيف يتصرفون في هذه الأمور».

- «لن أخبر أحدًا».

خرجت من مكتبه، وشكرت الموظفة ذات التصفيفة اليابانية، انحنت لي مُجددًا قبل أن تستوقفني، خطت تجاهي فنقر حذائها البلاط بإيقاع مُلخلخ، وقفت أمامي مباشرةً ثم قالت: «سيدي أظن أنني أعرفك».

حدقت بها ثم أردفت مُبتسمًا: «تعرفينني أنا؟».

«نعم، رأيتك في مكان ما.. لا أتذكر أين تحديدًا».

- «ربما.. !».

- «أين تعمل؟».

ترددت قليلًا ولكنني قلت بالنهاية: «بارمان.. في حانة البحر الابيض».

طقطقت بإصبعين: «نعم هذا هو! لقد رأيتك هناك مُنذ شهر تقريبًا.. لم أذهب لهناك مرة أخرى، كانت المرة الاولى والأخيرة».

– «هل أعجبك المكان؟».

«نعم كثيرًا، ولكنني لم أزوره مجددًا.. ربما الليلة قد أكون هناك».

– «ربما أعود لمزاولة العمل الليلة أيضًا». مددت يدي في جيبي التقطت الورقتين وأكملت: «ولكن لدي أشياء لأفعلها أولًا».

# -٦-

«لقد قلت بأنك إن استطعت الطيران.. فلن تعود أبدًا»
أغنية: (طائر أزرق) إيكيمونو غاكاري - ٢٠٠٨ .

أول شيء فعلته فور خروجي من المبنى هو محاولة الاتصال بالرقم من عدة هواتف مختلفة، وكما توقعت تمامًا فلا جدوى منه، لذا فقد دفنت الورقة بمحفظتي بلا بعث قريب.

اشتريت لوحين من الشوكولاتة، وترجلت إلى منزل سمير هذه المرة، استقبلني بحفاوة أكبر من أمس ودعاني لفنجان قهوة، كانت ياسمين في غرفتها كعادتها على ما يبدو، سألته أن تشاركنا الجلوس، فقال لي: «اذهب وأخبرها إن أردت».

أمام باب غرفتها وقفت مترددًا قبل أن أزفر الهواء، انكمشت رئتاي وطرقت الباب مرتين مناديًا إياها، قلت بصوت يعتريه الخجل: «ياسمين هل يمكنني الدخول؟». ولم أفهم شعوري بالخجل حينها.

— «ادخل».

دلفت الباب بهدوء، كانت جالسة على سريرها أمام التلفاز، كان

التلفاز يعـــرض برنامج (little stars)(*) البرنامـــج الذي يتابعه جميع الأطفال تقريبًا منذ أكثر من عامين، التفتت لي ثم عادت تتابع التلفاز، شبكت أصابعي وسألتها: «كيف حالك؟».

أومأت برأسها: «بخير».

نظرت للتلفـــاز مرة أخرى في محاولة لشـــق طريـــق للتحدث: «هل تحبين.. ذلك البرنامج؟» وأشـــرت للشاشـــة.

- «نعم».

جلســـت على السرير بجوارها بحذر وهدوء، فلم تلتفت لي: «حسنًا ما قصة الحلقة؟» سألتها.

- «هذا الفتى». أشـــارت لطفل بالرابعة عشر تقريبًا يجلس على مكتب بشاشة التلفاز وأكملت: «يكتب القصص».

- «وهل أوكلوه بمهمة كتابة القصص هذه الحلقة؟».

- «لا.. إنه يكتب القصص وقد صنعوا له كتاب».

- «إنه فتى رائع».

التفتت لي وقالت: «قالت لي أمي مرة أنك كنت تكتب القصص».

- «هذا منذ زمن بعيد».

- «هل ما زلت تحتفظ بها؟».

- «هذا كان في الماضي يا ياسمين، لقد تخلصت منها كلها».

عادت تنظر للتلفاز، مسدت شاربي، وسألتها: «هل تحبين القصص؟».

* - برنامج للأطفال تقوم فكرته باختيار طفل جديد في كل حلقة ليقوم بدور راشد، عرضت الحلقة الأولى منه بفبراير ٢٠٢٦ وقد لاقى أستحسان كبير من قبل الأطفال.

أومأت برأسها.

– «ما اسم الكتاب الذي صنعه هذا الفتى؟».

– «أبناء الغابة».

– «سأشتريه لك إذن، ولكن بشرط».

لمعت عيناها، ثم سألتني: «ما هو؟».

قلت بتردد: «حضن كبير» هممت بضمها..

فنظرت لي، ثم قالت: «لا شـــكرًا، سأطلب الكتاب من خالو سمير»، ثم أشاحت بنظرها عني.

دلف سمير الغرفة ثم قال: «لقد صنعت لك القهوة يا مراد».

– «ليس مهمًا يا سمير، لقد تأخر الوقت، وعليَّ النوم قليلا قبل الذهاب لعملي».

***

رفع حســـام رأســـه عن تكدس الكؤوس أمامه، ولوح لي بمنشفته حين أبصرني، كنـــت في مزاج متقلب تلك الليلة، ولكنه لم يمنعني من إلقاء التحيـــة، واتخاذ مكاني خلف البار، أغانـــي الجاز وتقوس الوافدين حول طاولاتهـــم، والإضاءة الزرقاء الخفيفة العوامل المثالية لليلة هادئة، بدأت أصب الكؤوس للوافدين، يثرثر أحدهم معي حول جودة البضائع الصينية، وتثرثر أخرى عن انتشار هوس كرة القدم مؤخرًا.

طالب بالسنة الأخيرة من الجامعة يتحدث عن شارل بودلير، وديوانه الأشـــهر «أزهار الشر». ــ أسأله عن يونس سلامة، فيشيح بنظره للسماء ثم يعود لي لاويًا شفتاه جهلًا.

كانت الساعة تشير للثانية والنصف بعد منتصف الليل، عندما رأيتها تتخذ مقعدها بإحدى الطاولات، السكرتيرة ذات العوينات بدار الحر للنشر، رأيتها صباحًا، قالت لي إنها ستكون بالحانة مساءً، ولكنني كنت قد نسيت ذلك تمامًا، عيناها تسبح بأرجاء المكان، التفتت إليَّ ولوحت لي؛ ثم نهضت من كرسيها واتخذت كرسيًا طويلًا أمام البار تمامًا، «كيف حالك؟» سألت.

- التقطت كأسًا ونشفته وأنا أجيب: «بخير حال» ثم سألتها: «ماذا أُحضر لك؟».

- «زجاجة هينيكن، أُفضل البيرة».

وضعت أمامها زجاجة الهينيكن وكأسًا طويلاً فارغًا به مكعبات الثلج، تحسست أطراف عويناتها ثم صبت القليل في الكأس، وتجرعته على دفعتين، سألتني: «اسمك مراد أليس كذلك؟».

- «بلى».

- «جئت لتسأل عن يونس سلامة، صحيح؟».

- «نعم، إنه رجل غامض على ما يبدو».

- «ليس كما تظن». ارتشفت بقايا الكأس ثم صبت المزيد.

- «إذن هل تعرفيه؟».

- «بدأت بالعمل في الدار بعد اختفاءه بأعوام، ولكن في يوم ما، جاءت فتاة للدار وقالت إنها تحمل مذكراته، طلبت منها العودة في وقت لاحق ولكنها لم تعد».

- تركت ما بيدي وسألتها: «هل قالت لك من تكون؟».

- «لقـــد قالت إنها أخته، وقالت أيضًا لي إنه لم يعد أحد يذكره.. إنه أمر غريب!».

- «لقد قال لي ذلك أيضًا».

- «من؟».

- «يونس سلامة، لقد قال لي أن أخته لا تذكره، وإنه هو الأخر لم يعد يذكرها».

- «كنت أظنها مخبولة، ولكن عندما ســـألت أســـتاذ سامح عن ذلك الكاتب قال نفس الشـــيء.. إنه لا يذكره أيضًا رغم أنه قد نشر له روايتين ســـابقًا، هذا ما جعلني أتحدث إليك صباحًا، هناك شيء ما يحـــدث بالتأكيد، أو بالأحرى قد حدث، ولكنني لا أســـتطيع إيقاف فضولي لمعرفته».

- «إذن فالمذكرات هي الطريقة الوحيدة لمعرفة ما يحدث».

- «ربما.. لا أعرف».

ساد الصمت لدقائق، تجرعت فيه كأسين، وأشعلت سيجارة، قاطعت الصمت: «لِمَ تشغل بالك بحكاية كهذه؟».

- «لقد هجرتـــني زوجتي مُنذ أعوام، وقد كانت قارئة مخلصة له، أظن إنه كان يعرف شيئًا عن الأمر».

- «هل يستحق الأمر كل هذا؟».

حدقت فيها للحظة ثم شـــعرت بســـخافة ما قالت فاعتذرت: «آسفة، ولكن أتعلم ربما هذا خير لك ولها.. لا تنبش كثيرًا خلف ما يؤلمك».

- «هناك نيران لا تنطفئ إلا بمعرفة سبب اندلاعها».

أومأت عدة مرات، وانشغلت بزجاجة الهينيكن، وانشغلت أنا بتلبية ما يطلبه الزبائن، عدت لها بعد دقائق: «لقد أعطاني أســـتاذ سامح عنوان منزل أهل يونس، ربما سأكون عندهم غدًا».

– «يمكنني مرافقتك أليس كذلك؟». قالت بشيء من الخجل.

– «لا مشكلة، نلتقي ونذهب معًا».

ظهرت ســـلمى مجددًا، هذه المرة كانت تدور حول الطاولات بالحانة، عيناهـــا تحدقان بي، وقفت مكاني أتابعهـــا، كانت ملامحها تبدو أكثر دقة هذه المرة، دلفت باب الحانة، وتبعتها دون إذن بالانصراف، خرجت من الحانـــة وصفعتني الرياح والفراغ الذي تركته خلفها، التفت حولي عدة مرات باحثًا عنها وعدت لمكاني خائبًا.

– «هل هناك شيء ما؟». سألتني.

– «لا.. لا شيء يا.. أسف! ما كان اسمك؟».

مدت يدها تصافحني: «أروى مجدي، لم أخبرك به سابقًا».

ابتسمت وصافحتها: «إذن موعدنا بالغد؟».

– «بكل تأكيد».

دوَّنـــت رقم هاتفي وأخبرتني أنها ســـتهاتفني غـــدًا ورحلت، وأمضيت ســـاعتين قبل النوم بانتظار ظهور شبح ســـلمى مجددًا ولكنه لم يفعل، للأشـــباح ظروفهم دائمًا فلا داعي لعتابهم!

# -٧-

«هناك تفاصيل أخرى يا كلارك، قد لا نراها ولكن هذا لا ينفي وجودها»

مسلسل:(النهاية والنهاية الأخرى) – ٢٠٢٥.

حكيت لأروى كل شيء حدث معي مُنذ لقائي بيونس ذلك اليوم، توقفت أروى بمنتصف الطريق فجأة؛ والتفتت حولها عدة مرات؛ ثم سألتني إن كنتُ أعرف طريق صيدلية قريبة. كنا في طريقنا لمنزل أهل يونس، سألتها بقلق إن كانت تعاني من مشكلة ما؟

خلعت نظارتها ومسحت حبيبات العرق المتسربة من جبهتها، وقالت بأنفاس متقطعة: «ضيق.. في التنفس!».

– «علينا العودة إذن!».

– «لا.. لا مشكلة.. فقط أحتاج لصيدلية».

اتكأت عليّ واستوقفت أحد العابرين اسأله، أشار لصيدلية على بعد شارع واحد، فمضينا تجاهها تتأبط ذراعي، أسمع صوت أنفاسها تكافح في مساراتها، ربَّت على كفها مطمئنًا إياها، كانت تبدو هزيلة مقارنة بالدقائق السابقة، مُنكمشة، مترهلة الجفون.

– «يمكنني الذهاب وحدي والعودة بسرعة، ويمكنكِ الانتظار هنا، فقط أخبريني بما أشتريه».

هزت رأسها نفيًا، وسعلت مرتين.

– «حسنًا.. لا بأس، لقد اقتربنا». ربت على كفها من جديد.

دخلت للصيدلية بينما توقفت أنا على بابها بانتظارها، عادت بعد عشر دقائق، وإن ظلت تبدو مرهقة ولكنها قالت إنها بخير الآن، جلسنا على كرسيين بجوار الصيدلية حتى تستعيد رونقها، بدأت بعد دقائق تلتقط أنفاسها بانتظام، أخرجت مرآة وتفحصت وجهها، ثبتت النظارة فوق أنفها، وأخذت نفسًا عميقًا وقالت: «الآن أنا بخير».

وكأنها ضغطت على زر إعادة الرونق! عادت بذات القوة مرة أخرى مما جعلني أفلت ضحكة لم تلاحظها على الأغلب، واستئنافنا طريقنا لمنزل أهل يونس.

سألتها أثناء الطريق: «ماذا سنقول لأهله حين نلقاهم؟».

– «إننا من الصحافة ربما، هذا ما أراه في الأفلام دومًا».

– «فكرة تبدو معقولة».

ابتسمت ولامست نظارتها.

ضغطت على زر الجرس أمام منزل أهل يونس، وهندمت قميصي.. نظرت لأروى: «صحافة؟» سألتها.

– «صحافة!». تومأ برأسها، إيماءة يابانية خالصة.

فُتح الباب، استقبلتنا سيدة كبيرة في السن، ترتدي إسدال إسلامي أبيض، قالت لها أروى (مع الاحتفاظ بالزهو الياباني): «السلام عليكم».

هزت السيدة رأسها وتأرجحت مقلتاها بيننا: «وعليكم السلام!».

– «سيدتي، أنا أروى مجدي، وهذا مراد.. نعمل في جريدة الغد الجديد».

– «وهل حدث شيء ما؟».

قطعت حديث السيدتين: «نحن هنا لنستفسر عن حياة الكاتب يونس سلامة رحمه الله».

اعتمر الذهول وجه السيدة، وبدت وكأن شرخًا ما قد أصاب جدار ثباتها، قالت: «يونس ابني؟».

لم تقو أروى على النطق بشيء ما، فقلت بشيء من التحفظ: «رحمة الله عليه».

– «أمي هل لدينا ضيوف؟» قال صوت ما من داخل المنزل، ثم ظهرت فتاة بمنتصف العقد الثاني ترتدي (تي شرت) زهري وبنطال من الجينز الأزرق، اقتربت من الباب ما أن رأتنا ثم أردفت: «مرحبًا.. خير إن شاء الله؟».

التفتت السيدة لابنتها وسألتها: «هل مات يونس؟».

– «يونس مَنْ؟». سألت الفتاة.

زفرت بشيء من نفاذ الصبر، ومسدت شاربي ووجهت حديثي للسيدة: «سيدتي يونس سلامة هل هو ابنك أم لا؟».

– «أنا.. لا أعرف.. تراودني من حين لآخر ذكريات عن ولد لي اسمه يونس، ولكنني لا أذكر وجهه!». قالت السيدة.

– «لقد قال لي نفس الشيء قبل أن يتوفاه الله».

أخرجت أروى ورقة دونت عليها رقم هاتفها ثم أهدتها للسيدة: «سيدتي إن تذكرتي شيئًا ما فأرجو أن تتصلي بي».

وسارعنا بالانصراف، كُل منا لا يعرف لما يحدث معنى!

توقفنا عند أحد المقاهي، وجلسنا نحتسي فنجاني من القهوة، ونحن نُفكر فيما حدث للتو، افترشنا الأحداث، وافترستنا الأسئلة؛ سألتني أروى: «هل تظن أن وراء ذلك الرجل سر ما؟».

- «كل ما أريده منه هو معرفة علاقته بزوجتي».

- «هل تظن فعلا أنه كان يعرف طريقها، أو أن ما تفعله ذا فائدة؟».

فكرت قليلًا: «في الحقيقة لا، لن أصل لشـــيء على الأغلب.. هذا ما يقوله المنطق».

- «ولكنك ما زلت تحاول».

أشعلت سيجارة، وأكملت: «لا أريد الموت وما زال أمامي شيء لم أفعله».

- «ولكنها خطوات غير مدروسة».

- «لا إنها مدروســـة بدقة، هناك خيط ما بالتأكيد يصلني لها، وإلا لما ظهر يونس أمامي ذلك اليوم».

- «إنها الصدفة وما تحمله من مفاجآت».

- «ما لا أفهمه حقًا هو مرافقتك لي في شيء كهذا.. ليس الفضول فقط صحيح؟».

- «أريد أن أعمل بالصحافة، وموضـــوع يونس هو مادة رائعة لأبدأ بها حياتي المهنية».

– «لم تكن كذبة إذن؟».

هزت رأسها نفيًا، وارتشفت ما تبقى من فنجانها دفعة واحدة، ثم أضافت: «يمكنني البدء بالعمل وقتما أريد، إننا بالعام الأكثر انشغالًا بالتوافه، ولكنها طريقة سيئة لبدء العمل حقًا، تخيل أن تبدأ حياتك المهنية بتقرير عن سلسلة أفلام الأغبياء السبعة(*)، إنه أمر سخيف للغاية، على الصحفي أن يبحث عن الموضوعات التي تستحق فعلًا».

– «معكِ حق، يقول دولكو: «لا يثير الموت جدل العامة، بل القصة خلف الموت»»، تابعت تدخين سيجارتي.

– «تقرأ لدولكو إذن؟».

– «نعم إنه كاتبي المفضل».

– «هل قرأت شيئًا ليونس سلامة سابقًا؟».

– «رواية شطرنج بلا ملك وقصة قصيرة، إنه رجل معقد».

– «لقد قرأت له روايتين، وبعض القصص القصيرة أيضًا، وقد لاحظت أن أبطال قصصه لا ينتصرون أبدًا».

– «وماذا يعني هذا؟». دفنت سيجارتي بالمنفضة.

– «على الأغلب إن أبطاله مرآة له، لم يستطع الرجل فعل ما يحب في حياته».

* – سلسلة أفلام أنتجت عام ٢٠٢٤تتكون من عشر أجزاء حسب ما قاله مخرج السلسلة، وهي أفلام تعيد صياغة فيلم العظماء السبعة بطريقة كوميدية، وقد أثارت شغف المراهقين بالأعوام الأخيرة وحصدت نجاحًا لم يكن متوقعًا.

# -٨-

«بطرح أبه الملح غبر مالح.. بطلع أبه م الجرح غبر مجروح!»

ديوان: (سيرة الأراجوز) خالد عبد القادر – ٢٠٠٧.

في الصباح، تنقلت بين المكتبات بحثًا عن كتاب (أبناء الغابة)، الذي كانت تريده ياسمين، وفور شرائي له ذهبت إليها، استقبلني سمير كعادته، ودعاني لفنجان قهوة كعادته أيضًا، لبيت طلبه قبل الولوج لغرفة الصغيرة.

– قال لي وهو يرتشف قهوته: «هل يمكنني سؤالك عن شيء يشغلني؟».

– أومأت إيجابًا.

– «هل كنت تشتاق لياسمين حقًا؟».

– «هل لديك شك في هذا؟».

– «في الحقيقة نعم»، زم شفتيه وحك رقبته وأكمل: «لم أتزوج أو أنجب أطفالًا، وقد عشت بعيدًا عن والداي وأختي عمري كله تقريبًا، ولكنني لا أعتقد ان هذه هي عاطفة الأبوة».

ضاقت عيني وسعلت: «سمير هل تظن أنني لا أستحق أن تكون ابنتي؟».

- «حسـنًا.. لا أملك إجابة.. إنها ابنتـك في نهاية الأمر، ولكن ألا تسـتحق منك اهتمامًا أكبر؟».

- «أحاول تعويض السـنين الفائتة، لا أملك شـيئًا أخر أفعله.. وقد طلبت مني أن أبقيها هنا، ورغم أنني مسـتاء من وضع كهذا، ولكنه الوضع الأمثل لها».

- «أعرف ما تقصده..»، بـتر حديثه فجاءة وألحمه مُجددًا: «ما رأيك بالمكوث معنا حتى الغـداء، على الفتاة أن تعتاد عليك بالنهاية».

رن هاتفي برقم أروى، استأذنته بأن أجيب، وترجلت حتى الشُرفة.

- قالت أروى عبر الهاتف: «لقد هاتفتني أخت يونس مُنذ قليل».

- «وماذا قالت لكِ؟».

«لقد رتبت معي لقاء، قالت إنه أفضل من الهاتف.. في السابعة اليوم».

- «سأكون موجودًا بالتأكيد».

- «سأرسل لك العنوان بعد قليل».

أنهيت المكالمة، وعدت لسـمير، الذي كان قد انتهى من فنجان قهوته، نظرت للساعة إنها السادسـة، فلم يتبق لي إلا ساعة واحدة تفصل بيني وبين معلومة جديدة؛ فاستأذنته بالرحيل.

وقبل أن اترجل لباب المنزل أهديت سمير الكتاب، نظر لي وسألني: «ما هذا؟».

- «كتاب قصص كانت ياسمين تريده، أهديه لها نيابة عني».

– «أُفضل أن تفعل ذلك بنفسك».

– «لن تقبله مني، ولكنها ستقبله منك».

التقـــط مني الكتاب وهممت بالرحيل، ولكنني توقفت فجأة: «سمير.. هل ماتت سلمى فعلًا؟».

– «لن أكذب عليك في شـــيء كهذا، لن أحرم ياسمين من أمها مهما حدث».

بدت أجابته مقنعة، مما أزال بعض الشك من فوق كاهلي، فسألته مباشرةً: «لماذا هجرتني؟».

– «صدقني.. إنه السر الذي دُفن معها».

ابتسمت بمرارة: «ســـأعود غدًا لياسمين، ربما يمكننا الذهاب في نزهة قصيرة».

أومأ برأسه وابتسم، وغادرت شقته.

***

– «ألم تخبركِ بشيء أضافي؟» سألت أروى.

هزت رأسها نفيًا وقالت: «فقط إنها ستتحدث حين تلقانا».

انتظرناها قرابة الســـاعة حتى ظهرت، تخطو ببطء واضح، وتمسك بيده كيسًا بلاســـتيكيًا صغيرًا، يرافقها رجل يرتدي قميصًا مكويًا بدقة كبيرة، خفيف الشعر ذو ملامح جامدة.

جلســـا قبالتنا بعد إلقاء التحية، أشـــارت للرجل ثـــم قالت: «هيثم زوجي».

- «ألف مبارك». قلت مُبتسمًا، ثم أضفت: «قال لي يونس قبل أن يتوفى أنكم تزوجتم عن قريب».

- «عقبالك». قال هيثم بنبرة مقتضبة.

- «قلتِ إن هناك شيئًا هامًا للغاية، ولهذا نحن هنا» قالت أروى.

تنهدت أخت يونس، وقالت: «حسنًا ســـأبدأ مباشرةً». تنهدت مجددًا: «لقد رحل أخي عن المنزل في ليلة ثم وصلتني أخبار عنه بعد فترة، أنه قد ترك خطيبته، ثم لم تعد الأخبار تصل عنه أبدًا.. كان ذلك مُنذ سنوات عديدة.. ولكن ما أثار استغرابي فعلًا، هو أن والدتي لم تكن تذكره، حتى خطيبته عندما راسلتها فيما بعد قالت إنها لا تذكره.. لقد سقط من ذاكرة معارفه بالمعنى الحرفي للكلمة».

- «لا أفهم شيئًا!» قلت.

فتابعـــت: «فجأة لم يعد أحد يذكره تلك هي الحقيقة، أنا فقط من كنت أذكره».

- «لقد قال لي أنك لا تذكريه.. هذا ما جعله لا يحضر زفافك!».

- «لقـــد كان يظن ذلك أيضًـــا.. ولكنه كان مخطئًـــا، لقد كنت أتذكره جيدًا».

- قالت أروى: «هذا يفسر ما قاله أستاذ سامح الحُر».

- قلت: «هذا محال.. من المستحيل حدوث شيء كهذا».

- «ولكنها الحقيقة» قالت.

خيم الصمت للحظات ثم قالت: «لقد أرسل لي أخر رواية قام بكتابتها قبل أن يتوفى بأسبوع، قرأتها عدة مرات.. إنها وببساطة تحكي عن تلك الفترة تحديدًا».

– «تقصدين رواية شطرنج بلا ملك؟» سألتها أروى.

– «لا.. بل روايته الثالثة، رواية لم تنشر.

– «السكير؟». سألت.

– «لا، انها رواية أقـــرب لمذكراته حينها.. مذكراتـــه في الفترة التي كتب فيها السكير».

أخرجت من الكيس البلاستيكي رزمة من الأوراق كُتب في أول صفحة بها (الموتى لا يرقصون) وقالت: «إنها روايته الثالثة».

التقطت الأوراق وبدأت أكافح دقات قلبي المتسارعة.

– قالت: «آسفة ولكن يتوجب علينا الرحيل الآن».

همت بالرحيل فاســـتوقفتها أروى: «شكرًا لك.. ولكن هل يمكنني أن أعرف لماذا قمتي بإعطائنا شيء كهذا؟».

أمسكت بيد زوجها وقالت: «أريد أن يعرف العالم كله من كان يونس سلامة، فهو لا يستحق أن ينساه التاريخ بهذه الطريقة».

# الموتى لا يرقصون

رواية

يونس سلامة

# تنبيه

**بُنيت أحداث الرواية على أحداث حقيقية، وقد زُيفت أسماء الشخصيات إلا بطل الرواية «يونس سلامة».**

# الفصل الأول

# عندما عُزفت الموسيقى

## (يونس)

*أحفظ نفسي داخل صندوق بقبو، وما ترونه أمامكم مُجرد ظل.*

حشـــر هاتفه السامسونج بين أذنه اليســـرى ورقبته المتقوسة لليسار، ضغط الهاتف على أذنه، حتى إن الرؤية أمامه قد تقوســـت أيضًا تسعين درجة، دس يده بالجيب الأيمن لبنطاله الأسود؛ يُفتش عن سلسلة المفاتيح المعدنيـــة: «أنا أمام الباب يا نور» قالها عبر الهاتف.

«يُمكنـــك مهاتفتي لاحقًـــا إن كنت تحتاج للراحـــة» جاءه الرد من الجهة المقابلة.

قَلَّب المفاتيح بين أصابعه باحثًا عن المفتاح المُختار، قالت نور شـــيئًا ما عبر الهاتف ولم يســـمعها؛ لاصطكاك المعادن بكفه، كان قد طلىّ جزءًا من رأس مفتاح الشـــقة بحبر أزرق مُســـبقًا كي لا يضيع: «أقلتِ شيئًا؟» سألتها.

— «لا. لا تهتم». ولكنه لم يكن مهتمًا بالفعل!

عثـــر على المفتاح المُلطخ بالحبر كان منقوشًـــا عليه ثلاثة أهرامات داخل مثلث، حشـــره بكالون الباب البُني، وفُتح البـــاب بعد ثوان مُطلقًا صريرًا مُزعجًا، تطلب منه ذلك بعض القوة ودفعة بركبته، تساءل بينه وبين نفســـه: لمَ تكاســـلت عن ترك حقيبتي الجلدية جوار الباب بدلًا من إمســـاكها؟ ألم يكن تصرفًا كهذا سيترك لكفي حرية إمساك الهاتف؟ وأقـــر أنه أحيانًا يتملكه الغباء! ترك الحقيبة من يده، وقال لنور: «رائع.. بالكاد تصلح لمكوث بشري!».

– «ماذا تقول؟».

– «لا شيء.. الشقة تسكنها الأتربة!».

– «لم يفتحها والدي منذ خمس سنوات، هذا وضع طبيعي».

– «طبيعي أكثر من اللازم».

كانـــت الأتربة قد احتلت الشـــقة بمهاراتها المعروفـــة، زاحفةً على الجدران كالنباتات المُتســـلقة، وعشـــرات العناكب - وربما المئات - رأت بالشقة بيئة مُناســـبة لبناء أعشاشها والاســـتقرار. سقطت عيناه على صرصور يزحـــف بجوار حذائه.

– «أعتقد أن والدكِ قد استأجرها للحشرات» قال مازحًا.

– «نكتة سخيفة!».... قتلت حسه الفكاهي برصاصة!

دهس الصرصور وركله بعيدًا، وتمتم عبر الهاتف: «اســـتيقظ غريغور سامســـا ذات صباح ليجد نفســـه قد تحول لحشـــرة، أعتقد أن كافكا ســـيعاقبني لدهسي صرصور للتو».

– «كُف عن المزاح قليلًا».

تجول بالشقة يُعاينها، لم تكن الغرف الاثنتين مختلفتان عن الصالة، رُبما أصغر منهـــا بقليل، أما الأتربة فقد تخللت كل شـــيء، بداية من السيراميك حتى الســـقف. كان الوضع أشبه بســـفره خمس سنوات للماضـــي، فلم يخاطر بخلع حذائـــه أو معطفه الجلـــدي، فالأتربة لا تُميز بين الأثاث والبشـــر، أردف عبر الهاتف: «ســـأهاتفكِ لاحقًا يا نور، ســـأهاتفكِ عندما أجد حلًا لتلك الفوضى».

— «يُمكنك الاستعانة بحارس العمارة، مئة جنية ستفي بالغرض».

— «أعتقد أنني سأفعل ذلك».

— «سأبلغه إذن، هاتفني بعدما تنتهي.. سلام».

أغلق المُكالمة، ودفن الهاتف بجيبه، تبول وغســـل يداه ووجهه بالحمام، علـــى الأقل مازال الصنبور يعمل، تحقق من عمل الكهرباء كذلك رغم تلف مُعظم المصابيح؛ فتح باب الشرفة سامحًا للضوء بتخلل ما لم يتخلله لسنوات، نفض الغبار عن الأريكة وجلس يُدخن سيجارة كليوبترا، وماذا بعد؟ يســـأل نفســـه، أنتهى من التدخين.... ودهس السيجارة بحذائه الرياضي الأسود على الســـيراميك، تثاءب وحمل حقيبته، أوصد الباب خلفه ونزل أربعة طوابق للقاء حارس العمارة، كان الأخير أشعث الشعر ذا جسد نحيف، وقسمات وجه صعيدية شكلتها حرارة الشمس وملح بحر الإســـكندرية. يجلس واضعًا قدم فوق الأخرى على كرســـي بلاستيكي أبيض، يُدخن ساندًا راديو رمادي اللون بجوار أذنه، يُخرج الراديو همهمة لم تســـتطع أذناه ترجمتها، نظف حنجرته وألقى عليه السلام.

— «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته» أغلق الراديو، والتفت يتفحص الواقف أمامه، شاب ذو بنية شبه هزيلة ووجه ذو ملامح كئيبة، وإن لم يكن له دور باختيارها، أضاف العجوز متسائلًا: «كيف يُمكنني خدمتك؟».

حاول جمع شـــتات حديثه: «أنا المستأجر الجديد.. المستأجر الجديد للشقة رقم سبعة.. الدور الرابع».

ضيق حارس العمارة عيناه، فتابع الشـــاب إتمام حديثه، ولكن العجوز أطلق آهة طويلة بالهواء وأردف: «حادثتني الآنســـة نور بشـــأنك، تريد تنظيف الشقة أليس كذلك؟».

– «آه.. أجل!». أجابه وأضاف إيماءة برأسه.

– «فلنُسرع إذن».

دس المذيـــاع بجيب جلبابه الأبيض، وهمَّ واقفًا فبدا أطول منه بقليل، ربما قد تجاوز المئة وثلاثة وسبعين سم والعقد الخامس، تحرك يجر ساقًا خلف ساق ببطء وكسل، تبعه الشـــاب، حاشرًا يده بجيب بنطاله واليد الأخرى تُمسك الحقيبة، لمَ لم أترك الحقيبة بالشقة؟ المزيد من القرارات العفوية الغبية التي لا مبرر لها، قالها في نفسه.

كان الأول يُدندن لحنًا صعيديًا أثناء تجاوزه درجات السُـــلم، توقف عن الدندنة فجأة وســـأله: «اسمك يونس صح؟».

– «أجل».

– «أحب ذلك الاســـم، عندما أخبرتني نور بـــأن اسمك يونس فرحت كثـــيرًا، أغنية منير الـــتي تحكي جزء من الســـيرة الهلالية، يونس وعزيزة، تعرفها بالتأكيد.. أحســـنت اختيار زوجتك يا ولدي، نور إنسانة رائعة».

– «ماتزال خطيبتي، كما أنني لا أعرف ما تقصده بيونس وعزيزة!».

ضحك العجـــوز: «زوجتك باعتبار ما ســـيكون عاجـــلاً أم أجلًا.. أخبرتـــني أيضًا أنك تكتـــب الروايات».

نفث يونس زفـــيرًا اختلط بالملل حاول إخراجه بـــلا صوت، وأجابه: «أجل» فلم يُضيف شيئًا، أغلب الظن أنه لاحظ مللـه من الحديث فتوقف عنـــه، صعدا للطابق الرابع، وكان العجوز بجواره يلهث، تســـاءل يونس بنفســـه كيف سينظف الشـــقة؟ فتلك الأعمال لا تناسب سِنه. حشر المفتاح بالكالون، وبقوة أزيد من المرة الســـابقة؛ فُتح الباب فأصدر صريرًا أقوى، دخل العجوز وتلفت حول نفســـه يُعاين العمل، ثم التفت له قائلًا: «سيتطلب التنظيف ســـاعتين، عُد بعد ساعتين ستجدها نظيفة».

- «عم».

- «عبد النبي» قاطعه واضعًا كفه على صدره.

- «هل أنـــت واثق من إتمامك عمل كهذا يا عم؟ أعذرني ولكنه عمل شاق، أتود مني مساعدتك على الأقل؟».

ضحـــك، فبادله يونس بابتســـامة قلقة، وربت علـــى كتفه: «اذهب واشـــرب الشاي بالمقهى، وعُد بعد ســـاعتين، لم أفقد صلابتي بعد يا فتى وأنت لم تفقد نقودك».

ضحك.

ترجل لدقائق قبل أن يجلس على مقهى البورصة التجارية بالمنشية(*)، بطريقة ما كان يرى هذا المقهى مُميزًا. الطاولات ذات الفرش البلاستيكي الأصفر، الكراسي الخشبية والهدوء التام إلا من بعض الهمهمات وتصادم الملاعق المعدنية بالأكواب، التي تكاد تُسمع من الجالسين. اعتاد الجلوس هناك للكتابة بالصباح، أما الآن فلم يعد باســـتطاعته الكتابة بسهولة، مُجرد مقاطع صغيرة يكتبها من حين لأخر على هاتفه، أو على صفحته

* - مقهى مشـــهور بالمنشـــية، تم إغلاقه نهائيًا بالعام ٢٠٢٥ وهدمه بعدها بعام واحد وتحويل البناية لفندق على الطراز الحديث.

الرسمية على موقع فيس بوك(*). أما شغفه بكتابة روايته الثالثة فقد تبدد نهائيًا، «سدة الكاتب» أكبر كابوس قد يواجهه أي كاتب، وهو باختصار أن تتوقف نهائيًا عن الكتابة بلا سبب واضح، تظل لساعات وساعات جالسًا أمام صفحة بيضاء في انتظار تلويثها بالحبر، ولكن ذلك أصبح شيئًا أسطوريًا، يُشبه العجز الجنسي، فإن اعتبر يونس الكتابة زوجته - إن لم تكن كذلك بالفعل - فقد أصبح الآن (يصارح نفسه بخجل) أنا مُصاب بعجز جنسي واضح!

كان هذا هو السبب الأول الذي دفعه لاستأجر شقة من والد نور، لعل عُزلته تفلح في علاج ذلك الكابوس، أما السبب الثاني فكان محاولةً لتوطيد العلاقة مع والدها، فقد كان الأخير يكرهه، وإن لم يفصح عن ذلك علانية.

ولكن يظل كابوسه الأكبر في أن يتملك ذلك الشعور منه (شعوره بالعجز)، فيصير عاجزًا عن الكتابة للأبد. الرواية الثالثة - كما يقول دائمًا، هي ما ستُثبت كونه كاتبًا أم مُجرد هاو خاض تجربة عابرة.

رمقه والد نور ذلك اليوم وضاقت عيناه وذم شفتاه، تنهد وقال له بصوته الأجش: «تقول إنك تريد استئجار شقة؛ وستكون قادرًا على دفع الإيجار لمدة شهرين، وفي نفس الوقت أنت تَدخر للزواج من ابنتي؟!».

كانت لكنته تحمل قدرًا لا بأس به من السخرية؛ وهي ما جعلته يتردد بعض الشيء، حَك أصابعه بعضها ببعض، واعتدل بجلسته، نظف حنجرته وأجابه: «نعم، أحتاج للعزلة الآن حتى أستطيع إكمال روايتي».

«اسمعني جيدًا، أنا لم أقبل بخطبتك من ابنتي إلا عندما أرادت هي ذلك.. هي غبية لتصدق حجتك تلك، أما أنا فلا، أخبرني ماذا تريد تحديدًا؟».

---

* - موقع تواصل اجتماعي تم استبداله بموقع (town) فيما بعد.

«أنا لا أكذب فيما قلت، يُمكنني اســـتئجار شقة أخرى إن كان ذلك سيتســـبب بإزعاجك.. ولكني لن أتراجع عن قراري بأي حال».

وبالنهايـــة وافق فقط لرغبـــة ابنته وثقتها بيونـــس، أما عن توطيد العلاقة معه، فقد أقر يونس أن ذلك أصعب من أن يتم بالوقت الراهن.

ارتشـــف الشاي ببطء، مر عقرب الدقائق بساعته دورة كاملة. مازال أمامه دورة أخرى ليعود للشـــقة، كيف أقتل الوقت؟ كان السؤال يجول بخاطره بلا إجابة، وانتهى الحال بمراقبته. تقدم شـــاب تجاهه بخطوات مترددة حتى وقف أمامه مباشـــرةً: «إذا سمحت لي». قال بخجل..

حك رأسه، وتابع: «أنت الكاتب يونس سلامة؟».

– «نعم، إنه أنا» أجابه.

«أيمكنني الجلوس معك؟».

بسط يده تجاه الكرسي أمامه، ابتسم الشاب وجلس: «هل عطلتك؟» سأله. فهز الأخر رأسه نفيًا.

– «حسنًا، أنا لا أقرأ، ولكنك شهير نوعًا ما.. ليس بالنسبة لي طبعًا». تردد قليلًا ثم أضاف: «أرجو ألا يكون كلامي به شيء من الإساءة».

– «تحدث كما تشاء، ما اسمك؟».

كان شعره فوضويًا لا يُمكن جمعه بسهولة ــ رغم طوله المتوسط ــ وعيناه ناعستان، حتى إن (التي شرت) الأبيض الذي يرتديه لم يكن نظيفًا بالكامل.. كان شابًا فوضويًا بما تحمله الكلمة من معنى، يُشبه هؤلاء الطُلاب الثائرين بالجامعات، أو هؤلاء الذين يســـتمعون لســـيد درويش ويرددون أغانيه بالمقاهي، في الحقيقـــة كان يوجد الكثير منهم بالمقهى حوله، أجابه: «كريم.. لم أرك هنا صدفة، بالحقيقة كُنت أنتظرك.. قد

لا تصدق ذلك لكنني أتابع تحركاتك مُنذ أسبوعين من خلال الحساب الخاص بك على فيس بوك، كتبت مؤخرًا أنك تزور هذا المكان كثيرًا».

مثير للريبة: قالها في نفسه؛ وابتلع ريقه، أشار له أن يُكمل، فأكمل: «أيُمكنني أن أطلب منك خدمة بسيطة، ولكن عدني أن تلبيها لي أولًا».

– «ألا يُفترض بي معرفتها مُسبقًا؟».

تنهد وأخرج سيجارتين من عُلبته، سجائر كليوبترا بالتأكيد، في ظل الأزمة الاقتصادية التي يمر بها الجميع؛ ترأست الكيلوبترا قائمة السجائر المطلوبة لكل الفئات العمرية؛ أشعل واحدة، وناوله الأخرى، وأكمل: «نعم معك حق.. أريد منك أن تتواجد بعيد ميلاد صديقة لي».

– «حسنًا وما شأني بهذا؟».

– «هي مجنونة بك، قرأت رواياتك عدة مرات، غير أنها تُدون كل كلمة تكتبها في دفاترها الخاصة، لا أعلم أي جنون يجتاح قارئ بكاتب، يبدو الأمر سخيفًا بالنسبة لي، ولكنه يعني لها الكثير».

انتابه شعور اختلط فيه الخجل والريبة والغضب معًا، يخجل من تصرفات صديقته تجاهه، ويرتاب من طلبه، وغضب لألفاظه التي تخرج دون تنقيح مُسبق!، فلم يسمع يونس مُسبقًا عن معجبات يصطفون أمام ماركيز، أو نساءٍ يفقدن الوعي إن ابتسم باولو كويلو. لم يضع نفسه بمكانتهم، ولكن إن كان هناك مجنونات بكاتب ما فقوانين المنطق لن تُرشحه لينال المنصب، فقد كان ينتمي (كما يقولون النُقاد) لكُتاب الفانتازيا، وهو نوع الكتابة الذي لم يلق شهرة بمصر كما بالخارج، كما إنه كان يُمكن أن يصدق كون هناك معجبات له؛ إن كان يكتب روايات تناسبهن، تلك الروايات الرومانسية السخيفة، البطل الشجاع مفتول العضلات وتلك الفتاة بالمدرسة الثانوية التي تجلس بشرفتها ليلًا تنتظر

رؤية القمر، أو صنف الروايات النسائية التي تحارب الرجال بلا سبب واضح!

- «هل توافق؟». سأله كريم.

تأمل السقف لثواني، ولكنه لم يُفكر بالأمر كثيرًا، مُجرد فعل يُمكن إدراجه تحت تصنيف الأفعال حافظة المكانة، ثم عاد ينظر له قائلًا: «لا مشكلة، أنا موافق».

- «شكرًا لك.. شكرًا جزيلًا.. عيد ميلادها بعد يومين، سأهاتفك غدًا أمليني رقم هاتفك».

أملاه الرقم فدونه الأخير على هاتفه، صافحه وهم بالرحيل، استوقفه نداء يونس: «كريم!».

التفت له فأكمل: «ما اسم صديقتك؟».

- «لوسيندا!».

- «لوسيندا» ردد الاسم.. وهو اسم مشتق من اسم «لوسين». آلهة الولادة بالميثولوجيا الرومانية، وهي التي تمنح الضوء للطفل المولود بحسب ما تذكر، وربما يكون على خطأ، قرأ معلومات كتلك مُسبقًا حينما كان غارقًا بقصص الآلهة الرومانية، من السهل ان تُفتن بفينوس (آلهة الحب) أو عبقرية أبوللو (آلهة الفنون) وغيرهم..

ولكن على كل حال، يظل اسم لوسيندا جميلًا، أو هكذا بدا له رغم ما يحمله من معنى غريب. تجولت تلك الأفكار برأسه وهو في طريقه للشقة، توقف لشراء ساندويتش من الهمبرجر من مطعم يفصله عن الشقة أمتار، رمي عم عبد النبي المفتاح بيده وقال: «اشتريت زجاجات من الصابون السائل للتنظيف، ومكنسة واستبدلت المصابيح الكهربائية».

وأضاف: «نومًا هنيًا». دس مئة وخمسون جنية بيديه فظل باسطًا قبضته حتى دس بها خمسين أخرى؛ فمررهم على فمه وجبينه يُقبلهم قبل أن يُلقيهم بجيب جلبابه.

عادت الشقة نظيفة كما لم يرها يونس من قبل، كانت الجدران بيضاء زاهية، وهو الذي لم يره مُسبقًا من زحف الأتربة، الأثاث بدا وكأنه حديث ولادة النجارين، الأرضية تلمع أحيانًا مع انعكاس ضوء المصابيح بالسقف، تناول ساندويتش الهمبرجر، واستحم بماء بارد رغم صقيع الأيام الأولى من نوفمبر، تنشف بمنشفة أحضرها معه من منزله، ورمى بجسده فوق السرير بعد أن افترشه بملاءة بيضاء أحضرها معه كذلك. كان للنوم الغلبة حينها، فلم يعد يشعر بشيء بعد دقائق.

استيقظ بالتاسعة مساءً، غسل وجهه وارتدى ملابسًا جديدة أخرجها من حقيبته، فلم يكن جائعًا، لذا حاول يائسًا الكتابة لساعة كاملة. ساعة كاملة يجلس أمام اللاب توب الخاص به ماركة ديل، ترمق عيناه صفحة فارغة ببرنامج الورد، انتهت الساعة بمحصول تدخين خمس سجائر، وكتابة سطرين..

«ما كان يجب بناء عالمي فوق أنقاض الماضي، ما كان يجب البناء من الأساس، حتى وإن زالت الأنقاض».

«ما كان عليّ أن أوافق على أي حال، فالاستماع للموسيقى مرة أخرى قد تُضعف شغفي بها»

ما كان عليّ الكتابة الآن!

قرأ ما كتبه عدة مرات، لم يكن راضيًا به، فاكتفى بحفظهم داخل ملف منفصل عن ملف الرواية، أخرج هاتفي ودُون أول عبارة بالصفحة الخاصة به على فيس بوك، وسرعان ما حصدت مئات الإعجاب، وبعض

التعليقات المُرضية، تعجب من إعجابهم بالسطر، الذي لم يقبل أن يكون سطرًا بروايته، فقد كان يراه أقل من أن يُضاف لأحداث الرواية، ولكنه خاطرة ناجحة وسط متابعين السوشيال ميديا. أشعل سيجارة أخرى، وسحابة من الدُخان تشكلت فوق رأسه، بدأ يتصفح قائمة المُعجبين بالمنشور، حتى توقف عند إحداهن (لوسيندا خليل).

تذكر لقاءه بكريم!. قال إن اسمها لوسيندا أيضًا، تملكه الفضول للدخول إلى صفحتها الشخصية.. ليجد بها مئات العبارات التي كتبها مُسبقًا، عشرات الصور له، لابد أنها لوسيندا التي يقصدها كريم، لا شك بذلك الآن فقد قال إنها مجنونة به، ولم يفهم ما يقصده بالصباح، أما الآن فقد بدأ يعي تمامًا ما يقصده.

اعتراه الخجل، وكأنه يقف عاريًا بميدان مُزدحم، فلم يحب كونه يتحول لهوس بالنسبة لشخص ما، كتب مُسبقًا عبارة مُفادها «إن الكاتب بالنسبة للقارئ ما هو إلا بعض العبارات داخل كتاب، وأما غير ذلك فهو لا يعنيه». لم يقم بالمزيد فقط أغلق الإنترنت من هاتفه وأغلق اللاب توب..

هاتفته والدته بعد دقائق تطمئن عليه، حاولت إرجاعه عن قراره، الذي كان بالنسبة لها سخيفًا نوعًا ما، قالت بعض العبارات التي تُشير لذلك، ولكنها لم تأمر برجوعه صراحةً، تحترم رغباته مهما بدت لها سخيفة، وهذا أفضل ما يُميزها، طمأنها بعبارات قصيرة وطمأنته على أخته التي تصغره بخمسة أعوام.

- «ستتم أختك عامها الثامن عشر الشهر القادم.. عليك بالتواجد وقتها» قالت له.

- «لا تقلقي يا أمي، سأكون هناك بالتأكيد».

أغلق المُكالمة، وفكر بمهاتفة نور، كان اشـــتياقه لها يزيد بمرور الوقت، لا يُنكر، ولكنه تراجع عن ذلك.. لم يتراجع بشـــكل كامل، ولكنه أجلها لوقت لاحق.

أترك لنفســـي فرصة لاشـــتياق أكبر، فبعض الأشـــياء تزداد جمالًا كُلما تأخرت وزاد شـــوقي لها، قالها في نفســـه.

ولم يجد ما يفعله لبقية اليوم، لذا نزل من الشقة، كان عبد النبي حارس العمارة، جالسًا على كُرسيه كما رآه بالصباح، كما أن الراديو قُرب أذنه لم يفقـــد طاقة بطارياته بعد: «أيمكنني الجلوس معك؟» ســـأله يونس.

– «بالطبع لا مشكلة، اسحب كرسيًا».

ســـحب كرسيًا بلاستيكيًا من كومة الكراسي بمدخل البناية، نفض عنه الغبار، وجلس بجواره، سأله: «أنمت جيدًا؟».

– «نعم جيدًا جدًا».

– «أترغب ببعض الشاي؟».

– «إن لم أكن سأزعجك».

– «لا مشكلة».

غاب عن ناظره لدقائق؛ وعاد بكوبين من الشاي الثقيل، ناوله أحدهما، وعاد لجلسته.

– «أخبرني يا فتى كيف تعرفت على نور؟».

ارتشـــف يونس القليـــل من الكوب، وأخرج ســـيجارتين مـــن عُلبته، ناوله واحدة، وأشـــعل الأخرى: «في حفلة موســـيقية، رُبما تعرف شغفها بالموسيقى؟».

– «كبرت نور علىّ يدي يا فتى، أعرف شـــغفها بالموسيقى مُنذ كانت بالخامسة، حين كانت تجلس بجواري، وربما على نفس الكرسي الذي تجلس أنت عليه الآن، وتستمع للموسيقى عبر شرائط الكاسيت».

ابتسم يونس، فأضاف عبد النبي: «كان عليك أن تراها عندما اشترت أول أورغ لها بالعاشرة من عمرها».

– «لا تبدو وكأنك حارس العمارة فقط».

– «أنا صديق لوالدها قبل أن أكون حارس للعمارة».

– «ولِمَ رحلوا عن الشقة؟».

– «قالوا بأنها شقة مسكونة».

توقف الكوب عند طرف فمه، لُســـع الجزء العلوي من شـــفته جراء البخار، ورمقه وابتلع ريقه، بينما لم يستطع العجوز أن يرتشف من كوبه جراء الضحك، وأضاف: «أمزح معك».

ابتسم وأضاف: «وكأنني كنت أتوقع شيئًا أخرًا، أخبرني لماذا انتقلوا إذن؟».

– «لا أعلم، رُبما هم يسكنون الآن بمكان الأفضل، لسنا أشجارًا لنمكث مكاننا طوال العمر.. أتحدث كالروايات أليس كذلك؟».

ضحك: «بلى. قرأت جُملة مشابهة ذات يوم».

– «لم أتعلم القراءة على أي حال، لذا فكل ما ألفظه مُستمد من هنا». أشار للراديو.

– «ماذا عن التلفاز؟».

- «لا.. لا أحبـــه، ينقل لي صورة مختلفة عما أتخيله جراء الســـمع، أتعلم.. ذات مرة ذكروا سوريا بمسلسل إذاعي قديم، قالوا إنها بلد رائع، لذا تحرك شـــغفي لرؤيتها، جلست أمام التلفاز أتابع أي أخبار عن سوريا حتى هدمت الحقيقية خيالي، ما رأيته أنقاض مُدن وأشلاء جثث، لذا تمنيت لو بقت سوريا كما بمخيلتي!».

- «ولكنها الحقيقة».

- «ليست بحقيقة يا ولدي، الحقيقة هي ما تراها بعينيك، أما ما تراه من خلال عدساتهم فهو ما أرادوا مِنك رؤيته، سوريا هُدمت، ولكنني لن أؤمن أنها أنقاض إلا عندما أراها بعيني، فلتظل سوريا رائعة كما بخيالي العجوز».

نام يونس جيدًا في تلك الليلة، ولا دخل لعدد الساعات التي لم تتجاوز الخمس ســـاعات بالنوم الجيد، بل إنه وعلى غير عادته لم يســـتغرق وقتًا بالتفكير قبل النوم، لذا استيقظ نشيطًا بالسابعة والنصف.

اشترى بعض الجُبن والخبز الطازج، تناول رغيفًا واحدًا تابعه بسيجارة، حاول الكتابة ولكنه لم يســـتطع، لذا جلس بالشـــرفة لســـاعة يستمع لمقطوعة شوبان العاشـــرة، عبر سماعات الأذن المتصلة بهاتفه، مقطوعة هادئة للغاية، ولكنها أوقدت به شيئًا يتعلق بنور. تذكرها، لم يتصل بها أمس، رغم رغبته، ترك لنفســـه بالأمس فرصة أكبر لاشتياقها، ولكنه - يخجل من ذكر ذلك أمام نفسه ــ قد نسيها، وتلك هي مشكلته معها، أحيانًا تمر ساعات دون أن تقفز بعقله، وأحيانًا تمر أيام.. أنا أحبها ولكن ذاكرتي لا تُحب تواجدها، ردد بصراحة في نفسه.

كان الجو باردًا، لذا لم يســـتطع إكمال جلســـته بالشرفة؛ أمضى النهـــار بالقراءة، بين الكتب الورقية التي أحضرها معه وبين بعض الكُتب

الإلكترونية على الحاسب (اللاب توب)، لم ينتهِ من قراءة أحد الكُتب بالكامل، يقفز بين فصول هذا وذاك، يجد نفسه يسبح مع تشيخوف بقصصه القصيرة الممتعة تارة، وتارة تدق مارشات عسكرية وهو يقف داخل دهاليز العرش بجوار ميكافيلي بكتابة الأمير، ثم ينتقل لحبس انفرادي مع قصائد محمود درويش.

أمسك جهاز الحاسب (اللاب توب)، يحاول انتزاع فكرة ما من رأسه بلا فائدة، وكأنه يحاول جاهدًا فتح باب حديدي، يفقد مع الوقت قوته، ولم يتزحزح الباب سنتيمترات عن موضعه؛ تؤلمه رأسه، لا فائدة.. لا فائدة.. لا فائدة!

يُدون على صفحته الخاصة على الفيس بوك الجملة «لا فائدة!». وكأنه يستغيث، يتصفح بعض المواقع، يقرأ الأخبار الجديدة والقديمة، يحاول أن يستوحي شيئًا ما من كل ما حوله.. لا فرصة كي يتزحزح الباب الحديدي. يسأل نفسه: كيف أتممت روايتين سابقًا؟ أهناك قوة خارجية قادتني للانتهاء منهما؟ هل كانتا تستحقان تلك الشهرة التي حققاها؟ هل أنا أكتب من الأساس؟ دوامة لم يخرج منها إلا عندما رن هاتفه برقم نور، تردد قبل أن يُجيب، ولكنه استقبل المكالمة بعد الرنة الثالثة على استحياء.

- «لم تهاتفني بالأمس!».
- «أسف يا حبيبتي، كنت مشغولًا بالكتابة» يكذب!
- «أكل شيء يسير على ما يرام، فُكت العقدة؟».
- «الفضل لكِ ولشقة الحشرات» يستمر بالكذب، كيف سأنهي العقدة؟ يتساءل.. لا إجابة!
- «رائع، أود لقاءك اليوم، هناك شيء ما ينبغي عليّ إخبارك به».

- «لا مشكلة، أهو أمر لا تستطيعين إبلاغي به عبر الهاتف؟».

- «بلى أستطيع ولكنني بالفعل أود لقاءك».

ابتسم، وأضاف: «الخامسة؟ بالمقهى الذي اعتدنا اللقاء به».

- «لا بأس، الخامسة.. لن أتأخر».

كان لديه من الوقت ما يكفيه قبل اللقاء لفعل كل شيء، قتل الوقت كان مشـــكلة كبيرة بالنســـبة له، ففضل قتله بمشاهدة بعض الأفلام الأمريكية، فقد كانت بالأساس دافعه الأول عندما فكر بكتابة أول رواية.

في الخامسة كان بالمقهى، احتسى قهوته بانتظارها، دلفت باب المقهى تابع خطوات حذائها وكعبه ناقرًا الأرضية، رفع عينيه لوجهها القمحي، كان بعينها شيء ما يستعمره الحُزن، استعلى طبقة رمادية صنعتها قلة النـــوم، ولكنها تظل جميلة كما عاهدهـــا، أو على الأقل جميلة بعينه. ابتســـمت وهرعت نحوه، بادلته السلام، وتصنعت ابتسامة يُمكن كشفها بسهولة، جلست أمامه ولم يفقد وجهها الابتسامة رغم زيفها.

- «تبدين شاحبة!» سألها.

- «لم أستطع النوم ليلة أمس».

- «ماذا حدث؟».

شـــبكت أصابعها ولم تُجب. كرر سؤاله بنبرة أهدأ، ثبتت نور عيناها على الطاولة وأجابته: «أبي على وشك إجراء عملية استئصال جزء من الرئة بمنتصف نوفمبر».

حاول إضافة جملة ما؛ ولكنه لم يُضف شـــيئًا، لم يجد من الأســـاس شـــيئًا ليُقال، فأكملت: «يُعاني من تجمع الصديد بجزء من الرئة منذ

عدة سنوات، كان يُخفي الأمر عني طوال الوقت». بدأت دموعها تنهمر، حاولت كبح نفسها ولم تستطع، كانت أرق من أن تمنع دموعها.

تمدد كفه واحتضن أصابعها، بلا كلام، فلا أحاديث ستنفع الآن: «سيمر كل شيء بخير.. لا تبكي كي تزيدي الأمر سوءًا».

سحبت أصابعها من كفه، أخرجت منديلًا وجففت ما استرسلته عيناها. سيُبلع الوجع حتى وإن ترك بأفوهنا المُر، فكر بقولها ولكنها بدت جملة درامية أكثر من اللازم، استبدلها بـ: «نور، عليكِ ألا تبكي». التقت أصابعهم مُجددًا، وربت عليهم، لم يحاول تصنع الشفقة أو شيء يشبه ذلك، قال في نفسه مخاطبًا حاله: في الحقيقة لا أشفق عليها، وإن تصنعت ذلك ستزيد حالتها سوءًا، فهي لن تقبل بذلك. ولم أحاول تهوين الأمر، ولكنني ببساطة حاولت اختراق حُزنها.

ترجلا على الكورنيش لساعتين، تأبطت ذراعه، كانت خطواتهما بطيئة يُمكن سماع نقرها على الأسفلت، انبعث من مقهى قربهما مقطع بصوت (أم كلثوم) «الله محبة.. الخير محبة.. النور محبة»، كان يونس يُحب ذلك المقطع وكأنه يُربت على كتفه، قبَّل جبينها، أكاد أقسم أنني حقًا رغبت بابتلاع حُزنها.

«لدي حفل بمنتصف نوفمبر يا يونس، من المحتمل ألا أستطيع البقاء بجوار أبي وقت إجراءه العملية».

حاوطت ذراعاه رقبتها، وقال: «لا تقلقي، سأكون هناك».

- ابتسمت: «هو لا يُحبك يا يونس، فلا تُحمل نفسك ما لا تستطيع تحمله».

- «أستطيع تحمل الكثير يا صغيرتي لأجلك».

تناول الطعام بمطعم قريب شـــاردًا مما لطخ قميصه ببعض الطعام، وعندما عاد للشقة تبخر كل شيء من ذهنه، لم يُفكر بالأمر مرة أخرى، فقط دونه على هاتفه كي لا ينساه، خلع قميصه، كان مُتسخًا؛ وألقى به على كُرســـي بالصالة. باغتته فكرة كونه لا يتصرف على سجيته. مصطنع وقد اعتاد الاصطناع، وكأنه لم يعد يبالي لشيء ما، فهو وعلى أقل تقدير ينسى معظم الأشياء لذا يُدونها على هاتفه. كان الأمر مُرعبًا نوعًا ما.. وكأنه حفظ بنفسه الحقيقة في مكان ما، وما هو عليه الآن ليس إلا انعكاسًا، صورة غير ملموسة، ألمته رأسه! كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة.

ليس هنالك الكثير لصنعه الليلة، لذا حاول النوم ولكنه فشل، لم يكن بذهنه شيء ما يؤرقه، عدا شعوره الدائم بأنه ظِل لنفسه الحقيقية؛ فلم يستطع النوم، رن هاتفه برقم لم يُسجله مُسبقًا، فأجاب: «السلام عليكم».

– «أستاذ يونس.. أنا كريم أرجو ألا تكون قد نسيتني».

عاد بالذاكرة يومًا واحدًا، قفز وجه كريم لذهنه، قال: «لا، لم أنساك، كيف حالك؟».

– «بخير، عيد ميلاد لوســـيندا بالغد، للتو قمت بحجز المكان، أرجو ألا تكون قد غيرت رأيك».

– «لا بالتأكيد، سأكون متواجدًا، أين مكانه؟».

التقط أقصوصة ورقية وقلم، دوّن العنوان الذي أملاه عليه، اشـــترى زجاجة مـــن الهينيكن وكيس من البُن، تجرع ربع الزجاجة دفعة واحدة، تفحص صفحته على فيس بوك، أخر ما كُتب «لا فائدة». يحصد مئات الإعجاب، بحث عن لوســـيندا بالقائمـــة ولكنه لم يجدها، مر على بعض المنشورات القديمة، لوسيندا دائمًا حاضرة ولكنها غابت هنا.. تجرع المزيد من الزجاجة، وأراح جســـده على السرير، وانساب للنوم بسهولة.

## (نور)

*بداخل كل ترف جزء من العقاب.*

استيقظت من كابوس مُزعج مُنتفضة، واضعة يداها على فمها لتكتم الصراخ فور ما تيقنت أنها تزال داخل غرفتها، كان صدرها يعلو ويهبط بسرعة كبيرة، وكأنه بالون يوشك على الانفجار، فيما استطاعت بالكاد أن تتلفظ بأدعية طرد الشياطين متخللة زفيرها، كما أن جسدها غرق بالعرق رغم برودة الطقس؛ التقطت منديلًا ورقيًا من فوق المنضدة بجوارها، وجففت عرقها، تنهدت ببطء لتمنح نفسها بعض الأمان، نزعت عنها اللحاف الصوفي، وخطت بقدمها على الأرضية الباردة، تسللت لغرفة أبيها؛ تتلصص عليه عبر تجويف يفصل الباب عن الحائط، بالآونة الأخيرة تحول اطمئنانها عليه بين الحين والآخر لعادة مستمرة، خاصةً بعد تحديد الأطباء لتلك العملية.

شردت أمام مرآة الحمام لثوان حين بدأ الحُلم برأسها يتبدد، يُقال إن الحُلم يتبدد بعد خمس ثوان فور الاستيقاظ، ولكن ذلك الحلم قد تمددت إقامته برأسها لأكثر من ذلك، كانت بالحلم جالسة أمام البيانو تستعد لعزف مقطوعة موسيقية لم تستطع تذكرها، ابتسمت للجمهور الماكث على مقاعده أمامها ووضعت أصابعها على مفاتيح البيانو، ولكنها صرخت حين تبين لها أن كل أصابعها مبتورة تنزف دمًا على المفاتيح البيضاء والسوداء، استيقظت حينها مفزوعة تكتم صراخها.

كم الساعة الآن؟ تساءلت، وغسلت وجهها بماء بارد، ترجلت للصالة تنظر بالساعة الخشبية على الجدار، الرابعة فجرًا، كان يُفترض بها أن تكون نائمة الآن، ولكنها باتت من الأمور المستحيلة الآن، فالاستيقاظ دائمًا ما كان أسهل من العودة للنوم؛ خاصةً إن تزاحم عقلك بالأفكار،

تسللت لغرفتها ووقفت بجوار النافذة تُدخن سيجارة من عُلبتها الميرت - علبة سجائرها السرية، تُدخن نور فقط حينما تشعر بالقلق، بدأ الأمر مُنذ سنوات، حينما قالت لها صديقة قديمة: «إن التدخين شيء مقرف، ولكنه يزيح التوتر عني».

وهكذا اتبعت نصيحة صديقتها، معاهدة نفسها بالتدخين فقط حين يتملكها القلق، ورغم تعجبها إلا إنها كانت بالفعل وسيلة ناجحة لإزالة جزء من التوتر. كانت الشوارع هادئة بذلك الوقت إلا من عواء بعض الكلاب. رمت بالسيجارة فور سماعها سُعال أبيها يأتي من خلف باب غرفتها، لوحت بالهواء عدة مرات طاردة الدخان المُتبقي بالغرفة: «أبي أأنت بخير؟».

جاءها صوته من خلف الباب: «لا بأس يا نور، لا بأس».

فتحت باب غرفتها وتجولت عيناها باحثة عنه، لتجده جالسًا على كرسي بالصالة، ضغطت على مفتاح الضوء، وبهدوء جلست على كرسي بجواره: «يجب أن ترتاح قليلًا».

- «أنا بخير يا ابنتي فلا تقلقي وعودي للنوم، لا أود إزعاجكِ».

- «لقد استيقظت وحدي، لم تُزعجني».

سعل والتقط كوب الماء أمامه وارتشف على مهل، قالت له: «أبي يجب أن تنام، الراحة شيء ضروري لك».

ضحك بانكسار وأردف: «لم يبق لدي الكثير لأعيشه يا ابنتي، بضع أيام قصيرة، ألا يتوجب عليَّ أن أكون يقظًا بها؟».

- «لا تقل ذلك!».

– «إنها الحقيقة، من على موعد مع الموت سيشـــعر باقترابه، وأنا أشعر باقترابه دومًا» قالها مُبتسمًا.

شـــعرت بأن دموعها على وشك الانهمار، هناك جليد على وشك أن ينصهر بداخلها، تماســـكت، وتجمدت حنجرتها فلم تســـتطع أن تضيف شـــيئًا، فأكمل: «عودي أنتِ للنوم يا عزيزتي، أنتِ بحاجة للراحة أكثر مـــني». قَبل جبينها وربت على كتفها.

على سريرها لم تســـتطع العودة للنوم مُجددًا، فكرت بمهاتفة يونس، ولكن الوقت لم يكن عاملًا مســـاعدًا، وإن كان الوقـــت مبكرًا لربما لن تتصل به كذلك، فقد عاهدت نفســـها علـــى ابتلاع كآبتها وحدها.

دخنت سيجارتين إضافيتين، لم تجد شيئًا تفعله لتنام، لذا قرأت قليلًا عـــن تاريخ الموســـيقى الإغريقية: إن كلمة موســـيقى ما هي إلا كلمة إغريقية، كان الإغريق يُطلقونها على فن مُركب من الشـــعر والرقص والتمثيل والأصوات الموســـيقية، لذا فإن ما نسميه اليوم موسيقى لم يكن إلا جزءًا من فـــن مركب أكبر. تعجبت وخطَّت بقلم رصاص أســـفل تلك القطعة، كانت القراءة عن الموسيقى كعزفها تمامًا بالنسبة لها، تتجول بين الصفحات كسائح يتجول بفينيسا للمرة الأولى، كل شيء هنا ساحر وجميل الكثير من الألوان، وما أن أبعدت عينيها عن الصفحات حتى عادت للحياة لونها الرمادي الكئيب.

قادها الإرهاق للنوم بالسابعة صباحًا، واستيقظت بالثانية عشر ظهرًا، فلم يتبق أمامها إلا ســـاعة واحدة على بدء البروفة، كانت على الطريق بالواحدة إلا ربع، استقلت تاكســـي لوجهتها، كان مذياع السيارة يبثّ أغنية (ليدي إن ريد) للمغني البريطاني كريس دو بيرغ، وبشكل ما قادتها الأغنية لذكرى لن تنساها..

قبل ثلاثة سنوات كانت داخل حفلة موسيقية لفرقة مغمورة، داخل قاعة صغيرة أشبه بمنزل كبير، كانت الفرقة تشبه تلك الفرق التي تظهر من العدم؛ لتتربع على عرش غناء الأندرجروند لفترة، كانت تجلس على كرسي بزاوية القاعة؛ تتابع العزف بهدوء، تصفق لهم بين الحين والأخر، كانوا يعزفون ألحانًا متنوعة، يغنون أغاني للبيتلز تارةً، وأغاني لأم كلثوم تارةً، وهو أكثر ما أثار إعجابها بهم.

انتهوا من غناء أغنية (دونت ليت مي داون) للبيتلز فارتفع التصفيق بالقاعة، أشار المغني الرئيسي في الفرقة بيده كي يوقف التصفيق وأردف: «إن الأغنية القادمة مختلفة قليلًا، إن كنتم بحاجة للرقص مع شركائكم فهي الفرصة المثالية لذلك».

صاح من بالقاعة وصَفر بعضهم فرحًا، واعتدلت بجلستها على الكرسي، حين بدأت الفرقة بالنقر على الدرامز وعزف أغنية (ليدي إن ريد) لكريس دو بيرغ، وبدأ من بالقاعة ينقسمون لعشرات المشاركين، كل رجل يرقص مع شريكته، مسدت شعرها الأسود بأصابعها وحدقت بالأرض.

– «هل يمكنني؟».

رفعت رأسها تجاه الصوت، كان شابًا هزيلًا ذا ملامح كئيبة، متوسط الطول ذا لحية شبه مكتملة يمد يده تجاهها، ابتسمت وهزَّت رأسها نفيًا، فجلس على ركبتيه أمامها وأردف: «هيا، ليس لدي شريكة، وأنتِ هنا بلا شريك».

– «لا أحتاج لشريك» أجابته باقتضاب.

– «الرقص هو من يحتاج لشريك وليس أنتِ، فكري ماذا سيقولون عنا».

- «ماذا سيقولون؟».

- «أموات، والموتى لا يرقصون!.. حسنًا، في الواقع لن يقولوا شيئًا، سيقولون عني متحرش إن لمحني أحدهم الآن ولكن ألا تودين الرقص؟».

ترددت قليلًا قبل أن تحسم أمرها: «لا، لا أريد الرقص».

- «لكِ ذلك، لن أضغط عليكِ يا..».

- «...».

- «يا.. أيتها.. الفتاة.. التي لا تريد الرقص». قالها متقطعة بطريقة ساخرة مما جعلها تضحك.

- «نعم.. أنا الفتاة التي لا تريد الرقص، أنا ميتة والأموات لا يرقصون».

هم واقفًا وأسند ظهره على الحائط: «معكِ حق، من سيرقص على أغنية سخيفة كتلك.. انظري، الجميع يرقصون.. الجميع لا يدرك سخافة الأغنية ويتمايلون، انظري كيف تطوق تلك الفتاة ذراعها حول الشاب أمامها، يا لها من سخيفة، وهو أيضًا سخيف» صمت لبرهة قبل أن يضيف: «أتعلمين أود لو كنا سخفاء مثلهم!».

- «إذن ابحث عن سخيفة ترقص معك».

حملت حقيبتها وانصرفت من أمامه خارجة من القاعة، أسندت ظهرها على الحائط بجوار الباب، كانت تود الاستماع لما تبقى من الأغنية فلم تستطع المغادرة، دقائق ودلف ذلك الشاب باب الخروج، أشعل سيجارة قبل أن يلاحظ وجودها، وعندما لاحظ تقدم نحوها وأسند ظهره بجوارها، لم يتحدثا لعدة دقائق، كانت الفرقة قد انتهت من عزف الأغنية، سألته دون أن تلتفت له: «ماذا تريد؟».

- «الرقص!».

- «أتعرف كيف ترقص؟».

- «لا.. لا قواعد للرقص، لهذا يُسمى رقص، إن كلمة رقص تعني الاضطراب، أهناك قواعد للاضطراب؟».

- «من قال ذلك؟».

- «لا أعرف سمعتها ذات مرة وصدقتها.. الرقص يعني اضطراب، يا له من معنى!».

- «إن كان هذا صحيحًا فنحن جميعًا نرقص».

- «وهناك من يرقص ليبدد الاضطراب.. اضطراب يزيح اضطراب.. بدأ حديثنا يصبح سخيفًا صحيح؟».

التفت لها وضحكا، ثم سألها: «ما أسمكِ؟».

- «نور.. أعرف كيف أرقص ولكنني لا أرقص» قالتها وسحبت السيجارة من بين أصابعه والتقطت منها نفسًا طويلًا.

- «اسمي يونس، وأنا لا أعرف كيف أرقص ولكنني دائمًا أرقص!».

غرقا بالضحك والدخان يحاوطهما..

داخل المسرح كان حسن قائد الفرقة يجلس على كرسيه، يراجع النوتات الموسيقية، ألقت عليه التحية وخلعت معطفها الجلدي، وجلست أمام البيانو، وللحظات تذكرت الكابوس الذي استيقظت عليه؛ فلم تقو على النظر إلى أصابعها، عزفت المقطع الأول من مقطوعة مون لايت لبيتهوفن دون النظر لأصابع البيانو، أخطأت عدة مرات، كانت مغمضة العينان وشيء من الطمأنينة يسكنها؛ لتمكنها من الشعور بأصابعها تنقر

المفاتيح، صفق حسن مرتين فتوقفت عن العزف وفتحت عينيها، أشار لها بالتوجه ناحيته، فتركت حقيبتها على البيانو ولامست مفاتيحه مرة أخيرة وكأنها تودعه، بين العازف والآلة الموسيقية الخاصة به لغة لا يفهمها المستمعون. وقفت أمامه فأشار لها بالجلوس، خلع نظارته الطبية الصغيرة ونظر لعينيها مباشرة وأردف: «الكثير من الأخطاء، ما الذي يحدث لكِ؟».

- «لا شيء».

- «الموسيقى لا تكذب، وما عزفته للتو به الكثير من الأخطاء، الموسيقى تفضحكِ».

ضحكت ببلاهة وقالت له: «لا بالفعل لا شيء يحدث لي، من الممكن أن أكون متوترة شيء ما».

«أتفهم توترك، وأتفهم وضع أبيكِ الصحي.. ولكن يجب أن تدركي ما أنتِ مقدمة عليه.. تلك الحفلة قد ترفعكِ لسابع سماء أو تقذف بكِ لسابع أرض».

- «أتفهم ذلك».

ربت على كتفيها وأضاف: «أنتِ تحبين الموسيقى، فلا تصنعي منها حِملًا على كاهلِك، ارتاحي اليوم إن كنتِ متعبة».

- «لا أنا بخير، نمت قليلًا فقط ولكنني بخير».

ابتسم وقال لها: «أتمنى ذلك».

# (يونس)

**الخوف من فقدان شيء يعني أنني بالفعل قد فقدت جزءًا كبيرًا منه.**

استيقظ بالتاسعة، فارغ الرأس، وكأن رأسه قد تجوف أثناء نومه، أفرغته الهينكن من التفكير، فلم يبق به إلا صفير خافت لم يرق لمرتبة الصداع، بالكاد يسمعه، ولم يجده مُزعجًا كما يُقال عنه، فقد كان مستمتعًا بصفير رأسه، تبول وغسل وجهه بالماء البارد، بدأ الصفير يزداد حِدة، أزاحه بنصف كوب من القهوة، اشترى البُن بالأمس مع الهينكن، رغم أنه كاد ينسى أمره، كما كاد ينسى أمر الأكواب الزجاجية بالمنزل.

كانت الشقة تُستأجر من قِبل المصطافين، لذا تركوا بها بعض الأكواب الزجاجية والأثاث. كم شخص تناول من ذلك الكوب قبلي؟ لا يهم!

التقط الورقة التي دوّن عليها عنوان المكان الخاص بعيد ميلاد لوسيندا، فدوّن ما بها على هاتفه كي لا يضيع العنوان، شرع بقراءة ثلاث من قصص تشيخوف، (الدبلوماسي) - (الخطيب) - (تواريخ حية) على الترتيب. أصابه الجوع، لذا هم بشراء الفطور، وأودع قميصًا أسود بالمغسلة ونسى إيداع قميص الليلة الماضية المتسخ، ظل مُلقى على كرسي بالصالة كما كان سابقًا. تناول الفطور على عجل رغم إن يومه ليس به ما يشغله. أحيانًا يقدر قيمة الوقت عندما لا يكون لديه شيء يفعله، ولكنه لم يفعل ذلك اليوم، لذا عاد للنوم مُجددًا، قيلولة صغيرة استيقظ منها بالخامسة، فلم يبق أمامه إلا ساعتين لحضور عيد الميلاد، قرأ العنوان المُدون بهاتفه مُجددًا. وعاد بالقميص من المغسلة، حلق ذقنه، وفرش أسنانه، وارتداه مع بنطال أسود. أيتوجب عليّ إحضار

هديـــة؟ هذا وضع طبيعي، ولكن ما الـــذي يُفترض بي أن أحضره؟ كان هذا هو الســـؤال الأصعب باليوم، فتـــح صفحتها الخاصة بها على فيس بوك، (لوسيندا خليل) لا شـــيء يُثير اهتمامها يُمكن اكتشافه من هنا، فعاد يتذكر ما كتبه بالأمس «لا فائدة». هاتف كريم وسأله عما يُمكن إحضاره، فأجاب الأخير ان الأمر لا يســـتحق.

كانت نبرته مُنزعجة شـــيء ما من الســـؤال، بالطبع لم يُفصح عن ذلك، ولكنه شـــيء يُمكن استنباطه من عباراته القصيرة والجامدة، قال يونـــس مباغتًا اياه: «لا يصح يا كريم، يتوجب عليّ إحضار شـــيء ما».

صمت لثانيتين وأجاب: «إذن فلتحضر لها إحدى رواياتك، ســـُتحب ذلك رغم قرأتها لهم مُسبقًا».

– «لا يبدو ذلك حكيمًا».

– «لا خيار أخر».

أغلـــق المُكالمة، وهرع لإحدى المكتبات القريبة، تعرف عليه أمين المكتبة، واتســـعت عيناه عندما سحب الروايتين الســـابقتين له من على الرفوف، ابتســـم الأمين وأردف بعد أن حك رأسه: «ألا يبدو ذلك غريبًا».

– «لا خيار أخر».

بالســـابعة كان يقف أمام المقهى المنشـــود، يحمل بيده كيس هدايا أحمر اللـــون، بداخله الروايتين وقد وقَّع علـــى الصفحات الأولى منهما مُسبقًا بإهداء عليه اسمها..

عزيزتي لوسيندا.. أهديكِ روايتي مع خالص محبتي كل عام وأنتِ بخير..

يونس سلامة.

فكر بإضافة (آلهة الولادة) ولكن ذلك يبدو وقحًا، تلك كانت مجرد فكرة غبية مما يختزن رأسه.

دلف بـــاب المقهى، العديد من الأنوار والزينـــة المُعلقة والزاحفة على الجدران أمامه، والكثير من الشـــباب يتناثـــرون بالمكان، حدق بعضهم به للحظات، وهناك من اختفى من أمامه بمجرد رؤيته. ابتلع ريقه، وأصابه بعض التوتر يذكر أن آخر مرة وقع بها بزحام مشابه كان بحفل توقيع روايته (شـــطرنج بلا ملك). كان متوترًا وقتها كذلك، وربما أكثر بكثـــير من الآن.. لا مجـــال للمقارنة. بخطوات هادئـــة بدأ يبحث عن كريم؛ حتى وجدته يجلس على طاولة بجوار فتاة بالعشرين أو أقل، لوح له كريم، فتقدم نحوه، همَّ الأخر واقفًا وألقى التحية، فيما قفزت الفتاة بجواره من على الكرســـي، وثبتت عينيها نحو يونس.

– «سعيد بقدومك» قالها كريم.

أومأ يونس بابتسامة.

أشار للفتاة المُحدقة به: «لوسيندا، هذا..».

قاطعته لوســـيندا: «يونس.. يونس سلامة!». لم يُضف كريم المزيد، وجلس على كُرسيه مشبكًا ذراعيه، مدت الفتاة يدها نحو يونس، التقطها الأخـــير: «كل عام وأنت بخير». مد الكيس نحوهـــا. التقطته واحمرت وجنتاها، وقالت بكلمات مُتقطعة تكاد تُسمع: «هذا... هذا أفضل شيء.. حدث لي!».

انتهت مراســـم عيد الميلاد ســـريعًا، الأغاني والرقص، إطفاء الشموع، تقديم الهدايـــا، ما يتذكره يونس طيلتها نظـــرات كريم الجامدة له وهو جالس على كرسيه مشبكًا ذراعيه، الفارق الزمني بين كل سيجارة

يُدخنها والأخرى عشـــر دقائق على الأكثر، وكأنه عازم على حرق شيء ما داخله، وعلى الجهة الأخرى نظرات لوسيندا الهائمة به. كان الوضع بالكامل مُحرجًا لشـــخص مثله، خاصةً عندمـــا طلبوا منه التحدث عن روايته الجديدة، فاكتفى بعبارات قصيرة تكاد تكون مفهومة: «رواية رائعة - ســـتعجبكم - مختلفة عن السابقة». ولكن الانبهار ظل يُخيم على وجه لوســـيندا، حتى وإن تلفظ فمه بعبارات لا معنى لها.

جلست بجواره على طاولة بأطراف المقهى بعد انتهاء الحفل، كانت مُرتبكـــة إلى حدٍ ما، وكان هو كذلك متوترًا من تحديقها به. لم يحب يومًـــا تحديق أحد به، كان يُحب الهالة الـــتي تحاوطه ويكره الناظرين له، والآن الأمر برمته صار ســـخيفًا. اســـتأذنها بالرحيل ولكنها رفضت بشدة وشدت على كُم قميصه، وكأنها تتوسل، قالت له: «يتوجب علينا الحديث كثيرًا، ولكنني سأكتفي بالقليل».

بسط يده بالهواء مقوسًا رقبته: «تحدثي كما تشائين».

كانت حدقتا عينيها البُنيتان تقفزان بين وجهه وملابســـه وحركات يـــده، كانت عيناها ككاميرات ترصد تحركاتـــه بدقة، من وقت لآخر تزيح خصلات شعرها البُني عن الكاميرات، تتلفظ بعبارات شبه مكتملة، كان كريم يجلس على طاولة مُنفصلة أمام شاشـــة هاتفه، وقد أشعل لتوه سيجارة إضافية، سألها يونس: «ألا يُفترض بنا دعوة كريم للجلوس معنا؟».

- «لا.. لا أريد».
- «لمَ؟». أشعل سيجارة بدوره.
- «أريد محادثتك فقط».

كانت عباراتها تلقائية لذلك الحد الذي تشـــعر معه بالتوتر، الذي يمنعك عن إكمال عبارة خاضعة للقواعد اللغوية، أضافت: «أنت تعاني من شيء ما هذه الأيام.. أليس كذلك؟».

- «لِمَ تقولين هذا؟».

- «أعلنت مُسبقًا ان روايتك القادمة ستُطرح بالمكتبات خلال شهرين، وقد انقضت المدة، حتى أنك لم تذكر اسمها، تعاني من مشـــكلة ما بها أليس كذلك؟».

- «في الحقيقة نعم!». ســـعل وأكمل: «لا أستطيع الانتهاء منها، أشعر وكأنني عاجز عن إكمالها، لكي أكون دقيقًا عاجزًا عن كتابة أي شيء».

التقطت يده، وقالت بصوت مختلف عن صوتها: «ســـتكون قادرًا على إكمال جزء كبير منهـــا الليلة، أنا واثقة من هذا».

لم يجد ردًا مُناسـبًا، تبخرت الكلمات من رأســـه، فقفزت عن مقعدها وطبعت قُبلة على شـــفتيه؛ احمر وجهه، وبدأت النشوة بالتسلل لجسده، وانتقلت عيون الجالســـين والمارين لهم: «أنت رائع!». أضافت ثم التقطت حقيبتها النســـائية واختفت من أمامه. بحث عن كريم ليجده جالسًا بمقعده يُدخن مُحدقًا به؛ أقســـم يونس بينه وبين نفسه أنه كاد يقذفه بمنفضة الســـجائر التي أمامه، كاد يمزق أحشـــاءه إن استطاع، يمضغ عظامه ويبتلع لحمه.. من الســـهل قراءة رغبته في تلك اللحظة.

عاد للشقة مباشرةً ورغم أن معدته كانت فارغة إلا من قطعة الكيك الرخيصة التي تناولها بالعيد ميلاد، إلا أنه لم يشعر بحاجته للطعام، أفرغ جيوبه، ثم نزع عن جلده الملابس وقذفهـــا حوله فتناثرت بالغرفة. فتح اللاب توب، وتذكر ما قالته لوســـيندا، شـــيء ما هبط عليه من السماء جعله يُلطخ الصفحات البيضاء أمامه بالكلمات..

# رواية «السكير».

(١)

ينتهي دوام عملي في الثانية عشر مساءً، الآن هي الحادية عشر وخمسين دقيقة.. أسوأ عشر دقائق تمُر عليّ يوميًا، ناداني خالد الذي يعمل بالمحل المجاور للمحل الذي أعمل به بالمول مُبتسمًا ابتسامته البلهاء - أو هكذا كنت أراها دائمًا - طلب مني قضاء السهرة معه فرفضت؛ حك رأسه الصلعاء بأنامله الدقيقة وزم شفتيه وانصرف ..

ناداني علاء ذو البدلة (الكليفن كلاين) التي ملت منه.. ملامحه الدقيقة المرحة والصارمة أحيانًا، التي كانت صارمة الآن وطلب مني مجالسته المكتب.. جلست أمامه في صمت بينما يحصي الأوراق المالية بيده، ثوان والتفت إلي قائلًا : «إنها المرة الرابعة التي يطلب مِنك فيها خالد السهر وترفض!».

- «لا رغبة ليّ». أجبته بلا تفكير مُسبق.

انتهى من إحصاء الأوراق المالية والهمس بالعدد الذي وصل له، وضع النقود بدرج المكتب، مرت ثلاث دقائق من العشر السخيفة، نظر قبالتي مُبتسمًا وقال: «هل شاهدت مُسبقًا فيلم ياس مان؟.. جيم كاري، تعرفه صحيح؟»

هززت رأسي بالجهل فأكمل: «يُذكرني جيم كاري بك بالفيلم، يرفض كل شيء بلا تفكير مُسبق، ولكنه عندما قال نعم تحسنت أحواله.. عليك بالقبول أحيانًا».

- «لست بحاجة لقبول دعوة خالد، ليس لدي الوقت الكافي».

عقد حاجبيه وشبك أصابعه وأكمل بلهجة صارمة: «يجب أن تخرج من حالتك تلك، أنت كأخي الصغير أليس كذلك؟».

قلت في نفسي: «كيف يحسب ذلك المعتوه فرق الأعمار؟». أكمل حديثه: «عندما كنت بمثل عمرك لم أقل لا، أسمعني جيدًا ستقضي السهرة معي».

مسحت خاتم أصبعي بأناملي وتنهدت بملل: «يا أستاذ علاء أنا..».

قاطعني : « أنت بحاجة لتغيير.. لا أعذار، بدل ملابسك وأجهز، ستقضي السهرة معي».

نقلتنا سيارته التويوتا البيضاء الصغيرة إلى مقهى كبير بمنطقة الشاطبي، وجلسنا وسط أصدقائه الثلاثة الذين يشبهونه إلى حدٍ كبير ..

قانوني الخاص في التعامل: المادة رقم (٣٢): «عندما تجلس وسط الغرباء يجب أن تتقمص دور الصندوق الأسود ذي الأقفال الألمانية.. لا يفتحه إلا خبير.. وعندما يفتحه لن يجد به شيء ذي قيمة له».

كان أصدقائه الثلاثة يلعبون في ملاعب الأربعين من العمر في مثل عمره تقريبًا، كان أحدهم يُدعى عادل ذو بشرة قمحية وشعر بدأ الزمن يبث فيه الخصلات البيضاء.. أما ثانيهم فكان أحمد الذي لم ينطق بكلمة مفيدة أو ذات قيمة، ذا شعر أسود قصير ودعابات لا يضحك عليها إلا ذوي المصلحة المُشتركة لينالوا رضاءه.. أما الثالث نادر ذو الشخصية الهادئة والغامضة.. يُدخن بشراهة سجائر الكيلوبترا ويحدق بيّ بين الحين والأخر..

أخرج الأخير سيجارة وناولني إياها، فالتقطها منه وأشعلتها بلا رفض ولكنه لم يناول الباقين بالمثل!

قانونـــي الخاص في التعامل: المادة رقـــم (١٢): «عندما يعطيك أحد الغرباء سيجارة فيجب أن تســـتعد لبدء أحاديث معه».

اخرجت علبة ســـجائري الـــ (إل إم) وناولتهم الســـجائر ولكنهم رفضوا.. لانشغال عادل بتدخين الشيشة وأحمد وعلاء لا يُدخنان، لقد خالفت الآن أحد قوانيـــني الخاصة في التعامل!

قانوني الخاص في التعامل: المادة رقم (١٣): «لا تُخرج سجائرك لذوي الصدور الواســـعة، ولا تُخرجها لمن لا يُدخنون .. فالنوع الأول ســـيطلب المزيد، والنوع الثاني سينظر لك باحتقار».

انتشـــرت الدعابات بين الجالسين وهبطت ابتســـامتي الروتينية على شـــفتيَّ فقط لألحق بقطارهم.. ولكن ظل (نـــادر) على رصيف المحطة!

ســـألت (نادر) الذي ظـــل يُحدق بي مـــن حين لأخر: «لمـــاذا تُدخن الكيلوبترا؟».

فأجابـــني: «من يعتاد على الكيلوبترا منذ صغره لا يســـتطيع تدخين غيرها». إجابة مُقنعة ومُختصرة إلى حدٍ ما، تتناسب مع شخصيته قليلة الكلام!

نظرت لساعة يدي الـــ (كاســـيو) تجاوزت العقارب الساعة الواحدة صباحًا .. طلبـــت منهم الرحيل ورحلت في هدوء..

***

أمضى ثلاث ســـاعات بالكتابة المتواصلة، كُســـر الباب الحديدي، لم يعد بحديدي، صـــار بابًا ورقيًا يُمكن اختراقه بنقـــرة إصبع. لم يتوقف لحظة، كانت الأفكار تنهمر على الصفحات بطريقة لم يعهدها في الآونة الأخيرة، حتى إنه لم يســـتطع التوقف للتدخين بين الحين والأخر، أفرغ

عقله تمامًا، وقرأ ما كتبه، ثم ارتمى على السرير.. وغاص بنوم ثقيل!

في الصباح تسللت برودة لرقبته، شيء ما بارد جَسم عليها، ملمس بارد يحاوطها، استشعر من خلاله الدقات برقبته، كان مُغمض العينين، ولكن يقظته تسللت لعقله، مد يده لالتقاطه قبل أن يعي تمامًا لما يحدث، تحسس الجسم المُلقى على رقبته، جلد ناعم متصلب، تجمد الدم بأوصاله، فتح عينيه؛ والتفت بصورة تلقائية ليجد جُثة لامرأة عارية بجواره.. نزع يدها عن رقبته، ولهث بقوة وكأنه يتوقف عن الجري بعد ساعات، قفز من السرير وسقط على ركبتيه، لم يستطع الصراخ، تجمد الصوت بحلقه، بالكاد يتنفس! سقط اللاب توب من على السرير مُرتطمًا بالأرضية فلم يهتم، ابتلع ريقه بجهد ملحوظ، يرمق النائمة أمامه.

ذات عينين بيضاء خلت من الحدقات، مفتوحتين على مصرعيهما، وفم شبه مفتوح يبتسم، حاول النهوض، تعثر مرتين وحاول مُجددًا، وقف على قدميه، يتلفت حوله يتأكد من أنه ما زال بالشقة، أو ربما تلفت لسبب غير واضح، تراجع عدة خطوات، ترمقه الجثة بلا حدقات، هناك ذبابة صغيرة تقف على حدقة عينها اليسرى. بحث عن بنطاله قرب السرير، وارتداه بسرعة، اقترب منها بخطوات مترددة، تقوس بجزئه العلوي ناحية السرير، لامس إصبعها ثم تراجع بسرعة، عاد مُجددًا والتقط كفها، لا مقاومة!

بحث عن شريان قلبها بالمعصم، تأكد بالفعل من كونها ميتة! لم يكن وجهها مألوفًا له، لم يرها مُسبقًا، لم يطارح جسدها بالفراش الليلة الماضية أو سابقًا، كان متيقنًا من ذلك تمامًا، طارح ثلاث فتيات من قبل عندما كان بالسنة الأخيرة من الكلية، على فترات مُتقاربة ولم يعاود الكرة، كانت أخرهم صديقته المقربة بالجامعة، ومن وقتها وقد قرر أنها ستكون الناهية، والجثة التي أمامه لم تكن هي، ولم تكن من الأخريات.

خرج من الغرفة شـــبه ملتصق بالجدار، وبحث عن شيء يرتديه، فلم يجد إلا القميص المتســـخ الذي تركه بالصالـــة، لا يُهم، ارتداه، ووضع قدماه داخل الحذاء، هرع لخارج الشقة مغلقًا الباب خلفه بالقفل. جلس على درجات السُلم، يحاول استيعاب ما حدث للتو، فتش برأسه، ينبش عن حدث ما، يفتش بذاكرة هاتفه، ولم يجد شـــيئًا، وضع رأسه بين كفيه، وبدأ لهاثه يخفت تدريجيًا، لم يعد ســـؤاله ما الذي حدث يراوده كسؤاله ماذا ســـأفعل؟ جلس قرابة الساعة، فلم يشـــعر بالوقت، لم يشعر بشيء تقريبًا بخلاف الخوف.

بحث عن الســـجائر بجيبـــه، فلم يجدهـــا، لم يجد ســـوى قداحته البلاســـتيكية، حدق بها للحظات وهنا فكر بإشعال النار في الجثة، ربما تتحول لرماد فتختفي، إن ملأ حوض الاستحمام بالجاز وأغرق الجثة به ثم أضرام النار بها. لم يســـتوعب عقله المشهد، رغم مروره أمامه بالعديد من الأفلام وقراءته بالروايات مُســـبقًا.

بحث عن نقـــود بجيبه، فلم يجد، كما أنه لا أســـتطيع طلب الجاز من الجيران أو عبد النبي، وإلا ارتابوا في أمره، فكر بدخول الشـــقة مُجددًا وتراجع عن الأمر فورًا، قال عبد النبي سابقًا إن سبب ترك والد نور للشقة إنها مســـكونة ،وأضاف إنه يمزح، ساوره الشـــك بأنه كان يمزح، تناول درجات السُـــلم ركضًا وهندم قميصه عندما رأى عبد النبي أمامه جالسًا على كُرسيه بجوار الراديو، رمقه العجوز فأردف يونس باصطناع واضح: «يـــا الله». ضرب جبينه بكفه، وتنبه لأن أصابعه ترتعش!

— «ماذا حدث؟».

— «نزلت لشراء بعض الأشياء.. ونسيت النقود».

— «إذن فلتعد وتحضرها، ما المشكلة؟».

- «أيمكنني الاقتراض منك مئة جنية أشتري بها ما أحتاج وأردها لك بالمساء، صعود الدرج مرة أخرى شيء مُرهق».

مد يـــده بجلبابه مُخرجًا مئة جنية ومد يده بهـــا له، وأضاف: «تبدو خائفًا، يداك ترتعشـــان، ماذا حدث؟».

- «لا شيء، كابوس مُزعج لا أكثر». التقت النقود منه، وشكره وواصل طريقه.

- «يونس!».

التفت له مرتابًا، فأضاف: «اذهب بقميصك للمغســـلة، نور مهووسة بالنظافة».

- «حسنًا.. لن أنسى، شكرًا» قالها وانصرف من أمامه.

اشترى زجاجتين من الجاز، وقداحة من نوع زيبو، أفضل ما يُميزها هو أنها تظل مُشتعلة حتى وإن أبعدت أصابعك عنها، ارتاب البائع في أمره، حدق بقميصه المُتسخ وسأله ســـاخرًا: «لمَ تريد تلك الأشياء، هل زبوني شخص بائس قرر الانتحار بصباح اليوم؟ أتريد إشعال النار في نفسك؟».

- «لا من أجل التنظيف» قتل حسه الدعابي برصاصة!

حدق البائع به وبالولاعة، فســـارع يونس بإضافـــة: «أريد أيضًا علبة سجائر كليوبترا» انزاحت علامات الريبة من على قسمات وجهه، وأردف ضاحـــكًا: «هناك طرق أفضل للانتحار!». وضع العُلبة أمامه وأشـــار لها بإصبعه: «كتلك».

حزم يونس الأكياس، وتناول باقي النقود والعُلبة وقال بنبرة ساخرة: «سأتذكر ذلك دائمًا».

عاد للشـــقة ســـريعًا، تجاوز عبد النبي، اكتفى بإلقاء التحية فقط، توقـــف أمام الباب، عاد اللهاث لرئته، اســـتجمع شـــجاعته وفتح الباب، التقط المكنســـة التي اشتراها عبد النبي سابقًا، واقترب من الغرفة بتردد، ولكن دهشته كانت باختفاء الجثة! تلفت حوله بطريقة هيستيرية، وبعد لحظات تفحص كل ركن بالشـــقة، الحمام - المطبخ - أسفل السرير - أسفل الطاولات. ولكنها اختفت بانسيابية كما كان قدومها.. بانسيابية!

جلس على الأريكة بالصالة، كان قد ترك المكنسة بجوار باب الشقة، وبدأ يستعيد اتزانه، نزع القميص عنه، وهاتف نور: «صباح الخير».

- «صباح الخير يا نور، أردت الاطمئنان على حالة والدك، أهو بخير؟».
- «تحدد موعد العملية، ســـتكون بالسابع عشـــر من نوفمبر، والحفل بنفس اليوم!».
- «أخبرتكِ ألا تهتمي بذلك، سأكون متواجدًا». ارتطم شيء بأرضية الصالة، بجوار الباب، فسقط الهاتف من يده، اقترب من الباب بتردد ليجد المكنسة قد فقدت توازنها وسقطت، ركلها بغضب، وأغلق باب الغرفة المشؤومة وعاد مُثبتًا الهاتف على أذنه: «سأكون متواجدًا معه يا نور فلا تقلقي».
- «تراودنـــي الكوابيس مؤخرًا يا يونس، وهـــذا ما يجعلني خائفة على الدوام».
- «بخصوص والدك؟».
- «أحيانًا، وبخصوصي أنا.. قد تضحـــك جراء ذلك ولكن أصابعي مقطوعـــة بالكوابيس، أكون بلا أصابع، حتـــى أنني قد توقفت عن استعمال الســـكين بالمطبخ خوفًا من ذلك.. أسوأ كوابيس العازف أن تُقطع أصابعه».

- «هذا مخيف نوعًا ما».

- «بل مُرعب، أكثر مما يُمكنك تخليه.. يونس ما الذي تخاف منه؟».

كان قد اتصل بها ليسألها عن حالة الشقة، وعما قاله عبد النبي بخصوصها، ليتحقق إن كانت فعلًا مسكونة أم لا، ولكن ذلك السؤال كان قد تبخر من ذهنه، عاد يفكر في سؤالها، مما أخاف؟ دس يده بجيبه، والتقط القداحة الزيبو، فرك عجلتها بإصبعه فاشتعلت.

ـ«أخاف من أن أفقد قدرتي على الكتابة نهائيًا، إنه كابوس يراودني بيقظتي قبل نومي!».

أغلق المكالمة ووعدها بالاتصال لاحقًا.

دلف الغُرفة المشؤومة وملم أغراضه على عجل؛ وأغلق بابها خلفه، رمى بالأغراض في الصالة، تناقصت غرفة بالشقة، لن أدخل للغرفة مرة أخرى، كان قرارًا يُشبه القرارات الطفولية إلى حد كبير، ولكنه الآن حقيقي وغير قابل للنقاش، وحتى وإن كان هو طريق النقاش.

أمضى النهار خارج الشقة، حاول معاودة الكتابة بأحد المقاهي؛ ولكنه لم يستطع إكمال ما بدأه بالأمس، كان ذلك متوقعًا على أي حال، حتى أنه تساءل: كيف أفكر بالكتابة في وقت كهذا؟ ثم عاد يُفكر بمنطقية أكثر، ما الذي حدث؟ كان يُهيأ لي أنني قد وجدت جثة تنام بجواري فور استيقاظي، مجرد أوهام يُمكن أن تحدث لعدة أسباب منها الخوف من عدم إكمال الكتابة، أو الخوف من مكوثي بشقة وحدي(مع أنه احتمال مُستبعد).

إن بحثت عن سبب ما لوهم فسأجد العديد منها، ولكن الأمر بالنهاية لا يتخطى كونه كابوسًا أو وهمًا أو ما شابه، قرأت مُسبقًا عن رجال توهموا بأشياء مماثلة لإصابتهم بعجز جنسي، ومنهم من قادته الأوهام

للانتحار بالنهاية، نظرة زوجتك لك التي تريد منك شيئًا لم تعد تملكه قبل أن تنام، تُدير ظهرك لها وترفع الغطاء حتى رأسك، وتكافح كي ترتمي في أحضان النوم. نظرة الرواية غير المكتملة لي يوميًا، وكأنها تريد تقطيع لحمي وتضيفه لها؛ كي تكتمل هي، أغلق اللاب توب، أدس به بعيدًا عني، أكافح كي أغط بالنوم. الأمر مشابه!

رُبما قد هولت الأمر، صنعت من الفقاعة بالونًا، مجرد أوهام.. أوهام لا أكثر ولا أقل!

في الخامسة من عمره كان له تجربة وحيدة مع الوهم، فقد كان يرى طفلاً يلعب معه من وقت لآخر، ولكنه كان واعيًا تمامًا أن لا أحد يراه سواه، كانت والدته تنظر له بشفقة حين يذكر اسمه، وكأن ابنها على حافة الجنون بسن الخامسة، عرضته على طبيب نفسي أوضح لها أن تلك الحالة طبيعية لكثير من الأطفال، خصوصًا هؤلاء الذين يعانون من وحدة قاسية، قد لا يلاحظها الآباء والأمهات. فربا الأسرة لا يريان معاناة الأبناء، وربما يغضان أبصارهما إن شعرا للحظة أن هناك خطأ ما بأبنائهما، فالحفاظ على كيان الأسرة أهم بكثير من الحفاظ على القلعة الرملية التي بناها طفلهما.

وفي نهاية العام تحديدًا عندما أنجب والداه أخته، اختفى صديقه الخيالي تمامًا، وربما اختفى لانشغاله عنه، ولكن أخته لم تملأ الفراغ بالكامل، وإنما المدرسة بعد التحاقه بها وأصدقاء المدرسة كانوا السبب الأقوى لاختفائه.

هاتفه كريم، تردد قبل أن يستجيب لمهاتفته، بدت له الأمور تتبع نهجًا خاليا من المنطقية.

– «أود مقابلتك اليوم» قال له.

- «للأمر علاقة بلوسيندا؟» سأله عاقدًا حاجبيه.

- «أعتقد.. لا.. إن للأمر علاقة بي أكثر من لوسيندا».

أشعل سيجارة، وأجابه: «يُمكننا اللقاء، أنا بالمقهى، التجارية».

- «أنا بالطريق، لن أتأخر».

لا يكـــن يعلم إن كان يحمل إجابة لِما حدث أم لا، ولكنه لم يكن ينوي إخباره بشـــيء، فقط تملكه الفضول لمعرفة ما يريده كريم منه تحديدًا، خاصةً وبأن نظراته له بعيد الميلاد لم تكن مريحة، قال في نفســـه: كادت غريزته الانتقامية تقوده لأن يقطع شـــفتاي بعد قُبلة لوســـيندا. الأمر برمتـــه كان حادثًا غريبًا، ولكن لأكون صريحًا مع نفســـي فقد كان رائعًا، لا أنكر أنني ورغم اســـتبعاد تلك الفكرة فور قفزها لرأســـي، وددت لو أن ســـريرًا جمعني بلوســـيندا فور لقائي بها، وربمـــا فكرت للحظات بمصارحتها بتلك الفكرة الفظيعة، «لوسيندا.. عزيزتي، ما رأيك بزيارة قصيرة لمنزلي؟». ولكن يظل التعقل في تلك اللحظات هو المُسيطر، وهو ما أردته تمامًا أن يُسيطر.

وربما خطرت الفكـــرة ببالي لتصرفاتها تجاهـــي، حين يكون الرجل محبوبًا من قبل فتاة، فإن عقله يتأرجح بين أفعال مُشينة وأخرى مُشينة بطريقة كارثية، وعما يُمكنه فعله حيال الأمر، فإن بادلها شـــعورًا مزيفًا شعر بذنب تعلقها به، وإن أبعدها عنه شعر بذنب هجره لها، وإن ظفر بها على سريره شعر بذنب لا يُغتفر.

ولكن تظـــل لعنته الكُبرى هي أنها الطرف الـــذي يبادله الحب، وهو لا يســـتطيع فعل شـــيء حيال الأمر، يصير الحُب كارثة للرجل حين لا يملـــك ما يقدمـــه بالمقابل، على أي حال من الجيد أنها لم تشـــاركني الفراش وإلا اســـتيقظنا صباحًا وتفصل بيننا جثة على الســـرير!

- «تأخرت عليك؟» قالها كريم لينتشله من بحر أفكاره.

- «لا، لم تتأخر، أهلًا بك» صافحه، وجلس قبالته، أخرج من كيس بلاستيكي طبقين من الفيلين بداخلهما قطع من لحم الدجاج، أردف: «شاركني الطعام، لم أتناول غدائي بعد».

وضع الطبق أمامه، وبدأ بالتهام طعامه، أشار له بيده أن يبدأ بتناول طعامه،فلامس الأخير القطع بأصابعه،باردةوناعمةوبيضاء كجلد الجثة!

ـ«أهناك مشكلة ما؟ ألا تُحب الدجاج؟» سأله.

وبدأت العصارة الهضمية ترتفع لحلقه: «انتظرني قليلًا!».

هرع للحمام، وأسند يداه فوق المرحاض وتقيأ؛ غسل وجهه وفمه، والتقط منديلًا ورقيًا من الواقف على الباب، ومسح به وجهه، ووضع بيده جنيهين، وعاد لجلسته، كان كريم قد انتهى من تناول طعامه: «ألن تأكل؟» سأله.

- «في الحقيقة تناولت طعامي قبل مجيئك».

أخرج منديلًا ومسح فمه،:«حسنًا، لا بأس»، نادى على النادل وطلب كوبًا من الشاي، التفت ليونس مُبتسمًا وأردف: «أنا سعيد لحضورك عيد الميلاد».

- «أنا أيضًا سعيد».

- «سعيد بالقُبلة أليس كذلك؟».

تردد قليلًا بالإجابة، ثم وضع الطبق أمامه بالكيس البلاستيكي؛ حتى لا تسقط عليه عيناه: «لا، كان الأمر مفاجئا، حتى إنني لم أستطع منع حدوثه، لم أقرأ نواياها».

- «رائع، تستطيع قراءة النوايا أيضًا؟» سأله ساخرًا.

أنزل النادل كوب الشاي وكوب الماء من الصينية بيده على الطاولة، التقط كريم كوب الماء وشربه.

- «لا أحد يقرأ النوايا، ولكن يُمكن التكهن بها» أجابه محاولًا الهرب من الحقيقة، وهي أنه بالفعل تكهن بفعل غير طبيعي، أستند إليه من حركات لوسيندا، لا شك بأنه ورغم استبعاد ذهنه لحدوث ما حدث فقد توقعه وربما أراده أن يحدث!

- «تكهنت بالقُبلة إذن ولم تستطع إيقافها؟» غرف الملعقة بحبات السُكر، ورمى بها في الكوب.

- «إلى أين تريد أن تصل بتساؤلاتك؟».

توقف عن تقليب الكوب وأردف: «اسمعني يا أستاذ، لا أريد أن أكون وقحًا معك؛ لأنني وبلا شك أقدر موقفك من الأمر برمته، ولكن أرجوك.. ابتعد عن لوسيندا».

- «أنا لم أقترب منها من الأساس!».

- «أعلم ذلك جيدًا، ولكنني أرجو أن تحافظ على تلك المسافة.. فلتعتبر هذا رجاءً من أخ صغير».

أمسك يونس بأطراف الموضوع، كل شيء واضح الآن، فكريم ورغم بحر وقاحته إلا أن مشاعره قد بدأت الآن تطفو على السطح، إنها لحظة التوسل التي يحاول المحب إلباسها لباس التهديد، فما من مُحب ألا وتوسل، ابتسم يونس: «تُحبها أليس كذلك؟».

ابتلع كريم ريقه، وأشاح بنظره بعيدًا، قبل أن يُجيب: «ألا يبدو ذلك واضحًا أيها الغبي؟!».

- «عقلي العجوز لم يستوعب الأمر برمته من البداية».
- «لوســـيندا..» توقف عن الحديث وتنهد ثم أكمل بكلمات لم تُرتب: «أحبهـــا، ولكنهـــا لا تعلم.. لوســـيندا لا تعلم شـــيئًا، أنا صديق.. بعينيهـــا.. بعينيها فقط!».
- «هذا سيء، مررت بعلاقة تُشبه تلك سابقًا، وانتهى الأمر برمته».
- قاطع حديثه: «حسنًا، حســـنًا، لا أهتم بالنتائج، ما قد جئت لأقوله قد قلته وانتهى الأمر.. أرجوك ابتعد عن لوســـيندا».
- «لا أحمل تجاهها شيئًا من الأساس، وآسف على ما حدث بالأمس».
- «لا تعتذر، أردت فقط أن أراها سعيدة لهذا دعوتك للحضور، لم أكن أعلم أن الأمر سينساق لهذا الحد.. اللوم عليّ!».

أمضي كريم نصف ساعة قبل رحيله، لم ينطقا بها إلا بعض الجُمل الحوارية، التي لا تصلح لتشـــكيل حديث متناسق، فكر يونس في محادثته بشأن الجثة، ولكنه تراجع عن الأمر، فقد أقنع نفسه بشكل كامل بكونها مجرد أوهام أو كذب على نفســـه، كالمادة الخام التي يصنع منها رواياته، وربما اختلاط الوهم بالحقيقة قد يُساعده بشكل أو بآخر فيما يكتب!

(نور)

حين تعثرت وكدت أسقط اختفت الجدران من حولي وابتسم القاع!

عشـــر أيام تفصلها عن الحفل وعن عملية والدها، إن ســـألها أحدهم الآن بما تشـــعرين؟ فلن تجد كلمة دقيقة تحمل تلك التناقضات بين حروفها، وربما ستبتســـم، الابتسامة تقول الكثير حين لا تجد ما تقوله، ولكن من سيفهم المعنى وراء ابتسامتها؟

أنهت البروفة بالتاسعة، تحولت البروفات للقاءات روتينية مع الوقت، حين يعتاد المرء الجلوس بمكان واحد لفترة طويلة فإنه يلتمس الشيخوخة في نفسه، ورغم إرهاقها فلم تكن لديها رغبة بالعودة للمنزل الآن، تحججت ببعض البروفات الإضافية لوالدها عبر الهاتف، وجلست بالمقهى القريب من المسرح، كانت السماء تُمطر مطرًا خفيفًا، كانت تراقب انزلاق قطرات المطر عبر زجاج المقهى بينما بدأ بكاء السماء يشتد، تناولت كوبًا الماء أمامها بين أصابعها؛ وارتشفت منه مع تحفظها كي لا يسقط منه شيء، ولكن الكوب بأكمله سقط من بين أصابعها ليتناثر الزجاج على الطاولة وتحت قدميها.

توقف ضجيج رواد المقهى لثواني ينقلون نظرهم تجاهها، انحنت محاولةً جمع شتات الزجاج، فأوقفها النادل بأدب، وللم الفوضى وأردف: «يا آنسة، إن يديك قد جُرحت!».

رفعت يديها أمام عينيها مقلبه إياهم، جُرح إصبعين من الخمس بيدها اليمنى، وهو ما أصابها بالفزع، نهضت من جلستها وتوجهت للحمام تغسلهما، وعندما تلاقت عيناها بانعكاس صورتها على المرآة لم تستطع كبح دموعها أكثر من ذلك!

***

تسعة أيام تفصلها عن الحفل، كان هذا أول ما خطر ببالها فور استيقاظها، فتحت ضمادة الجرح بأصابعها فتسلل القلق لأوصالها من جديد، ماذا لو استمر الحال هكذا ليوم الحفل؟

بالمسرح كانت الأجواء المعتادة هي السائدة، الكثير من الهمهمات بين أفراد الفرقة، جلوس حسن على كرسيه يتابع تدريبات الأفراد التجهيزية للبروفة، خبأت نور يدها اليمنى خلف الحقيبة عندما مرت

بجواره، وجلست بكرسي بعيد عن باقي الفرقة بإحدى زوايا المسرح، فتحت زجاجة مياه بيدها اليســـرى وتجرعت نصفها دفعة واحدة، اقترب حسن منها، وقال: «ألهذا الحد أنتِ عطشـــة؟».

- أومأت.

- «أيمكننا التحدث قليلًا.. قبل أن تبدأ البروفة؟».

- «أهناك خطب ما بالحفل؟».

سحب كرسي ووضعه بصورة عكسية أمامها، وجلس عليه: «لا، الأمور تسير على ما يرام، إن الأمر أبسط من ذلك».

وضعت الحقيبة فوق يدها اليمنى وأردفت: «إذن ماذا هناك؟».

- «نور.. أيمكننا تناول العشاء اليوم بعد البروفة؟ أعرف مطعمًا ممتازًا وقريبًا من هنا».

- «أهذا هو الأمر؟!».

- «قلت لكِ إن الأمر بسيط».

- «ولكنني....».

- قاطعها: «لا، لا مجال للرفض.. بالتاسعة ستنتهي البروفة، وبالتاسعة والربع سنكون بالمطعم.. اتفقنا؟».

- ابتسمت: «حسنًا، لا مجال للرفض».

- «رائع، لا أحد يرفض الطعام صحيح؟».

- لم تُجب.

– «أوه، ليس هذا ما وددت قوله، ما أقصده .. حسنًا لا تهتمي، بالتاسعة والربع؟».

رددت وراءه ضاحكة: «التاسعة والربع».

ابتسم ونهض من على كرسيه يصيح للفرقة بأن يجهزوا لبدأ البروفة..

بالتاسعة والربع كأنا بالمطعم، يتقاسمان طاولة بالزاوية، يجلسان قبالة بعضهما البعض، بدا حسن متوترًا حتى إنه لم يستطع أن يُنهي طبق المعكرونة أمامه، تجرع كوب الماء، ونظر لعينيها مباشرةً وقال: «ما الذي حدث لأصابعكِ؟».

– «جُرحت، جرحًا بسيط.. ألم تلاحظه من قبل؟».

– «بلى لاحظته ولكنني لم أرد سؤالكِ عنه إلا بعد انتهاء البروفة».

– «سأكون بخير، إنه جرح بسيط».

جاء النادل رافعًا الأطباق شبه الفارغة من أمامهم، طلبت نور فنجانًا من القهوة، فيما طلب حسن البيبسي، أردف بسخرية: «القهوة ها؟، أحتاج لعازفة البيانو بالفرقة أن تكون على أتم الاستعداد، وأن تنام جيدًا، القهوة ستجعلكِ تسهرين».

– «يتبقى على الحفل تسعة أيام!».

– «أنا أخاف على صحتكِ».

– «حسن.. لست بأبي لتخاف على صحتي!».

لم يرد، حدق بها لثواني ثم ضحك محاولًا صبغ شعوره بلون أخر، خلع نظارته والتقط منديلًا يمسحها: «حسنًا.. معكِ حق!».

عاد النادل بالقهوة والبيبسي، أنزلهما على الطاولة وانصرف، أخرجت نور زفيرًا يكاد يُسمع وقالت: «أنا آسفة، لم أقصد.. تعرف، أشعر بالتوتر والخوف طوال الوقت؛ فلا أعي ما أقول تمامًا».

- «أعرف، لا تهتمي».

ثبت نظارته فوق أنفه، وارتشف بعضًا من البيبسي وقال لها: «كيف حال يونس؟».

- «بخير».

- «متى ستصدر روايته الجديدة؟».

- «شارف على الانتهاء منها.. لم أكن أعلم أنك تهتم بالقراءة!».

- «أقرأ من حين لآخر، ولكن لا يُطلق عليّ لقب قارئ.. فأنا لست مهتمًا نوعًا ما».

- «أنا كذلك».

ارتشفت القليل من القهوة، وشعرت بحاجتها للتدخين، وفزعت من كون التدخين بدأ يخرج عن إطار القلق، مدت أصابعها تلتقط العُلبة من الحقيبة، وأشعلت سيجارة أمام عينيه المتابعتين، قالت له: «حسنًا.. ما يحدث هنا بيننا فقط».

- «لم أكن أعلم أنك تُدخنين!».

- «بين الحين والآخر، نحن الآن نتقاسم سرًا».

- «لو قال لي أحدهم قبل ساعة إنك ستجلس أمام نور وهي تدخن لما كنت صدقت!».

ضحكت نور، فأكمل: «تتغيرين سريعًا.. وربما أسرع مما كنت أظن، أعلم إننا جميعًا نتغير ولكنكِ لا تتبعين الوتيرة الصحيحة لذلك، بكِ الكثير من الاضطرابات حتى وإن حاولتِ إخفاءها».

– «الاضطرابات، صحيح.. أتعرف أن الرقص يعني الاضطراب؟».

– «غريب!».

– «نعم غريب، ولكنه تعبير مناسب، الرقص يعني الاضطراب.. أحب ذلك المعنى!».

***

تبقت ثمان أيام، قالتها في نفسها بينما كانت تمسك بهاتفها تُراجع تاريخ اليوم، لم يهاتفها يونس مُنذ فترة طويلة، ولكنها لم تكن على استعداد لتكون الطرف الذي يبدأ التواصل هذه المرة، فهي من يبدأ كل مرة أو ربما أغلب المرات، ساروها شعور بكونها داخل علاقة أحادية الأطراف، لم تكن في حاجة للتفكير في ذلك الآن، تحاول إفراغ عقلها مما فيه، ولكنها تفشل في ذلك، بدأ جرح أصابعها يلتئم، وبدأت تعود للتمرينات الليلة بالمنزل، كل شيء بموضعه الصحيح، ولكن الخوف والتوتر ما زال يصاحبها!

بالمسرح الخاص بالبروفات لم يكن حسن في حالته المعتادة، كان مشدود الأعصاب لدرجة أن العروق الزرقاء بدأت تأخذ أماكن عدة تحت جلده، كما أن صراخه لم يكن ينقطع، كان به شيء ما ليس على ما يرام، حين رأته نور سألت نفسها: هل صدر مني شيء ما بالأمس؟ ولكنها بالفعل لم تجد شيئًا يستحق حين نبشت بذاكرتها، وربما هو ليس في تلك الحالة بسببها.

***

بعد سبعة أيام يبدأ الحفل، أسبوع واحد فقط!....سبعة، حين فكرت بذلك الآن ارتعدت رهبة وشوقًا.

بالســـابعة من عمرها اشترى لها والدها أول أورغ إليكتروني صغير، لم تنم لأسبوع إلا ساعات قليلة، تمارس عزف الألحان التي لا شكل لها، حتى اتبعت أســـلوبًا مختلفًا وهو تقليد ما تســـمعه، التعلم عن طريق السمع قبل أن تقوم والدتها بإخفـــاء الأورغ عنها لأيام لأنها - كما قالت عنها مُزعجة - وقد تسببت تلك الحادثة بعدة مشاكل بين أمها وأبيها انتهت بإرجاع الأورغ بين أحضانها.

اجتهدت بالبروفة ذلك اليوم، حتى إن بعض أعضاء الفرقة قد قاموا بالتصفيـــق والثناء على أداءها، وبالمســـاء قضيت أربع ســـاعات بغرفتها تتمرن، وحين وضعت رأسها على الوسادة تساءلت: هل أستحق الثناء؟ أم أنني ما زلت هاوية يثنون عليها كي تســـتمر لا أكثر؟!

***

انتهى يوم أخر من الأيام الســـبع، لم يبق على الحفل ألا ســـتة أيام، تبـــدأ بالأحد وتنتهي بالســـبت، كان أداؤها بالبروفـــة كالأمس وربما أفضل، ولكن مسحة من العبوس كانت تحتل وجهها، كان حسن سعيدًا للغاية، ولكن هذا لم يســـاعدها كثيرًا في تجاوز عبوسها، اشتاقت ليونس رغم انشـــغالها وانشغاله، وكأنهما قد عقدا اتفاقًا وهميًا بانعزالهما عن بعضهمـــا فترة لإنهاء ما بدآه، ورغم كونه عقدًا وهميًا إلا ان أحدهما لم يفكر بتمزيقه حتى الآن؟

بالمســـاء لم تســـتطع إجراء التمارين اليومية، كانـــت غارقة بوحدة قاسية، وكأن غرفتها ببطن الفضاء، لذا هاتفت عم عبد النبي، وحادثته بكل شـــيء وبكت حتى غاصت بالنوم.

# (يونس)

*عليّ أن أحب القيود إن لم يكن باستطاعتي تمزيقها.*

مرت ثمان ليالي، يكتب بالمساء، ثم يخلد للنوم ويستيقظ بجوار جثة! بالليالـــي الثلاث الأولى كان الأمر مرعبًا؛ بدل أماكن نومه من الأريكة بالصالة للغرفة الفارغة ثـــم المطبخ، كان يجد صعوبة بالنوم، وبالأربع ليالي الأخيرة تدرج الأمر للعادي من تلقاء نفســـه؛ عاد للنوم بالســـرير كما كان بالســـابق، وفي الليلة الخامسة تحديدًا لم يعد المشهد مرعبًا، في الليلة السادســـة لثم جبين الجثة، كانت لرجل يقارب سن الخمسين، وبالسابعة صار يلهو بها كدُمية قطنية، فقد كانت لفتاة بالثامنة عشر من عمرها، يُحرك ذراعيها وســـاقيها ويُداعب نهديها ، يمرر أصابعه بين ثناياها.

بالليلة الثامنة - بالأمـــس كانت الجثة لامرأة بأواخر العقد الثاني طعنها بسكين مطبخ - تركه بجواره قبل النوم؛ فتناثر الدم البارد على السرير ليُطلق صراح نزعاته الســـادية؛ فعاود طعنها سبع مرات متتالية بأماكن مختلفة، حتى إنه بدأ يفكر كل مســـاء - بعد الليلة الثالثة ــ وتحديدًا بعد الانتهاء من الكتابة في شكل الجثة الجديدة، التي سيجدها بجواره في النهار رجل ، امرأة ، طفل ، شاب ، عجوز ، وعما يُمكنه فعله بها.

لم يعد الأمر مُخيفًا خصوصًا مـــع اختفائها بمجرد مغادرته للغرفة، وبعد اختفاء الجثة يجلس وحيدًا لما تبقـــى من الصباح يُدخن، وأحيانًا يتملكه الخوف فيبكي ليهدأ ويعود لرشـــده، أحيانًـــا يكون البكاء بمثابة كف يربت على الأكتاف.

لم تُهاتفـــه نور خلال الأيـــام الماضية، ولم يتصفـــح مواقع التواصل الاجتماعـــي، يُمضي النهار - بعد اختفاء الجثة - بين القراءة والتدخين،

وبالمساء يكتب بانتظام، روابطه بالعالم تنقطع بطريقة تدريجية، قال لنفسه: هل أهتم؟ لا أعتقد!.

فلم يكن يشتاق لنور مُطلقًا حتى إنه تساءل عدة مرات بينه وبين نفسه هل أحبها أم لا؟ وهو السؤال الذي كرره مئات المرات، ولم يجد له إجابة، وإن كان يُحبها فهل هذا هو المسار الذي ينبغي أن تتخذه العلاقة؟ أم أن هناك مسارات أقل تعقيدًا لم يُعيرها اهتمامًا رغمًا عنهم؟ لا إجابة! ولكنه وعلى أي حال لم يكن يُمكنه أن يقسم مغمض العينان بأنها تُحبه، وربما تبادله نفس الشعور البارد الذي بدأ يُمزقه، لا يحتاجها، ولم يعتقد يومًا أن الحب بينهما مبني على الاحتياج، الحب المبني على الاحتياج كحب السجين لسجانه، أما حُبه لها فكان شعور يتأرجح بين التميز والشراكة المتبادلة، سألته مُسبقًا: «أتُفضل الكتابة عليّ؟»؛ فكانت إجابته وبدون تفكير مُسبق: «أجل بالتأكيد»، صمت ثقيل حل بينهما قبل أن يُضيف: «أستطيع إضافة وحذف ما أريد وقتما أشاء، أستطيع السيطرة الكاملة عليها، أن أغيرها بالكامل، إن لم ترق لي أمزقها وأستبدلها بكتابات أخرى، بطريقة ما الكتابة تساعدني على إخراج سيطرتي الإلهية، أنا إله لما أكتب، كُل منا بداخله نزعة السيطرة الإلهية».

زمَّت شفتيها وأردفت: «تُحبها لأنك تستطيع السيطرة عليها؟».

- «أحبها لأنني أستمتع بسيطرتي عليها، أتعجب لقدراتي على تشكيلها كما أحب».

- «لا تستطيع تشكيلي، إذن فأنت لا تُحبني صحيح؟».

- «الأمر معكِ مختلف، إن الأمر معقد يا نور، ولكن على أي حال لقد عقدنا مقارنة خاطئة، الأمر أشبه بمقارنة روايات نجيب محفوظ بشخصية أينشتاين، هذا في وادٍ وهذا في وادٍ رغم أنني أحب الاثنين».

- «لا تهتم، أفهمك جيدًا، الأمر أشبه بعزفي للموسيقى وحبي لها وحبي لك».

- «هذا بوادٍ وذاك بوادٍ أخر».

- «مؤخرًا تشاركتما نفس الوادي!».

نُقر باب الشـــقة ماسحًا أفكاره، فتحه ليجد عبد النبي، يقف بجلبابه الأبيض مُنتصب القامة مُبتســـمًا، رمقه للحظات وقال ساخرًا: «اعتقدت إنك ميت بالشقة».

أفسح له مساحة بالباب وأشـــار له بالدخول، سأله أثناء مصافحته: «وماذا لو وجدتني ميتًا؟».

دلف العجوز للشقة، تاركًا حذائه الجلدي خارجها: «سأبلغ الإسعاف، ثم أنقلك إلى المشـــفى، وربما أبلغ الشـــرطة.. ولكنني لن أستطيع إبلاغ نور بالأمر». جلس على الأريكة وأضاف: «وأســـتعوض الله في المئة جنية».

ضحك يونس، وأخرج من جيبه المئة جنية ودســـها بين راحتيه، قبلها عبد النبي وحشرها بجيب الجلباب، سأله يونس: «ترغب ببعض الشاي؟».

«سأصنعه أنا، إن لم يكن هذا يُزعجك».

«من قال إن الراحة مزعجة.. تفضل». بسط يده تجاه المطبخ، فدلف العجوز للمطبخ وملأ الإبريق بالماء ووضعه على المقود (البوتاجاز). راقبه وهو يُدخن سيجارة على باب المطبخ، يُسند كتفه على خشب الباب.

- «بدأت بكتابة الرواية بالفعل إذن» يسأله.

- «أجل» اعتصر السيجارة بين شفتيه.

- «أيمكنـــك أن تحكي لي ملخصًا لما تكتبه؟ على ســـبيل حرق الوقت،

لدي الكثـــير من الوقت بحاجة للحرق».

حك ذقنه، لاحظ كونها قد نمت بشـــكل ملحـــوظ، يُحافظ عليها قصيرة عادةً، أجابه: «في الحقيقة هذا ســـؤال صعب، فأنا أكتب بطريقة ارتجالية، لا تخطيط مُســـبق، أشـــرع بالكتابة لأدع الأحداث تسير كما تريد هي أن تسير».

— «لا تعرف النهاية إذن؟».

— «لا.. لم أفكر بالنهاية بعد».

ناولنه كوب الشاي: «لكل شيء نهاية، على الأقل يجب أن تفكر كيف ســـينتهي كل شـــيء، النهايات هي ما تبقى بالذاكرة، للنهايات أوجه كثيرة، أما البدايات فلها وجه واحد، وجه مُبتســـم!».

يومئ برأسه، وجلسا بالصالة، أشـــعل عبد النبي سيجارته واستطرد: «اتصلت نور بي أمس».

— يومئ.

«أخبرتني كم أنت مشـــغول بالكتابة، لقد انشـــغلت عنها بالأخص، أخبرتـــني كم هي قلقـــة عليك، أو بالأدق لم ترغب بـــأن تقول لي هذا صراحة، ولكنها قالتهـــا على أي حال».

— «لم أســـتطع مهاتفتها الأيام السابقة، لم أســـتطع محادثة أحد من الأساس، كنت منشـــغلاً بالكتابة للغاية».

— «لم يبق على عملية والدها سوى خمسة أيام، هي بالفعل تحتاج لك الآن».

— «تعلم بالأمر إذن؟».

- «نور ووالدها لا يخفيان عني شـــيئًا، أنا صديق للعائلة إن كان ذلك هو المسمى الصحيح للأشياء».

شـــعر يونس بالحرج من نفسه، يجب أن يكون بجوارها في وقت كهذا - أو على نحو أدق بجوار أبيها ــ ولكنه لم يســـتطع تخيل كونها ستترك أباهـــا في يوم كهذا لأجل حفلتها الموســـيقية، لم يكن يتهمها بالأنانية، ولكن أحيانًا يتوجب على المرء الاختيار بين شيئين لا يُعوضان، الحفلة لا تُعوض، فهي فرصتها المثالية لعرض موهبتها على نطاق أوسع، فرصتها لكي ينحني الجميع لها احترامًا وتقديرًا، كخلية وجدت الفرصة لتظهر تحت المجهر، ومـــن ناحية أخرى فهذا والدها، وهـــي تعرف جيدًا كيف يحتاجها بجواره في يوم كهذا.

- «سأهاتفها اليوم، كما أنني سأكون مع أبيها يوم إجراء العملية».

- «لم آتِ لهنا لهذا الســـبب تحديدًا» ارتشف من كوبه القليل وأضاف: «سألني الجيران عنك بالأمس، قالوا لي أنك كنت تصرخ مُنذ أيام، ما الذي يحدث؟».

ابتلع ريقـــه، وتذكر الجثث، صرخ بالفعل عندمـــا ظهرت له الجثة الثالثة، لم تكن صرخة فزع بقدر ما كانت كصرخات الخلاص: «أواجه الكوابيس أثناء النوم، رُبما لأنني لم أعتد على الشـــقة بعد».

- «حســـنًا، لا بأس، اصرخ وواجه الكوابيس كما تشاء فقد دفعت ثمن إيجارك للشقة، هي المساحة المتاحة لك لتفعل ما تشاء، ولكن حاول أن تجد حلًا لإنهاء كل هذا.. هذا لأجلك وليس لشخص آخر».

- «نعم، إن شاء الله».

- «سأنصرف الآن، شكرًا على الشاي» قالها ووضع الكوب على الطاولة أمامه، بالكاد ارتشف منه القليل، دهس السيجارة بالمنفضة المعدنية،

وهمَّ واقفًا، فوقف يونس بدوره وابتسم، صافحه وترجل للباب.

- «عم عبد النبي!» ناداه.

التفت له وسـأله استنادًا لما أخبره به سابقًا، خرج منه الصوت مُهتزًا: «سيدي، هل الشقة مسكونة حقًا؟». أجابه ضاحكًا: «لا يا عزيزي، الشقة ليست مسكونة، كوابيسك هي كوابيسك وحدك.. أنت صاحب المشكلة هنا، لا تبحث عن شماعة تُعلق عليها كوابيسك».

بالمساء هاتف نورًا اعتذر لها عن غيابه، تقبلت اعتذاره وتفهمت موقفه دون استرسال بالشرح كما توقع منها، وربما لم تكن بالحالة المزاجية التي تسمح لها بالنبش وراء الأعذار قبل قبولها، استطردت للحديث عن استعداداتها للحفل، أخبرته كم تواظب على حضور البروفات بشكل يومي، وعن تمارينها بالمنزل، أضافت بعد بُرهة: «أحيانًا أتمنى لو يُلغى الحفل، تعلم إنه أكبر حفل سأشارك به مُنذ قررت العزف؟».

- «هذا يُصيبكِ بالخوف صحيح؟».

- «نعم، أشعر أنني مقيدة، وكأنني سأتحرر فقط بعد انتهاء الحفل، يُفترض بي أن أكون متحمسة أليس كذلك؟».

- «هذا ما كنت أظنه!».

- «أنا متحمسة بالفعل.. على ما أظن!.. ولكن خوفي يكبر يومًا بعد يوم، حتى إنه على وشك أن يبتلع حماسي، تعلم ما أقصد صحيح؟».

لم يستطع استحضار الشعور كُليًا، ولكنه أجابها: «نعم، أستطيع فهم شعورك».

«زادت الكوابيس رغم قلة ساعات النوم، يا الله، أنا بالفعل مرعوبة!».

تعجـــب من كونها لم تذكر والدها حتى الآن، ولم يذكره هو بدوره، فذكر حالته الآن ســـتصعب الأمور عليها، بالإضافة إلى أن صوتها عبر الهاتف كان مُهتزًا وعلى وشـــك ترجمة شـــعورها لبكاء لا ينقطع إلا بالنوم، التزم الصمت، كان الصمت هو الحل الأوســـط، فكلمات المواساة ما تزيد الوضع إلا سوءًا.

- «كيف يسير عملك؟». سألته بعد بُرهة.
- «يسير بشكل رائع، انتهيت من نصف الرواية تقريبًا».
- «يُســـعدني سماع ذلك، ســـأهاتفك لاحقًا، يتوجب علـــيّ العودة للتمرين».
- «نعم صحيح.. ماهي المقطوعة التي ستعزفينها بالحفل؟».
- «جزء من سوناتا مون لايت.. بيتهوفن».
- «ستعزفين مُنفردة إذن، البيانو فقط».
- «لا أعلم إن كنت تزيد من توتري أم لا، ولكن هذا صحيح.. إن كان هذا ما تفهمه من كلمة سوناتا».
- «لســـت جاهلًا بالموسيقى لهذا الحد، أليست الســـوناتا هي القطعة الموســـيقية المكتوبة لآلة منفردة؟».
- «يُمكنهـــا أن تُكتب لآلتـــين، كالبيانو والكمـــان، أو البيانو والفلوت أو الجيتـــار والكمان، ولكنني ســـأعزف مُنفردة.. حســـنًا، ليس هذا بموضوعنا على أي حال.. ســـأهاتفك لاحقًا، ســـلام!».

أغلق المكالمـــة، لم يكن لديه ما يفعله لباقي اليوم، أصبح بارعًا في قتل الوقت بطرق مشروعة، استحم وبدل ملابسه، تناول عشاءه بمطعم قريب

من المنزل، ولكنه لم يكن لديه رغبة بالعودة، لذا قضىَ ما تبقى له من اليوم بمقهى شـــعبي صغير، لم يهتم بمعرفة اسمه ولكنه يُشـــبه آلاف المقاهي. يُتابع الجالســـين ويرتشـــف قهوته ويُدخن.. كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشر مساءً، هذا ما قرأه بقرص ساعة معصمه، راودته رغبة بعدم الانتهاء من الرواية، حتى إن رعبًا قد أصابه عندما فكر بأن ما كتبه حتى الآن محض هراء لا يستحق الطباعة على الأوراق، ولكن ما أرعبه حقًا هو قدرته على استكمال الكتابة بعد أزمته بالتوقف، متى كان ذلك؟ نعم، بعد لقائي بلوســـيندا مباشرةً، عندما طبعت قبلة على شفتاي وهمست: «ستتمكن من الكتابة الليلة!». وقتها عاد للمنزل، وترددت كلماتها بأذنه وحدثت المعجزة، فُتح الباب الحديدي، أكان بحاجة للوسيندا حقًا؟ ولكن الحقيقة أنه كان بحاجة لأي شخص يخبره بذلك كي يتابع الكتابة، أحيانًا تحتاج نار الشـــمعة لنفخة هواء صغيرة كي تسقط على المنضدة وتحرق مبني بأكمله، ولوسيندا قد قامت بهذا الدور على أكمل وجه.

قلب العبارات بذاكرة هاتفه، الكثير من الأشـــياء التي دونها مُســـبقًا لا يتذكرها الآن، ولكنه قـــد تذكر منها القليل، كزيارته لوالدته بعد أيام للاحتفال بعيد ميلاد أخته العشـــرين، وكضرورة مهاتفة المسئولين بدار النشر للحصول على باقي مستحقاته المالية من روايته الأخيرة، قرر تأجيـــل مهاتفتهم لوقت لاحق، وربما بعد عملية والد نور.

تصفح (فيس بوك) عبر هاتفه، ليجد بصندوق الرســـائل رسالتين لم يفتحهما بعد، كانت الأولى من (عُمر) صديق له كان قد سافر للغردقة للعمل فترة قصيرة بأحد الفنادق، وعلى ما يبدو أنه قد عاد، يطلب لقاءه عما قريب، قرر تلبية طلبه بالغد، لذا تظاهر بأنه لم يقرأ الرسالة.

أما الرســـالة الأخرى فكانت من لوسيندا، ســـرت رعشة بجسده فور قراءته لاسمها، وربما لكونه انتهـــى لتوه من التفكر بما حدث بينهما..

– لوســـنيدا: يونس، كيف حالـــك، أنا لوســـيندا، تتذكرني أليس كذ لك ؟

قرأ الرسالة عدة مرات وأجابها بحذر فور تذكره كلمات كريم:

– يونس: مرحبًا لوسيندا، أنا بخير، ماذا عنكِ؟

– لوسيندا: بأفضل حال، آسفة على ما حدث يوم عيد ميلادي!

لا أعلم لمَ حدث ذلك تحديدًا، وجدت نفسي أتصرف بطريقة تلقائية، وربما تلقائيةً أكثر من اللازم!

– يونس: لا بأس، أتفهم الأمر..

– لوسنيدا: تتفهم ماذا؟

لم يجد إجابة مناسبة، ما الذي يتفهمه تحديدًا؟ لا يعرف، لا يستطيع تحديده بشـــكل واضح، إن يُمسكه بيده ويصرخ «هذا هو!» ولكنه يتفهمه! ذلك الشعور وكأنك تطارد زئبق.

– يونس: لا تهتمي، تفهمت الأمر فقط!

– لوسيندا: ممم، حسنًا، أيمكننا القاء من وقت لآخر صحيح؟

– يونس: نعم، لا مشكلة!

– لوسنيدا: سأهاتفك غدًا إذن، أرسل لي رقم هاتفك..

أرسله لها.

– لوسيندا: يتوجب عليّ إنهاء بعض الأشياء الآن، سنحدد موعدًا للقاء غدًا، إن لم تكن مشغولًا بالطبع، سلام.

– يونس: سلام!

فكـــر بمهاتفة عُمر ولكنـــه تراجع عن ذلك، وبدلًا منه فقد أشـــعل سيجارة إضافية، لاحظ كون سيجارته السابقة ما تزال تحترق بالمنفضة، تنهد بضيق وأطفئها بأرضية المنفضة، ما الذي أصابني؟ لا إجابة شـــافية وكافية، كانت مشـــاعره تُدير له ظهرها كُلما حاول النظر لها، كُلما حاول دهســـها تتجنبه، من الصعب الشعور بأن مشاعرك تتجنبك.

بالمنزل تلك الليلة شرع بإكمال ما بدأ بكتابته سابقًا، كانت تلك هي طريقته الوحيدة للهروب من التفكير..

# رواية «السكير»

(٢)

أخرجت هاتفي الـ (سامسونج) وطلبت رقم (سعد) صديقي، الذى طلبت منه سابقًا إحضار بعض زجاجات السحر المستوردة (ويسكي) التقيته بعد نصف ساعة بمحطة الرمل، وأخذت الأكياس السوداء المملوءة بزجاجات السحر؛ وودعته وذهبت لمنزلي الثاني وحدى .

وضعت الأكياس السوداء الثقيلة على الأرض، خلعت ملابسي وأحضرت سبع كؤوس من المطبخ، وضغطت زر تشغيل الموسيقى بهاتفي بعدما أوصلته بسماعاتي الـ(ياماها) الكبيرة فبدأت موسيقى فرقة (البيتلز) بالانتشار بأغنية (let it be) ..

أخرجت الزجاجات من الأكياس :

*زجاجة (جاك دانيلز) مستوردة كلفتني مبلغًا وقدره!

*زجاجة (مورغان كابتين).

*زجاجتين (ريد ليبول) واثنتين من (بلاك ليبول) للأب الروحي للويسكيو (جونبأعداد.

* زجاجة (كريستال هيد) وزجاجة (أبسليوت).

* واخيرًا زجاجة (سكوتش).

رصصت الكؤوس أمامي مع موسيقى البيتلز، رن هاتفي بنغمة (Hey Jude) برقم أختي (هدى)؛ ليقطع وصلة موسيقى البيتلز.. فضغطت على الزر الأحمر وقمت بضبط الهاتف على وضع (Airplane mode) وبدأت بإعداد ..

عجائب الكؤوس السبع : التي توازن عجائب الدنيا السبع، مثلما أثرت عجائب الدنيا في ثقافات البشر تؤثر عجائب الكؤوس السبع فيّ.

الكأس الأولى : (الهرم الأكبر): بعض القطرات من (مورغان كابتن) وباقي الكأس من (بلاك ليبول).

الكأس الثانية: (حدائق بابل المُعلقة): كأس كاملة من (سكوتش) وبعض قطرات من (ريد ليبول).

الكأس الثالثة: (هيكل أرتميس): كأس كاملة من (كريستال هيد).

الكأس الرابعة: (ضريح موسولوس) : كأس من (مورغان كابتين) وبعض قطرات من (جاك دانيلز).

الكأس الخامسة: (تمثال زيوس): كأس كاملة من (جاك دانيلز) وبعض قطرات من (أبسليوت).

الكأس السادسة: (منارة الإسكندرية): خليط بين (مورغان كابتين) و (كريستال هيد) و (سكوتش).

الكأس السابعة: (تمثال رودس): خليط بين (جاك دانيلز) و (مورغان كابتين) و (كريستال هيد) و (أبسليوت).

أشعلت سيجارة وكانت أغنية (let it be) قد انتهت وحل محلها أغنية (the rain song) لـ (ليد زبلن)..

صورة (ليلى) مُعلقة أمامي على الحائط، التقطت لها تلك الصورة مُنذ عامين، وكانت أخر ما التقطت لها.. كانت تكره الصور على كُل حال.. تقول دائمًا: «إن الصور لعنة ..فجميعنا راحلون ولكن الذكريات لن ترحل بهدوء».

كانت تضحك بشـــدة وصدق في الصورة، كانت ملامحها تجذبك إليها رغم بســـاطتها وكأنها مغناطيس!.. لم يراها أحد ولم ينجذب لها مُثلما انجذبت! هل يملك الجميع عيناي!؟

أمســـكت بكأس (حدائق بابل المُعلقة) وأرشـــفتها بهدوء بينما أتابع الصورة الساكنة على الحائط.. ثم تجرعت كأس (تمثال زيوس) دفعة واحدة، فبدأت الصورة بالاهتـــزاز بينما بدء (البيتلز) بالعزف من جديد بأغنية (A Day In The Life) .

ارتشـــفت كأس الهرم الأكبر وبدأ الكون أكمله بالرقص على أنغام البيتلـــز.. بدأ دُخان ســـيجارتي بالتكثف ورائحة الفيلتر تشـــع منها.. أطفئتها وأشعلت أخرى وبدأ الدُخان الحديث بتشكيل صورتها في الهواء ويتلاشى بهدوء.

تجرعت كأس (منارة الإسكندرية) و (هيكل أرتميس) بلا فواصل، ثم ســـحبت نفسًا طويلًا من ســـيجارتي. تجرعت كأسى السادسة (ضريح موسولوس) فبدأت صورة (ليلى) بالتحرك، وعند تجرعي كأسى السابعة (تمثال رودس) تجسدت أمامي!

كانت عيناها الســـوداء أكثر ســـوادًا، مما جعلها أجمل .. ترتدى فســـتانًا أبيض اللون وشعرها الأســـود يطير بلا رياح..

جلســـت أمامي على رُكبتيها وصببت بعضًا من الـــ (ريد ليبول) في كأس (الهرم الأكبر) وارتشفت بهدوء.

– «اشتقت لكِ!».

احمر وجهها خجلًا «حتى وهمها يخجل!» شـــعرت برغبة في احتوائها بين ذراعي، ولكن لن أســـتطيع أن أخالف قوانين الوهم!

قانوني الخاص في التعامل مع الوهم: المادة رقم (١): «لا للمس».

- قالت: «لِمَ تأخرت يا عزيزي؟».

- «أصر علاء على اصطحابي معه، لم يكن وقتًا لطيفًا.. ساعتان بلا شيء مفيد».

- «تقصد سنتين!».

ابتسمت وصببت كاسًا أخرى من الـ (بلاك ليبول) مكان كأس (حدائق بابل المُعلقة) واستمعنا للبيتلز وبينك فلويد وجوني كاش ومايكل جاكسون.. حكت لي عن أصدقائها الحوريات، وكيف هي أنهار الخمر بالجنة، حكت لي عن شجرة أدم وحواء، وكيف أن أهل الجنة لا يشوبهم خطأ..

حتى رحلت بعد ساعتين وعدت لرشدي.. رصصت الزجاجات على جانبي الحائط وسحبت هاتفي من سماعات الـ (ياماها) ورحلت لمنزلي الأول.

***

كانت الساعة تشير للثالثة عصرًا حينما هاتفته لوسيندا، كان ما يزال نائمًا على غير عادته، كان جسده خاملاً وكأنه أفاق من تأثير مخدر ما، كانت الجثة بجواره ذلك الصباح عندما فتح عينه امرأة بأواخر العقد الثالث كما استنتج من التجاعيد البسيطة بجبهتها وتحت عيناها، والترهل البسيط بجلدها، كان صوت لوسيندا يختلف كثيرًا بالهاتف عما قد ألفه، قالت له: «يبدو أنك ما زلت نائمًا.. صباح الخير».

كان يعلم أنها لوسيندا، وإن لم تكن قد قالت إنها هي بعد، كان يُمكنه تمييز ذلك بطريقة ما، أجابها: «مرحبًا، استيقظت لتوي».

– «أحادثك فيما بعد إذن؟».

نهض من مكانه، وألصق الهاتف بأذنه: «لا، أنا أعي تمامًا لما نقول».

– «ممم، حسنًا إذن.. تعرف من أنا صحيح؟».

تردد للحظات، رُبما يكون مخطئًا على أي حال، وقرر أن يُجيب بـ: «في الحقيقة.. لا!».

– «أنا لوسيندا.. أخبرتك بالأمس أنني سوف أتصل بك أليس كذلك؟».

– «بلى».

– «نلتقي بالسابعة إذن؟».

– «حسنًا لا مشكلة».

مد يده وعبث بشعر الجثة: «أين سنلتقي؟» سألها.

– «هناك الكثير من قاعات الأفراح على طريق البحر.. أعتقد إنها بالقرب من سيدي بشر.. أتعرفها؟».

جاهد كي يتذكر وهو يمرر أصابعه بين ثنايا وجه الجثة: «نعم، أعرفها».

– «نلتقي هناك إذن.. بالسابعة.. لا تتأخر».

– «لن أتأخر».

استحم وفرش أسنانه، وأضاف رقمها لقائمة الأرقام بهاتفه، ودّون على ذاكرة الهاتف، السابعة عند مجمع قاعات الأفراح بسيدي بشر، ارتشف نصف كوب من القهوة، ولكن الخمول ما زال يحتل جسده، لذا تابعه

بنصف كوب إضافي، زال الخمول قليلًا، ولكنه مازال مرهقًا كرجل يسير أثناء نومه لأميال ويستيقظ بسريره، لم يكن يومًا جيدًا بالنسبة له.

بالسابعة إلا خمس دقائق كان يقف أمام قاعات الأفراح بانتظارها، راودته كلمات كريم، تحديدًا تمكنت كلمات كريم من الإمساك به بعد مطاردة طويلة، كان يهرب منه مُنذ حادثته لوسيندا، ولكن صوته صار قريبًا الآن من تجويف أذن يونس، يحاوط رقبته، فكك الزر العلوي من قميصه كمحاولة يائسة لتجنب الاختناق، ولكن الصوت قد تمكن منه بالفعل فلم يستطع استكمال فراره منه «ابتعد عن لوسيندا» يسمع صداها، فكر بالعودة للشقة والاتصال بلوسيندا والاعتذار منها، «لوسيندا، آسف.. لا أستطيع القدوم، رُبما أستطيع لاحقًا».

كان يميل لحل كهذا ولكنه تراجع فور ما رآها أمامه، وكأنها ظهرت من اللا شيء، أمامه مباشرة وقفت! تعجب من غفلته، إذ لم يلاحظ قدومها، ولربما كان شاردًا طوال الوقت..

- «آسفة على تأخري» قالت بلهجة لبقة.
- نظر لساعته: «لم تتأخري تقريبًا، إنها السابعة».
- «مم، ربما.. لا أحمل ساعة بيدي، وساعة هاتفي متأخرة.. أيمكنني؟». أشارت بإصبعها لياقة قميصه، فنظر بدوره واتضح له أنه قد فكك ثلاثة أزرار من القميص وبدا شكله مروعًا..

يومئ برأسه.

هندمت قميصه وأغلقت زرين من الأزرار العلوية، أردفت: «هذا أفضل.. تبدو رائعًا».

- «شكرًا».

ابتســـم، وتقدمته بخطوات بطيئة ناحية القاعات، تابعها بدوره، ساد صمت ثقيل للحظات قبل أن يســـألها: «إلى أين نتجه؟».

- «زفاف أحدهم».

- «إحدى صديقاتك؟».

- «لا، لا أعرف زفاف مَنْ.. سنختار القاعة بصورة عشوائية».

- «وما الذي يدفعنا لدخول حفل زفاف شخص لا نعرفه؟».

- «أريد الرقص».

عقد حاجبيه باستغراب، سألتها: «أيتوجب علينا القيام بذلك؟».

- «الرقص؟ نعم بالتأكيد، أنت على وشـــك الدخـــول لحفل؛ إن لم ترقص فما فائـــدة كلمة حفل؟».

- «لا أتحـــدث عن الرقص، أتحدث عن دخولنا للحفل من الأســـاس.. وعن الرقص أيضًا!».

تباطأت خطواتها، والتفتت له: «إن لم تكن تريد الرقص؛ فأجلس على كرسي وراقبني ريثما أنتهي».

- «في الحقيقة لن أدخل.. سأنتظرك هنا».

- «كما تشاء!».

هرعت لوســـيندا ناحية القاعة وانسابت عبر الباب بهدوء، وفي لحظة كانت قد اختفت من أمامه تمامًا، جلس على كرســـي على مقربة منه وأشـــعل ســـيجارة، كانت الضوضاء ترتفع تدريجيًا حتى صار الجلوس مستحيلًا لذا ترجل لسور الكورنيش، انتابه السؤال المعتاد: ما الذي أفعله هنا؟ لا إجابة واضحة.

كان الجو باردًا، أبواق السيارات ترتجف، وقطرات مطر تهبط من السماء تداعب وجهه، أصابته الكآبة فجأة، وربما كان يجدر بالانزعاج أن يحل محلها، ولكنه لم يفعل، وربما شيء ما بداخله كان مرتاحًا لغياب لوسيندا عن عينه، لم تعد كلمات كريم تتردد بعقله وكان ذلك مريحًا بالنسبة له؛ قال في نفسه: لمَ لم أدخل للقاعة معها؟ أنفر منها بقدر ما أنجذب لها، وربما أنفر من تصرفاتها المتقلبة وما يثير الدهشة إن تلك التصرفات هي نفسها ما تُربكني وتشدني لها، العديد من التناقضات تتخللني.

كما إن جزءًا من تنافره منها يعود لكلمات كريم، ولكنه لم يعترف به حتى بينه وبين نفسه، جزء آخر منه كان يريد الحفاظ على علاقته مع نور، المزيد من الصراعات تنشأ عند هذه النقطة، بطريقة ما وجد في نفسه كومة من التناقضات والصراعات!

أنتهى من التدخين، ودهس السيجارة تحت حذائه، مر الوقت وظهرت لوسيندا أمامه، ما يُميز الوقت أنه يمر، بغض النظر عن سرعته النسبية من موقف لآخر، مر الوقت ببطء حتى ظهرت، ولكنه مر، عبرت الشارع باتجاهه، كانت تفرك كفيها من البرد، ثم حاوطت كتفيها ورفعت رأسها للسماء: «إنها تُمطر!».

- «مطر خفيف لا ضرر منه».

- «يظل الجو باردًا ولكنه لطيف.. أليس كذلك؟».

- «بلى».

- «آسفة إن كنت قد تأخرت».

- «لا بأس، لم تتأخري كثيرًا.. في الحقيقة لم تتأخري إطلاقًا».

نظرت لعينه مباشرةً وأردفت: «اسمعني جيدًا، عليك أن تدخل معي». صمتت للحظات وتابعت: «هناك شخص ما يريد لقاءك».

– «لقائي؟».

أومأت: «نعم، يريد لقاءك، يقول بأنه يعرفك جيدًا، ولكنه لا يتذكر شكلك لذا طلب مني إحضارك».

– «هل تعرفينه؟».

– «نعـــم، صديق لإحدى صديقاتي، كان بعيد الميلاد، ولكنه لم يلاحظ وجودك حينها».

– «مصادفة غريبة!».

– «توقعـــت أن تجيء صديقتي لحفل الزفاف هذا، ولكنها لم تأتِ، وجاء هو مكانها.. لم أتِ لهنا بالمصادفة من البداية».

– «ولِمَ كذبتِ عليّ؟».

– «لا أعرف، أحيانًا أكذب ولا أعرف الســـبب.. رُبما ظننتك ستنزعج من شيء كهذا.. لا أعرف طباعك بعد».

زفر بملل: «لوسيندا.. أنا أشعر بالملل من كل هذا، ليس هذا بمكاني، وليسوا أصدقائي، في الحقيقة لا أعرف أحدًا هنا سواكِ، وربما لا أعرفك جيدًا بعد، هل تفهمين ما أقصده؟».

صمتت لبرهة زامةً شـــفتيها: «ســـآتي به إليك إذن». التفتت لتعود للقاعة قبل أن يوقفها ويســـالها: «تقولين بأنـــه يعرفني صحيح؟».

– «كما قال لي».

– «ماذا قال تحديدًا؟ ما هو اسمه؟».

– «فريد.. فريد الصاوي، قال إنه كان صديق لك بالجامعة».

حاول استدعاء صورته من سراديب ذاكرته، يذكر الاسم ويذكره تحديدًا ولكنه عاجز عن تذكر وجهه، كُلما حاول تذكر ملامحه ظهرت له غائمة، ظن بأنه يحتاج وقتًا أطول ليتذكر: «حسنًا، أتذكره.. أنا بانتظاره».

– «ابق كما أنت.. لا تتحرك» قالتها وعبرت الشارع باتجاه القاعة.

بدأ يُفتش بذاكرته باحثًا عنه «فريد الصاوي».. لا فائدة. كل ما قد حصل عليه بعضًا من المشاهد المشوشة والناقصة، الهمهمات غير المفهومة، ولكنه يتذكر جيدًا كونه التقى بشخص يحمل هذا الاسم، لمح لوسيندا بجوار رجل قادمة من الجهة المقابلة، أمعن النظر تجاه الرجل لملء الفراغ من ذكرياته، ولكن رجفة باردة تملكته فور ما اقترب ناحيته ووضحت ملامحه أمامه، فقد كان على سريره مُنذ أيام جثة هامدة!

تراجع خطوتين، ورمقه يُدقق بملامحه، شعر أسود كثيف وحاجبين رفيعين وعينين كبيرتين وندبة زرقاء بجوار حاجبه الأيمن، توقف الرجل أمامه مباشرة، ومد يده نحوه بالتحية.

قالت لوسنيدا: «يونس، هذا صديقك القديم.. فريد».

لم تمتلئ النواقص بذكرياته، وبدلًا منها تدفق الأدرينالين بجسده، إنه هو بلا شك، الجثة الثالثة أو الرابعة، رمق يده لثواني قبل أن يمد يونس يده ويصافحه.. قال فريد بلهجة مرحة: «مرحبًا، لست بيونس ولكنني سعيد بلقائك». التفت للوسيندا وأضاف: «تلك الصغيرة تهوى المقالب».

ابتلع يونس ريقه، وتلفظ ببطء: «أنا.. يونس.. يونس سلامة!».

- «رُبما تشـــابه أسماء لا أكثر، فكر معي كم أب يدعى ســـلامة قرر تسمية ابنه يونس».

- قالت لوسنيدا: «كف عن المزاح يا فريد، فهو أيضًا يتذكرك».

- «أتتذكرني؟» سأله فريد باسمًا.

صمت يونس لبرهة شاردًا فيما يراه.

- «يونس.. هل تسمعنا؟» قالت لوسيندا منتشله إياه من شروده.

«نعم بالتأكيد، أقصد لا، لا أتذكرك تحديدًا» أجابه.

التفـــت فريد للوســـيندا مُجددًا وقال: «ها.. رأيتِ؟ تشـــابه أسماء لا أكثر».

«ولكن كان لدي صديق بالجامعـــة». قال يونس، فالتفت له، فتابع: «كان يُدعى فريد.. فريد الصاوي!».

- «هل هو أنا؟».

- «لا.. لا أستطيع أن أقسم بذلك».

- «فرصة ســـعيدة يا يونس، لا بأس وإن لم نكن المقصودين، فقد تعرفت على شخص جديد لتوي».

- قالت لوسيندا بشيء من الخجل: «يبدو إنني مخطئة بالنهاية».

قال فريد: «لا بأس يا عزيزتي، ربما أشتاق لأيام الجامعة لا أكثر».

أمضيا ما تبقى من ليلتهما بمقهى قريب بســـيدي بشر، كان يونس شاردًا طوال الوقت، يفكر بينه وبين نفسه: كيف لجثة أن تحيا من جديد، ولِمَ قد ظهرت على سريري كجثة إن كانت الحياة ما زالت تدب فيها.

احتســت لوســيندا قهوتها ســريعًا فيما برد فنجان قهوته، لم يقربه تقريبًا مُنذ أنزله النادل، لم يتحدثا تقريبًا، إلا محادثات قصيرة لا هدف منها، وربما لا معنى لها.

كان يشــعر بأنه مقيد داخل شيء ما، دائرة لا يفهما ولا مخرج منها، ولكنه لم يســتطع التأقلم معها، تساءل بلا صوت: هل سأدور بها للإبد؟ دور باتجاه العاصفة تنجو منها، فهل سأنجو؟

ليلة أخرى، ليلة مزدحمة، على ســريره وحــده.. الكثير من الثرثرة حوله، النوم ثغرته المثالية للهروب، ولم يســتطع الهرب من خلالها، وربما فقد رغبته بالهرب، بالنهاية يجب أن تستســلم وتسقط أرضًا وأنت راضٍ تمامًا باستســلامك، لا فائدة من الهرب الآن.

يُحدق بالســقف، الصوت الرتيب لدقات الساعة ينقر بأذنه: تيك.. تيك.. تيك.. تيك.. يتســاءل: كم ساعة بالغرفة؟ ساعة يده فقط على المنضدة بجوار الســرير ومع ذلك صوتها صار مُزعجًا، أخرجها من الغرفة وعاد للســرير، الصمت ثقيل، الهواء ثقيل، جســده ثقيل، لم تعد رئتاه قادرتين على التقاط الهواء، ثُقلت رئتاه، شيء ما يجثم فوقها، وثُقل علقه بما فيه من تســاؤلات: «من هو فريد؟». «لمَ ظهرت جثته لي؟». «لمَ هو على قيد الحياة؟». «مــاذا يعني كل ذلك؟». «ما الذي يتوجب عليّ فعله؟».

دار بالغرفة وهو يتجرع الهينيكن لنصف ساعة كاملة، فَتش بذاكرة هاتفه، بعد غد سيكون بالمشفى بجوار والد نور، بعد عدة أيام سيكون ببيت والدته لحضــور عيد ميلاد أخته الصُغرى، ألن تنتهــي روايتي أبدًا؟ ألن تنتهي؟؟ تجرع ما تبقى من الزجاجة دفعة واحدة، وتمدد على الســرير، كان يخشــى النوم رغم حاجته له، ورغم عدم تمكنه من اللجوء له، من ســيتيقظ غدًا ليجده بجواره؟ ابتعد عقله كثيرًا بالتفكير، هل فريد هو

نفســـه صديق الجامعة؟ وإن كان هو فلِمَ لم أتذكره؟ هناك ما لا يتبع قواعد المنطق بالأمر كله.

في السنة الأخيرة له بالجامعة - كان ذلك قبل أربع سنوات - أمضى ليلـــة بمنزل فريـــد، يتذكر أنه قد نام خلالها مـــع صديقتهما المقربة، كانت تصغره بعام واحد، فتاة ذات بشرة قمحية وشعر أسود قصير، بدأت ذاكرته تعمل: ماذا كان اسمها؟ مروة! نعم مروة.. أذكر أسمها جيدًا، كنا نســـتذكر سويًا طيلة العام، وأحيانًا ما كنا نتنزه معًا، كان فريد قد اتفق مع فتاة أخرى مُسبقًا على قضاء الليلة معنا، ولكن مروة كانت حاضرة أيضًا ولا أذكر لماذا، وبعد ممارســـة الجنس معها استلقينا على السرير، دخنت سيجارة وقلت لها: إنها المرة الأخيرة، لن نفعلها مُجددًا.. أبدًا!. ولم التق بها مُطلقًا بعد تلك الليلة.

استرجع ذكريات الليلة بأكملها، ضبابية بالبداية ثم بدأت الصورة بالوضوح، بعض المشـــاهد القصيرة المتقطعة، كل الوجوه ظهرت بعقله إلا وجه فريد، كانت الذكرى الوحيدة التي نُقشت بعقله مع فريد، ومن لا يُنقش بعقله ذكرى كهذه؟

فكر: أيتوجب عليه ســـؤال فريد عن تلـــك الليلة لأتأكد من كونه هو أم لا؟ رُبما ولكنه سـُـينكر ذلك بالتأكيد ســـيقول لي: «آوه يا رجل! لا أنتمي لهذا النوع من الرجـــال!». أنا ايضًا لا أنتمي لهذا النوع، ولكن كل رجل منا بداخله هذا النوع، وبعض الرجال يتركون لهذا النوع دفة القيادة من وقت لأخـــر.. إلى ماذا أطمح بالنهاية؟ ماذا لو كان هو؟ ما الذي يعنيه ذلك بالنهاية؟ دُورت بنفس المدار لساعات قبل أن أنزلق للنوم بالنهاية، وربما لم يكن انزلاقًا، كان أشـــبه بالسقوط الحر.

اســـتيقظ بالعاشـــرة صباحًا، جثة جديدة بجواره، جثة لرجل بمثل عمره، التقط صورة له بعدســـة هاتفه، ولكن الصورة كانت خالية منه،

قال في نفسه: كان ذلك متوقعًا على أي حال.. هل كنت أتوقع شيئًا مختلفًا؟ أمعن بوجهه، فكر برسمه ولكنه تراجع لافتقاره الموهبة، غادر الغرفة وصنع كوبًا كاملًا من القهوة، ارتشف غارقًا بالتفكير، كان السؤال الوحيد الذي يتردد بعقله هو: ما الذي سأفعله؟ إلى أين سأنساق بالنهاية؟ إن شعوري بأنني عالق داخل دائرة مُفرغة لا ينتهي!

هاتف نور، طمئنها بكونه سيكون حاضرًا بالغد بجوار أبيها داخل المشفى، تمنى لها التوفيق بحفلتها الموسيقية، ردد: «أنتِ موهوبة يا نور». خمس مرات وأضاف: «لا تخافي فأنتِ قوية» مرتين، بالإضافة لجمل مشابهة، أكسبتها بعض الثقة في نفسها، كان بارعًا في القيام بذلك، أغلقا المكالمة، وارتمى على الأريكة يُفكر ما الذي سيفعله، لا فائدة من التفكير على أي حال، لذا تابع الكتابة على اللاب توب..

# رواية «السكير».

(٣)

استيقظت في صباح اليوم التالي، وعقارب الساعة تُشير إلى العاشرة.. كان يوم الأربعاء هو أكثر الأيام المُتلئة بالمهام مُنذ الخامسة وحتى الثانية عشر (دوام العمل)، اعتدت الحياة الروتينية سواء كان ذلك بإرادتي أو يخالفها.. غسلت وجهي بالماء البارد وتراجعت عن الاستحمام، جلست على أحد كراسي السُفرة، التي لا أتذكر متى ولِمَ قُمت بشرائها.. أعدت أختي (هدى) الفطور باحترافية مُعتادة (فول - بَيض - كوب من الشاي - جبن أبيض) لا أعلم أين الاحترافية في إعداد فطور كهذا، ولكنه لذيذ على أي حال.. علقت بصري على الصورة المُعلقة على الحائط، تلك الصورة التي أظهر فيها ببذلة سوداء على الجانب الأيسر والجانب الأيمن من الصورة مُمزق.. أغلب الظن أن الجزء المُمزق من الصورة يخص (ليلى) مازالت رأسي ثقيلة من الكحول!

كانت من عادات (هدى) تناول الفطور على أنغام (فيروز)، التي كانت تجمع شرائطها في الصغر وأسطواناتها المُدمجة عندما ظهر الحاسوب.. والآن تجمع جميع ما غنت بصيغة mp٣ على هاتفها الـ (نوكيا) ذي الصوت المُرتفع.

كانت أغنية (كيفك) تنبعث من سماعات النوكيا بينما تتناول (هدى) فطورها بهدوئها المُعتاد.. وأنا أتناول فطوري بصمت كما كُنت دائمًا..

مازالت رأسي ثقيلة من الكحول، ولكنها أخف من ذي قبل ..في بداية اكتشاف (كؤوس عجائب الدنيا السبع) كان مفعول الكحول يستمر لساعات قد تتجاوز اليومين.. ثم بدأت المُدة بالتقلص كلما اعتاد جسدي على تلك الشَربة .

بتذكر آخر مرة شو قلتلّى ..

بدّك ضلّى بدّك فيكى تفلّى ..

صوت (فـــيروز) الملائكي يقتحمني ويقتحم (هـــدى)، بدأ إيقاع تناول الطعام بالإســـراع تدريجيًا مع اقتراب العاشـــرة والنصف..

شـــرد عقلي في (ليلى) وجمالها الذي يزداد بعد كُل لقاء، حتى وإن كان وهمًا.. شـــعرت برغبة في احتضانها؛ جعلتني أفكر أن أرحل لشقتي الأخرى، ومزاولة الشـــراب حتى تظهر واحتضنها وليكن ما يكن..

كان الزمـــان وكان في دكانة بألفي .. وبنيات وصبيان نيجي نلعب عالمي ..

يبقى حنا السكران قاعد خلف الدكان .. بغنى وتحزن بنت الجيران ..

كانت أغنية (كيفك) قد انتهت وحلت مكانها أغنية (كان الزمان) «حنا الســـكران» لماذا تلك الأغنية بالذات في هذا الوقت بالتحديد ؟!.. ماذا كانت تقصد (فيروز) بغنائها تلك الأغنية؟!

أوعى تنسيني .. أوعى تنسيني ..

وتذكري حنا السكران ..

ما قصة هذا الـــ (حنا السكران) هل فقد (ليلى) مثلى؟

ماذا لو كان أنا!

حلـــوة ببيت الجيران راحت في ليلة عيـــد .. وانهدت الدكان واتعمر بيت جديد ..

وبعدو حنا السكران على حيطان النسيان .. عم بيصور بنت الجيران ..

إنها تقصدني بلا شك!

تركت الطعام ونهضت من جلستي، ولمحت الصورة المُمزقة على الحائط.

- «هل شبعت؟».

- أي شبع تقصدين يا (هدى) !؟.. لم أشبع من بنت الجيران بعد.. ربما (حنا السكران) لا يزال يفكر في بنت الجيران حتى هذه اللحظة!

لم أجب عليها وارتديت ملابسي وخرجت من البيت قاصدًا دكان (حنا السكران)..

***

## (نور)

*على أعتاب ما تتمناه قد تتملّك الرغبة بالتراجع.*

حزمت حقيبتها الجلدية، وودعت أباها، عانقها بشدة حتى تلامست أصابعه مع رسغه حول جسدها، لاحظت كون جسده يتضاءل بالآونة الأخيرة، مسح بكفه شعرها ويدها، وقال بعد سُعال: «عليكِ بالنجاح يا ابنتي، فما من طريق آخر الآن.. الله يوفقك!».

أومأت برأسها، وتساقطت دمعة على وجنتها، وعادت تعانقه بشدة.

- «سيكون يونس هنا بعد ساعات.. كُن بخير يا أبي!».

لثم جبينها وقال ضاحكًا: «لقد نسيت أمر ذلك الغبي.. لم أعد أذكر وجهه، الحمد لله».

- «إنه إنسان رائع يا أبي، لقد وعدني بأن يكون معك اليوم.. سأهاتفك مساءً للاطمئنان عليك».

رفعت حقيبتها على كتفها، وتنبهت كـــون لونها الأزرق صار باهتًا ولكن ما أهمية ذلك؟ فتحت باب الشقة والتفتت لأباها لتجده يكفكف دموعه: «أبي كُن بخير!».

– «سأكون».

أغلقت باب الشـــقة خلفها لتســـمعه يســـعل مُجددًا، فكرت للحظات بالتراجع والمكوث بجواره، ســـتأتي مئات الحفلات لاحقًا، ستأتي المئات.. لاحقًـــا.. ـــ أما الآن فلا مجال للتراجـــع، لا مجال للتراجع يا نورا جزء منها يحادثها، تنقســـم أحيانًا وتصارع نفســـها، تسمع وقع حذائها على الدرج بوضوح، تواظـــب على إيقاع النزول، وتجفـــف عيناها بأصابعها. اســـتقلت تاكسي للمسرح، كانت الفرقة بالكامل قد حضرت تنتظرها، كانت المتأخرة الوحيـــدة، هموا بالوقوف عندما شـــاهدوها تدلف باب المسرح، قال خالد عازف الجيتار: «هيا بنا». أضافت ليلى: «لا وقت لدينا».

كان حســـن يجلس على كرسيه يراقبهم ويراقبها، يرميها بابتسامة راضية، فترميه بابتسامة ساذجة، أو هكذا بدا لها الأمر، جلست على أول كرسي قابلته وأخرجت علبة ســـجائرها من الحقيبة؛ وأشعلت واحدة، حينها حـــدق الجميع بها، إنها المرة الأولى لهم الـــتي يرونها فيها تُدخن باستثناء حسن الذي لم يندهش كثيرًا، رفعت يديها بالهواء وقالت لهم بصوت عـــالٍ: «لن أتحرك قبل أن أنتهي من التدخين!».

ضحك حســـن وتحول ذهـــول الآخرين لضحكات، أشـــعل بعضهم الســـجائر أيضًا وامتلأ المســـرح الصغير بالدخان، اقترب حســـن وجلس بجوارهـــا: «هل والدك علـــى ما يرام؟».

أومأت، واستمرت بسحب الدخان من بين شفتيها.

– «هل أكلتي شيئًا؟»

هزت رأسها نفيًا.

- «لا يفترض بكِ التدخين على معدة فارغة!».
- «لا يُفترض بي الرحيل من الأساس، الكثير من (ألا يفترض بي) تتلاشى اليوم!».
- «نور، كوني هادئة اليوم رجاءً.. إنه يومكِ المُنتظر».
- «ينتابني شعور سيء ولا أستطيع التخلص منه، شيء ما يقف بحلقي ولا يُبلع مهما حاولت ابتلاعه.. أتدرك ذلك الشعور؟».

ربت على كتفها: «ستكونين بخير، كل الأمور على ما يرام.. إنه اليوم الذي تنتظرينه، فكوني أقوى من ذلك».

بالحافلة تناولت الفرقة وجبة خفيفة، لم تستطع نور استكمالها، هاتفت أباها مرتين تطمئن عليه وهاتفها أربع مرات بالمقابل لنفس السبب، بعد ساعتين ونصف كانت الفرقة تؤدي البروفات النهائية، هاتفت يونس وطلبت منه الإسراع للبقاء مع والدها، قال لها: «لا تحملي همًا، حبيبتي ركزي.. وتذكري دائمًا إنه يومكِ».

بدأت تُفرغ أعباء عقلها قبل الحفل بنصف ساعة، تُحدق بالسقف تستمع لعزف الباقية على المسرح، كانوا يعزفون مقطوعة من الجاز أراحت أعصابها، وبدأت تُفكر فقط بالموسيقى، بما سيحدث الليلة.

وللمرة الأولى مُنذ تلامست أصابعها أصابع البيانو يجتاحها شعور بكونه يكرهها، ولا يتمنى أن يلامس أصابعها، يتنافر منها نفورًا واضحًا، قفز بعقلها مشهد مفاده بأنها تلامسه رغمًا عنه، فلا يستجيب للنغمة، ينتقم منها بطريقته، ولكن مشهدًا آخر قد اجتاح عقلها فجأة: أصابع الأطباء يلامسون جسد والدها! أفزعها المشهد وأشعلت سيجارة لعلها

تمنع دموعها من الانهمار الآن، ورغم منع حسن للتدخين بداخل البروفات إلا أنه لم يمانع تدخينها.

اجتمع حسن بالفرقة كاملة قبل الصعود للمسرح بعشر دقائق في جانب المسرح (الكالوس)، كانوا يجلسون على كراسٍ خشبية يُشكلون دائرة حوله، شبك أصابعه وقال بحماس واضح: «أنتم على أعتاب خطوة واحدة من كل ما تتمنوه، إنها الليلة التي حلمنا بها جميعًا.. اليوم يتجسد تعبكم أمام من يمتلئ المسرح بهم، لقد جاءوا ليستمتعوا، ليستمعوا لموسيقاكم، ليسافروا عبر ألحانكم لعالم آخر، فلا تبخلوا عليهم.. سنكون الأعظم الليلة، ستتحققون ما تتمنون دائمًا».

- «لا أريد!». قالت نور مقاطعة إياه، فحدق بها الجميع.

- «مـ.. ماذا؟» قال حسن.

- «لا أريد.. أريد التراجع الآن، لن أصعد للمسرح».

- «تمزحين صحيح؟».

- «لا.. أنا أعيّ تمامًا ما أقول».

ضحك حسن بمرارة وأردف: «لا أنتِ تمزحين.. لا صحة لما تقولين الآن.. قولي أنكِ تمزحين!».

- «لا».

- «ماذا تعنين بـ لا!».

- «أعني أنني لن أصعد للمسرح، لن أعزف».

حاوط ذقنه بأصابعه محاولًا كتم غضبه وقال محاولًا تصنع الهدوء: «لا، ستعزفين».

- «حاول إجباري على ذلك إذن» قالتها ونهضت راحلة، فتابعتها ليلى تتساءل ما الذي يحدث، فيما صرخ حسن باسمها عدة مرات، التفتت له ولهم قائلة بحُرقة لم تستطع كتمها: «فلتحترق الحفلة، فليحترق الحاضرين، فلتحترق موسيقاكم.. فلتموتوا».

جلست بركن (بالكالوس) بينما حاوطها البعض يتساءل عما حدث، وانهمرت دموعها حتى فقدت شعورها بكل الأشياء من حولها تدريجيًا، وانسابت بهدوء لإغمائه لم تكن بخاطرهم.

## (يونس)

*حين يحترق رأس عود الثقاب لا يختفي ولا يشتعل من جديد!*

حين يفكر يونس بفريد تظهر ملامحه ضبابية كغيوم صباح مُمطر، وحين يُفكر بمروة تتشكل صورتها بعقله تدريجيًا، الشعر أولًا، أسود ليلي، ثم عيناها اللوزيتان وابتسامتها البريئة، ثم جسدها. ورغم أن صورتها بذاكرته مشوشة قليلًا إلا أنه وإن رآها سيتذكرها، سيملأ اللقاء الفراغات بذاكرته، حاول النبش عن وجه فريد مُجددًا ولكنه قد تلاشي نهائيًا، سقط من رأسه كرماد سيجارته، حتى إنه شك بأنه يعرف شخصًا بهذا الاسم من الأساس.

كانت الساعة تُشير للثالثة عصرًا، بعد دقائق يجب أن يكون بالمشفى بجوار والد نور، ولكنه صعق حين حاول تذكر وجه والد نور! لقد تلاشى هو الآخر من رأسه، استبدلت ذاكرته وجهه بصورة ضبابية كفريد، شعر بالدوار، تناول كوبًا من الماء ورمى القليل من حبيبات السُكر بفمه، لقد بدأ رأسه يُخرف بالتأكيد، أو هكذا كان يفكر، بحث بهاتفه عن صورة واحدة لوالدها ولم يجد، ولا يذكر أنه احتفظ بصورة له من الأساس، لم يُعد لديه الوقت الكافي للتفكير، عليه أن يكون بالمشفى الآن.

ورغم كونه فقد اتزانه بشـــكل ملحوظ، فهو مضطرب تمامًا ،يُمكنه ملامســـة ذلك بنفسه ولا يُمكنه التخلص منه، ســـاورته رغبة حقيقية بالعودة لما كان عليه ســـابقًا، ولكن الأمر الآن صار مستحيلًا، وإن حاول فســـتتبدد محاولاته بالهواء، كمحاولة إعادة ورقة خضراء لشجرتها.

ارتدى ملابسه وهو يحاول تذكر وجهه، فُقد وجهان من ذاكرته فإلى متى سيستمر العبث؟ ارتشف القليل من الهينيكن ورحل للمشفى، هاتف نور بالطريق ولكنها لم تســـتجب للمكالمة، وبرر فعلتهـــا بأنها الآن رُبما تكون مُنشـــغلة بالبروفات، لم يكن الطريق للمشفى طويلًا، وخلال دقائق كان بداخلها، سأل موظف الاســـتقبال عن الغرفة رقم تسعة، فأشار له بنهاية الممر، بدأت دقات قلبه تســـابق خطواته أثنـــاء عبوره الممر، ابتلع ريقه وفتح باب الغرفة، فنظر له النائم على الســـرير نظرة بلهاء وأردف: «أأنت الطبيب؟». ولكـــن يونس وقف على الباب للحظات يتمعن بوجهه، حتى تذكره، فقد كان على سريره جثة هو الآخر مُنذ أيام، سرت رعشة بجســـده جعلت قدميه تضرب جذورًا بالأرض، ولم يستطع إبعاد تلاصق شـــفتاه، واجه صعوبة بنقل قدماه من موضع لآخـــر أثناء اقترابه منه، وكأنهما منغمســـتان بالثلج، وقف على آخر الســـرير وقرأ الاسم المُعلق عليه: «محمد العزيزي» أسم والد نورا

رفع عينيه تجاهه وسأله: «سيدي.. هل أنت والد نور؟».

سعل وأجابه: «نعم، من أنت؟».

— «كيف.. أجبني كيف؟!».

— «كيف ماذا؟!».

— صرخ به: «كيف تكون والد نور؟».

هرعت ممرضتان للغرفة، ووقفا بجوار الباب، سـألته إحداهما: «هل هناك مشكلة يا أستاذ؟».

أجابها مُنفعلًا: «نعم هناك.. المشكلة أن هذا العجوز هو والد نورا».

- «ما الذي تريده يا هذا؟». صرخ به العجوز.

- «يا أستاذ، لا يجب أن تكون هنا، أرجوك ارحل بهدوء». قالت له إحداهما.

- «ارحل قبل أن نستدعي الأمن» أضافت الأخرى.

ركل الأرض بحذائه غضبًا، وأطاح بالمعدات الطبية من على الطاولة بيده، وخرج من الغرفة وسط ذهول الجميع.

جلس على الرصيف أمام المشفى، يُحاول تمالك أعصابه، يرتب الأحداث ويحاول إيجاد مبررًا واضحًا لكل ما يحدث، وضع يده على أنفه ليكتشف كونه ينزف، بدأ ضغطه يعلو عن معدله الطبيعي، هاتف نور فأجابته: «يونس، هل أبي بخير؟».

- «في أي مشفى يتواجد أبوكِ؟» قال لها صارخًا.

نطقت اسم المشفى بصوت هادئ، وأضافت: «ما الذي حدث؟».

حاول استجماع ما تبقى به من عقل وأجابها: «لا شيء، لا شيء يا نور».

أغلق المكالمة، وضرب ركبته بقبضة يده مرتين، وبحث بهاتفه عن شخص يتحدث إليه، ولكنه وجده يرن برقم لوسيندا، استجاب للمكالمة ووضع الهاتف على أذنه.

- «يونس.. ألو.. هل هناك مشكلة بالهاتف؟ هل تسمعني؟».

- «نعم.. أسمعكِ» قال باقتضاب واضح.

- «هل أنت بخير؟».

- «نعم، أنا بخير.. ماذا هنالك؟».

- «لا شيء، فقط أطمئن عليك، ليلة أمس لم تكن على ما يرام!».

- «لوسيندا، أمر بوقت عصيب، سنتحدث لاحقًا».

هّم بإغلاق المكالمة ولكنها أردفت: «أعلم ما تمر به».

- «.. كيف؟».

- «لا تضغط على نفسك بكتابة الرواية، سأنتظرها ولو بعد عشرة أعوام».

- «الرواية، نعم، صحيح.. لا تقلقي ستنتهي الصعوبات قريبًا».

أغلق المكالمة، وجلس يُفكر ما الذي سيفعله تحديدًا، وانتهى به التفكير لدخوله المشفى مجددًا، كان والد نور قد دخل لغرفة العمليات، وما هي إلا ساعات ويخرج، قالت له إحدى الممرضات التي كانت تقف بجوار الباب مُنذ قليل: «ما الذي حدث لك؟».

- «لا شيء».

- «لم تكن طبيعيًا على الإطلاق بالداخل، أيعرفك العجوز؟».

- «أنا خطيب ابنته».

جلسا على مقاعد الانتظار بالممر، قالت: «هو لم يقل ذلك، وما الذي دفعك لفعل ما فعلت؟».

- «أمر ببعض المشاكل».

- «كُن لطيفًا يا يونس.. فالسيء لم يأتي بعد» قالتها ورحلت عنه سريعًا، ناداها عدة مرات، ولكنها لم تستجب، هرع خلفها ليستفهم ما قالته ولكنها اختفت، ولم يعد لها وجود بالمكان.

حينما خرج والد نور من غرفة العمليات، عاد للغرفة رقم تسعة، وحينما استفاق من مفعول المخدر وجد يونس جالسًا بجوار السرير على كرسي، نظر له مطولًا ثم سأله: «من أنت؟».

- «ألم ترني من قبل، قبل العملية على الأقل؟».

- «لا أتذكر تحديدًا.. وجهك لا يبدو غريبًا ولكنني.. لا أستطيع استجمعاه». كان يتحدث ببطء، يترك مساحة يتخللها زفيره بين جملة وأخرى.

- «أنا ممرض جديد هنا».

- «رائع». قالها ثم غاص في النوم.

خرج يونس للكافتيريا الخاصة بالمشفى، دخن واحتسى كوبًا من القهوة، هاتف نور وطمئنها على حال والدها، وعاد يُفكر بالدائرة المفرغة التي سقط بها، حشر يده اليسرى بجيب بنطاله الأيسر؛ ليجد القداحة الزيبو التي اشتراها بعد ظهور أول جثة على سريره، لم يستعملها مُطلقًا، فركها بين أصابعه وبدأت نيرانها بالتموج، قال في نفسه مُحدقًا باللهب: أنا أفقد الكثير حتى وإن لم أدرك ذلك، أنا أتآكل من الداخل، إن كانت ذاكرتي تخونني فكيف لي أن أثق بأي شيء؟.

رغب بالبكاء والضحك في آن واحد ولم يستجب للاثنين، بمعنى أدق: لم يستطع الاستجابة، تجوف من الداخل ككأس فرغ محتواها، ففقد رغبته بالحياة ولم يعد يهمه إن كُسر!

وبدأ يعيّ الكثير فجأة، أفاق عقله من سُباته ليشرح له ما يحدث، فإلى الآن جثتان على سريره قد رآهما أمامه والروح لم تفارقهما، فريد الذي لم يكن متأكدًا من أنه فريد إلا بعد رؤيته لوالد نور، فقد كان ظهور الأخير مُفسرًا لما يحدث بالشكل المناسب، تساءل: كم شخصًا آخر قد نسى وجهي ونسيت وجهه؟

– «لقد أفاق السيد».

التفت لصاحب الصوت ليجدها ممرضة صغيرة بالسن، أشارت له باتباعها للغرفة، نهض من على الكرسي، وحشر القداحة وعلبة السجائر بجيبه، وتبعها..

بداخل الغرفة كان الرجل ممدًا على سريره يرمقه، جلس على الكرسي بجواره ومسح رأسه بكفه وأطلق زفيرًا مرهقًا: «هل أنت بخير الآن؟».

يومئ برأسه.

وُضع على أنفه جهاز التنفس، أشار ليونس بعينه كي ينزعه عنه، ابتسم وأجابه: «لا أستطيع، قد يكون في ذلك خطرًا عليك».

نزعت الممرضة عنه الجهاز وقالت ليونس: «سأضعه على أنفه بعد خمس دقائق، تحتاج رئتاه لأن تعتاد على الهواء الطبيعي».

– «حسنًا».

غادرت الممرضة الغرفة، تنهد الرجل بصعوبة وقال له: «أيمكنك الاتصال بابنتي؟».

– «اتصلت بها مُنذ قليل وطمأنتها».

- «هل تعرفها؟».

- «لقد قالت لي أن أبقى بجوارك».

- «كان من المفترض لذلك المعتوه أن يأتي».

- «مَنْ المعتوه؟».

- «خطيبها.. رجل فاشـــل لا يستطيع تحمل مســـؤولية شيء». سعل وصمت لثواني قبـــل أن يُكمل: «كان من المفترض به أن يأتي، ولكن كما ترى، لن يتحمل مســـؤولية شيء مطلقًا».

- «ولِمَ وافقت على الخطوبة من الأساس؟».

- «لأنها تحبه، من الصعب السيطرة على رغبات ذلك الجيل».

فكـــر يونس بإيضاح الأمـــور له، ولكن لا فائدة ســـيجنيها من ذلك، تناول كفه بين راحتيه وربت عليه وقال: «اســـترح قليلًا، كثرة الحديث سترهقك».

- «سأموت بعد لحظات يا بُني، لم يعد أمامي الكثير».

- «لِمَ تقول ذلك؟».

- «ستشعر بالموت يقترب مِنك يومًا ما، وحينها ستتساقط صراعاتك مع الحياة، وتدرك كم كانت سخيفة».

لم يقل يونس شـــيئًا، فتابـــع العجوز حديثه: «يا بُـــني، اتصل بابنتي، وأخبرها».

قاطعه: «توقف عن الحديث رجاءً، لن يحدث شـــيء، ســـتكون بخير، فقط اســـترح.. ونم قليلًا».

ابتسم وغاصت عيناه بالنوم، فخرج يونس من الغرفة؛ وراح يجوب الممر ذهابًا وإيابًا، دلفت المرضة الغرفـــة وخرجت بعد لحظات بوجه عابس، وقفت أمامه مباشرةً وقالت: «لقد توفى، البقاء لله!».

# -٩-

«بعد بضع سنوات كل هذا قد يبدو لا شيء سوى مجرد كابوس»

مسلسل: (بريكنج باد) – ٢٠٠٨/٢٠١٣.

في التاسعة، انتهيت من قراءة الفصل الأول من رواية يونس، وقد ترك بي الفصل مزيجًا ما بين الكآبة والتعجب، حبكة الرواية صعبة التصديق، ولكنها في الآن نفسه تبدو مرعبة وقابلة للتطبيق - بطريقة أخرى ربما أكثر منطقية - الجميع سيقفز في فوهة النسيان على أي حال، ولكن ما أشارت له الرواية هنا يُعد شيئًا مختلفًا.. إنه انتشال وليس نسيان، أن تُسرق ذكرى أحدهم بين ليلة وضحاها، أن تستيقظ يومًا لتعلم أنك قد مُحيت من ذكريات أحدهم ليس بالأمر السهل بتاتًا..

تناولت وجبة خفيفة، واحتسيت كوبًا من الشاي الساخن وأنا أفكر بإمكانية حدوث ذلك، هاتفت سمير مباشرةً، قبل أن يسقط من ذاكرتي، وأكدت عليه موعدنا بالغد، قال لي: «لا تتأخر فياسمين تكره الانتظار».

أشعلت سيجارة وأعدت قراءة بعض الأجزاء من الفصل الأول، حاولت تخمين هل لسلمى علاقة بالأمر كله؟ كتب يونس بالصفحة الأولى أن

الأسماء الحقيقية للشـــخصيات قد زُيفت، وهو ما يجعلني حبيس مئات الاحتمالات، فقد تكون سلمى أحد أبطال الرواية ولن أستطيع التخمين أو الوصول لنتيجة واضحة أبدًا.

هاتفتني أروى منتشله إياي من أفكاري، قالت بلهجتها الرسمية: «هل انتهيت من قراءة الرواية؟».

- «انتهيت من أول فصولها».

- «وما انطباعك؟».

- «انهـــا رواية غريبة.. لا أعتقـــد انها حقيقية بالكامـــل، بها الكثير مـــن التطويل والأحداث، التي كُتبت وكأنها مذكرات شـــخصية، كما إنه يتحدث عن شـــخصيتين لا أعرف من أين جاء بمذكرات الشـــخصية الثانية بالرواية، فإما أنها من محض خياله، وإما أنه قد قرأ مذكراتها قبل الكتابة».

- «ألا تكفي الخطوط العريضة لتخيل التفاصيل؟».

- «لا أعرف تحديدًا».

- «ربما لديه معلومات بسيطة وقد بدأ بتخيل ما ينقصه».

- «ربما ســـيتضح هذا فيما بعد بالتأكيد، هل حجزتي مقاعد حضور التصوير كما اخبرتك سابقًا؟».

- «نعم، غدًا كما طلبت مني، سأنتظرك هناك».

حكيـــت لها ملخص ما قرأت، أصابني الصـــداع بعد لحظات، فركت جبهتي واســـتأذنتها بإنهاء المكالمة، غســـلت وجهي بالماء البارد واستلقيت على ســـريري، هاتفت حســـام أخبره عن عدم قدرتي على الذهاب للعمل

هذه الليلـــة، وحاولت النوم للدقائق قبل أن استســـلم لليقظة والصداع وسلمى..!

جالسة على كرســـي أمامي مباشـــرةً، تحدق فيّ بعيونها الزجاجية الباردة، وقد ظلت كذلـــك طوال الليل..

***

توقفت ياسمين عن القفز بالشـــارع حين رأتني قادمًا ناحيتها، كانت ترتدي فســـتانا زهريًا وقبعة أطفال ذات أستك أبيض يلف وجهها، شدت على أصابع سمير، وقالت له: «هل سيأتي معنا؟».

ربت سمير على رأسها من فوق القبعة وقال لها: «إنه والدك يا ياسمين، وهو يحبك كثيرًا».

نظرت الصغيرة لي باحتقار حقيقي، لا يمكن للصغار تزييف مشاعرهم وإلا لسيطروا على كافة أنواع البشر.

- «سنذهب بالسيارة». قال سمير لي.

أومأ له مُبتسمًا، انحني لياسمين: «هل أعجبك الكتاب؟».

- «أي كتاب».

- «الذي أحضره لكِ سمير».

- «نعم أعجبني».

ابتسمت وقبلتها على خدها، قلت لسمير: «هيا بنا».

ركبنا الســـيارة، جلســـت بالمقعد الخلفي، أراقب المباني والشوارع من النافذة فيّ تعب حقيقي، لم أنم ليلة أمس وهذا ســـبب كافٍ ليكون اليوم صعبًا.

- «إلى اين سنذهب؟» سألت ياسمين.

- «إلى الملاهي، هذا ما اقترحه أبوكِ» أجابها سمير.

انتبهت للحديث، وأردفت: «لا، لن نذهب لهناك، سنتوجه لمسرح بيرم التونسي».

- «ها! لماذا؟».

- «يصورون حلقة جديدة من البرنامج الذي تحبه ياسمين (ليتل ستارز) اليوم هناك، وقد استطعت حجز مقاعد لنا وسط المشاهدين».

- التفتت لي ياسمين: «هل هذا حقيقي؟».

- ابتسمت: «بالطبع».

- «ألم أقل لكِ ان أبوكِ يُحبكِ» قال سمير.

كان مسرح بيرم التونسي يتزين بلوحات كبيرة كُتب عليها اسم البرنامج، وطفل يقف بجوار الاسم بيده ميكروفون وأمامه جمهور، وتحت اللافتة كانت أروى تقف بانتظارنا، ألقيت عليها التحية ثم قدمتها لابنتي: «هذه ابنتي ياسمين» انحنت أروى ناحيتها وقبلتها، وكان واضحًا قبول أروى لدى الصغيرة، دلفنا المسرح وجلسنا على كراسينا، وبدأ تصوير البرنامج، كان فتى في عمر الثانية عشر تقريبًا يجلس على كرسي، وعلى الكرسي المجاور جلس المذيع يحاوره ببعض الأسئلة، كان الفتى يعزف على الجيتار، وقد كان بارعًا نسبة لسنه، عزف جزءًا من أغنية لمغني جديد لم أسمع عنه قط، مغنٍ من هؤلاء الذين يظهرون ويختفون بلمح البصر.

قال سمير مخاطبًا اياي بصوت منخفض: «تعال معي، لدي شيء بالتأكيد تود رؤيته».

أمنت أروى على الصغيرة ورحلت برفقته، ركبنا السيارة وانطلق بلا كلمة واحدة، سألته: «إلى أين؟».

- «المدافن.. من حقك أن تعرف أين دُفنت سلمى».

ارتعشت أوصالي، تنهدت ولم أضف شيئًا..

أمام قبر سلمى وقفنا، قرأنا الفاتحة، ثم قال لي: «تشبه ياسمين أمها كثيرًا».

أحدق بالقبر الساكن بلا كلمة.

«تريد ياسمين أن تعزف الموسيقى، كما كانت والدتها تفعل».

«هل كانت سلمى تعزف الموسيقى؟».

- «نعم.. عرفت ذلك في أيامها الأخيرة، قالت لي أنها تشتاق للموسيقى ولكنها لم تعد ترغب في العزف مرة أخرى».

- «لم أكن أعرف أنها تعزف من الأساس» ضحكت بمرارة.

- «أنا ايضًا لم أكن أعرف.. لقد عشت حياتي بأكملها خارج مصر، لم أكن موجودًا حتى عندما مات والدي.. الكثير من الأشياء قد تركتها ورائي، أشياء لن أستعيدها أبدًا».

حل صمت ثقيل على كلينا، قاطعته: «أي آلة موسيقية تفضل يا سمين؟».

«الكمان، أخبرتني مُنذ أيام أنها ترغب في الحصول على واحدة».

«سأحضر لها واحدة بالغد، وسأبحث لها عن مُدرسة للموسيقى أيضًا».

# -١٠-

«نحن الجيش الأقوى في لعبة الشطرنج، لأنه وببساطة ليس لربنا ملك نحميه، لا شيء نخسره»

رواية: (شطرنج بلا ملك) – يونس سلامة ٢٠١٤.

كانت ياسمين سعيدة للغاية، القفز كل دقيقة، تمسك بيدها اليمنى عصا الكمان وتمرره على الأوتار خالقة نشاز مُحبب إلى نفسي، تنظر تجاهي بعد كل محاولة، فأبتسم وأصفق لها: «من الغد ستأتي مُدرسة للكمان لتُعلمك كيف تعزفين».

– «حقًا؟».

– «بالتأكيد».

تركت الكمان وهرعت ناحيتي واحتضنتني، ودون وعي مني هربت دمعة من مكانها فمسحتها من فوري، حدقت بي ثم أردفت: «هل يمكنني أن اطلب منك شيئًا ما؟».

– «طبعًا، أي شيء تتمنينه سيكون حاضرًا».

– «هل يمكنك أن تزيل هذا؟». أشارت لشاربي.

– ضحكت: «هل يضايقك؟».

أومأت برأســـها عدة مرات، ضحكت ثم أجبتها: «تحت أمرك، لن يكون موجودًا غدًا».

سألتها: «هل كانت أمك تعزف يا ياسمين؟».

رفعت كتفيها وزمت شفتاها: «لا أعرف».

كانت الســـماء غائمة بذلك الصباح، وبات هطول المطر أمرًا لا مفر منه، أحكمت أغلاق سُترتي وغادرت منزل سمير متجهًا إلى المقهى لمقابلة أروى، كانـــت الأخيرة قد رتبت معي موعدًا لأخذ الفصل الذي قرأته من الرواية حين حدثتها عنها.

كان مقهى صغير للغاية، ذو طاولات دائرية صغيرة، وكراسٍ خشبية طويلة، جلست بجوار أروى واحتسينا فنجانين من القهوة، قالت لي: «يبدو أنك توصلت لشيء ما».

– «ليس بالشيء المهم».

– «لا أعتقد أن هناك شيئًا ليس مهمًا في الموضوع بأكمله».

– «لا أعتقد أن ما نفعله ذو أهمية بالنهاية».

زمَّت شـــفتيها وحكت ذقنها وقالت ســـاخرة: «هل تنوي إنهاء الرحلة هنا؟».

– «في الحقيقة نعم.. لقد بدأت علاقتي بابنتي تتحســـن، كما أنني قد تأكـــدت أن زوجتي قد ماتت، فما الفائدة مما أفعله الآن؟».

«انتظر لحظة، هل كان لديك شك؟».

– «في الحقيقة نعم، ولكنـــني تأكدت حين زرت قبرها بذلك اليوم مع سمير».

ساد الصمت للحظات، ارتشفت قطرات من فنجاني وأردفت: «ولكنني لم أعرف بعد سبب هجرها لي بالماضي، ماذا لو لم تفعل ذلك من الأساس، ما يُزعجني أكثر كونها رحلت تاركة علامات الاستفهام تلك خلفها».

– «إذن تنوي أن تنسى الموضوع بأكمله؟».

– «في الحقيقة نعم.. أحضرت لك الرواية لتكملي قراءتها، ويمكنك أيضًا أن تكتبي عنها وعن يونس، وبدء مشوارك الصحفي».

قالت بعد برهة صمت: «ما الشيء الذي توصلت له؟».

نظرت لها عاقدًا حاجبي.

«الشيء غير المهم» أضافت موضحة.

«هناك احتمال لا بأس به أن تكون سلمى هي نور بالرواية، لقد عرفت أن نور كانت تعزف الموســـيقى كما أن الشخصيتين تتشابهان في نقاط عِدة».

– «مَنْ هي نور؟».

– «خطيبة يونس.. حســـب ما كُتب بالرواية؛ لقد كتب في الصفحة الأولى أن أسماء الشخصيات مزيفة».

– «ألهذا لا تود إكمال الرواية؟».

حاولت الهروب من الإجابة ولكنني بالنهاية لم أستطع: «نعم!».

# الفصل الثاني

# بدأ الجميع يتمايلون

## (كريم)

***الحب هو الرصاصة التي تستقر بصدرك ، فلا تقتلك ولا تتركك حيًا!***

ضرب رزاز البحر وجهه، وداعبته نسمات رطبة من حين لأخر، كان الوقت فجرًا، بدأت الشمس تظهر بالأفق خلف الأمواج، كانت الخيوط البرتقالية بالسماء تتخلل الغيوم الرمادية، فرك كفيه طلبًا للحرارة، وأحكم إغلاق سترته الشتوية حينما ارتجف صدره من الصقيع، جلده ينكمش وأسنانه تصطك ببعضها البعض، فكر بالرحيل ولكن المشهد أمامه كان يُرغم الناظر على متابعته.

ضربته موجة من الاكتئاب العابرة حينما تذكر والده، فقد كان رجلاً حكيمًا ذا بنية قوية، كان يراه دائمًا الأصح بفكرة المثل الأعلى، ذا شارب كث وشفاه مُبتسمة، يُشبه جوزيف ستالين، وإن كان يكره تلك الشخصية إلا أن قسمات وجه والده كانت تُشبهه.. تهشمت صورة والده بعقله بعد وفاته بيومين، حين كان يعبث بمقتنياته؛ ليجد كيسًا بُني اللون صغير به بوردة بيضاء ناعمة، تأكد فيما بعد أنها هيروين!

احتفظ بذاك السر لسنوات، وبالمقابل فقد الثقة بكل الوجوه المُبتسمة تدريجيًا.. إلا لوسيندا..

قالت له سابقًا: «أنا أحب مشهد الشروق وأكره الغروب، ولكنني أكره النهار وأحب الليل!». للوسيندا تناقضاتها كما له تناقضاته حتى في أتفه الأمور، هكذا فكر وقتها، ونبش بعقله عن تناقضاته الخاصة، التي كان يراها تافهة أيضًا، ككره القراءة وحب الاستماع للقصص - كرهه لما يعرضه التلفاز وحبه للسينما. كان ينبش باحثًا عن شيء مشترك بينهما حتى وإن كانت من توافه الأمور، فقط ليقتل جزءًا منه ظل رافضًا لها.

كانت الليلة الأولى التي يقضيها بمفرده خارج غرفته، فدائمًا ما كان برفقة أصدقائه أو بغرفته وحيدًا يدور هائمًا بفلك باهت لا تتجاوز مساحته الأمتار، ولكنه الليلة قرر قضاءها وحيدًا كمحاولة بائسة لتصفية ذهنه.

ضرب الصقيع جسده بقوة، وزاد صوت اصطكاك أسنانه حتى بات يسمعه بوضوح، لذا هَمَّ واقفًا وغادر الشاطئ، ركل الأحجار والزجاجات البلاستيكية والمعدنية وعُلب السجائر الكرتونية التي صادفها بالطريق، عيناه مُثبتتان على الأرض وكفاه بجيوبه، وأغنية قديمة لنير يُردد منها بعض الكلمات من وقت لآخر: قالت لينا.. أم الجموع. شمس الحقيقة غابت.. وغاب قمر الرجوع.

كانت ليلة كئيبة، حتى بدأ النهار ينبض بها فاختبأت بصدره! تخلل النور الظلام من حوله رويدًا رويدًا، وتحول شعوره بالوحدة لشعور ثقيل بالتيه، وكأنه طفل فقد أبيه بالحرب وعاد وحيدًا لقريته، فهل يبكي لفقدانه والده أم يفرح لعودته؟

استلقى على سريره وشعر بعظامه تتحلل فوق المرتبة، أغلق عينيه لثوان بغرفته الصغيرة التي كانت أشبه بشق الثعبان، تزينت جدرانها بلوحات (بوسترات) أفلام قديمة يعود تاريخ عرضها إلى الفترة ما بين السبعينات ونهاية التسعينات، كـ ذا جاد فازر وبولب فيكشن. وصور أخرى لبعض الفرق الموسيقية، التي تنتمي لنفس الفترة كبينك فلويد والبيتلز وذا دوور، وصورة وحيدة لوجه تشي جيفارا بخلفية حمراء داكنة.

فتح عينيه وحدق بالسقف لدقائق قبل أن تدلف والدته الغرفة، فاعتدل ليجلس على السرير، نظرت له والدته من خلف نظارتها الطبية بلوم: «أين كنت طوال الليل يا كريم؟».

- «برفقة أصدقائي».

حدقت به وأخرجت زفيرًا حارًا ليهدأ من حالها: «أهناك شيء تود التحدث معي بشأنه؟».

- «لا شيء».

- «حسنًا.. أرجو ألا تكون قد عُدت لتعاطي ذلك القرف!».

«انتهى الأمر يا أمي، فلا تقلقي».

ابتسمت وإن كانت ابتسامة غريبة، وعدلت من وضع نظارتها فوق أنفها وقالت له: «بالغد أي اليوم تقريبًا.. جلستك مع الطبيب، يتوجب عليك النوم الآن».

- «أتذكر ذلك، لا تقلقي فسأذهب للجلسة».

أغلقت الباب خلفها واستلقى كريم على ظهره لساعة كاملة يتقلب على وجهه تارة وظهره تارة، كسمكة رُميت فوق الرمال الساخنة، قبل أن ينغمس في نوم قَلِق.

بجلسة العلاج النفسي بمؤسسة علاج الإدمان جلس المرضى على كراسٍ بلاستيكية مُشكلين دائرة شبه مُكتملة، توسطهم الطبيب ذو الوجه البشوش واللحية الناعمة واضعًا قدمًا فوق الأخرى، مُمسكًا بيده كراسة ملاحظات سماوية اللون، كان من هؤلاء الأشخاص الذين يوحي مظهرهم بالمهم حتى وإن لم تكن تعرفه لأقسمت أنه يعمل بوظيفة مهمة. أما كريم فجلس على كرسيه يرمقه كما يرمقه الجميع، سألهم الطبيب مُبتسمًا: «كيف حالكم اليوم؟».

جاءته الإجابات غير متناسقة الإيقاع مع الكثير من الابتسامات والإيماءات، كان عدد المرضى الجالسين سبعة وكان كريم الثامن.

رجلان بالعقد الرابع وأربع فتيان بما فيهم كريم بالعقد الثاني، وفتاتان بمنتصف العقد الثاني، مر الطبيب بعينه عليهم جميعًا يتأكد من انتباههم وأردف: «إنه يوم رائع، أخبروني كيف ترون اليوم؟»، رفع سبابته بالهواء وأكمل: «كما اعتدنا أن نراه من خلال الألوان». ابتسم منهيًا سؤاله بطريقة سينمائية.

أجابوه بالدور، الأول وهو رجل بالعقد الرابع أصلع الرأس أجابه بدون تفكير: «أزرق»، فيما نطق الثاني والثالث وهما شابان بالعقد الثاني: «أخضر». قالت الرابعة بعد عدة التفاتات: «أبيض»، ضحكت الخامسة وأضافت: «أزرق، إنه لون رائع ويُشبه اليوم»، وقال السادس وهو رجل أربعيني، زحفت على وجهه تجاعيد الشيب: «بُني»، ضحك الطبيب وأضاف: «هذا رائع»، قال السابع: «أبيض»، وأضاف كريم بعد تفكير قصير: «أبيض».

قال الطبيب: «أحب اختلاف الألوان، ولكنها اليوم متشابهة بحد كبير، قال أغلبهم أبيض، فيما قال عماد بُني، ألا يبدو ذلك غريبًا يا عماد؟».

- عماد ضاحكًا: «أحب اللون البُني».

- «هذا يعني أنـــك تراه يومًا جيدًا.. إذن كم شـــخصًا اختار لونًا لا يحبه؟».

رفع ثلاثة أشـــخاص أيديهم، فتاة وشـــاب بالعقـــد الثاني بالإضافة لكريم.

- «ثلاثة أشـــخاص، حســـنًا، النســـاء أولًا.. لمَ لا يبدو اليوم جيدًا يا هالة؟».

- تنهدت هالـــة، وضحكت بمرارة ولكن لم يبادلهـــا الضحك أحد، إن أكثر ما يُميز تلك الجلسات هو جوها، الذي يوحي بأهمية ما تقوله وإن لم تقل ما يُهم، حدقوا بها وهم يصغون باهتمام فقالت: «حسنًا.. لم يكن يومًا جيدًا، اســـتيقظت بالصباح لأجد أمي وأبي يتشاجران، تعرفون، كل الناس تتشـــاجر وربما تتعارك بالأيدي أحيانًا، بداخل كل بيت يقع شـــجار أو اثنان بالأسبوع، هذا وضع طبيعي، الجميع يعرف ذلك.. ولكن أبي قد تطـــاول وصفع أمي على وجهها ورحل، وجلســـت أمي تبكي بحُرقة لم أرها من قبل، أشـــعر بالســـوء لأجلها ولكنني لم أفعل شـــيء.. دلفت غرفتي، لم يكـــن لدي رغبة بالتدخل، مشاكلهما الخاصة فليحلاها بأنفسهما، ولكي أكون صريحة فأنا لم أستطع تخليص نفســـي من الشعور بكوني جزء من المشكلة، مُنذ تعاطيـــت الهيروين وأنا أرى بملامحهمـــا كرههما لي؛ لذا لم أكن أريد للمشكلة أن تزيد بتدخلي، لأنني وبشكل ما أضيف للمشكلة ولا أحلهـــا. كان يومًا أبيض بامتياز، أبيض لا ملامح له!».

- قال الطبيب بعد بُرهة صمت: «إذن فانتِ لا تريدين ان تزيد المشـــكلة سوءًا؟».

- «لا أريد أن أكون طرفًا فيها، أفضل الصمت على أن أقول شيئًا، خصوصًا أمامهما، فهما لا يريان فيّ إلا مدمنة جالبة للعار، لقد أخفا أمر إدماني عن أقاربهما وأصدقائهما، وحتى معارفهما العابرة، وإن كان بينهم أطباء حتى بعد معافاتي، أخفوه حتى عن أنفسهما، لم يرغبا بالاعتراف أن ابنتهما مُدمنة، فقط كي لا يصطدما بحقيقة تجاهلهما لي، وفشلهما بالتواصل معي طوال تلك السنوات».

- «هذا سيء، ألم تحاولي ولو لمرة واحدة تغيير نظرتهما نحوكِ؟».

- «نظرة مَنْ؟ أبي، أمي؟» ابتسمت نصف ابتسامة، وحاولت كبح دموعها: «إنهما لا يفهمان شيئًا، أريد أن أقف أمام جميع الآباء والامهات بالعالم وأصرخ بهم: قبل أن تنجبوا أبناءكم حلوا مشاكلكم الخاصة، حبوا أنفسكم قبل أن تهبوهم الحب، فحب والداي لي يتبدد كُلما استشعرت كرههما لبعضهما».

صمت الجميع للحظات، ثم بدأوا يجبرون خاطرها، مواسين إياها بكلمات لا تضر ولا تنفع: «هالة أنتِ أقوى من ذلك»، «لا بأس يا هالة فكل شيء سيتبدد مع الوقت»، «ما من أحد يكره أبناءه، تحمليهما فهما يمران بأزمة وكل الأزمات تمر».

احتضنتها الفتاة التي بجوارها، ولثمت جبينها، وحينها بدأت هالة تكفكف دموعها، ثم مرت دقيقة من الصمت الثقيل بدت كدقيقة حداد على موت شيء بداخلها، شيء لم يلاحظه أحد، قبل أن تردف ماسحة دموعها بكُم قميصها: «حسنًا أنا بخير.. لا بأس».

قال الطبيب بنبرة واثقة: «نحن هنا بهذا المكان لهذا الغرض تحديدًا، أن نتعلم من جديد تقبل المجتمع بقسوته وأخطائه، الجميع يخطئ، ما من شخص بلا أخطاء.. ولكننا بشر كهؤلاء الذين بالخارج، والبشر

إن لم يخطئـــوا فلن يكونوا بشـــرًا، لا تخجلي مـــن خطئك، ولا تحزني لحالهما، فليس الجميع قادرًا على احتواء الأخطاء أو تقبل العيش بعدها، نحن نحاول تقبل أنفســـنا بأخطائها وحسناتها، هما فقط سينسيان مع الوقت.. فقط كوني أقوى».

أومأت هالة، وابتســـمت، فبادلها الطبيب ابتسامته السينمائية ونقل ناظـــره لأخر: «الآن دورك يا خالد، لِمَ اللون الأخضر، ولِمَ اليوم أخضر؟».

- «لأنه يوم لا يمضي، أراقبه كمراقبة الأشجار كي تتحرك، والأشجار لا تتحرك!».

- «ولِمَ تريده أن يمضي؟».

- «مثله مثل كل الأيام، أريدها أن تمضي ســـريعًا، الأيام متشابهة، ولا شيء يحدث».

- «تشعر بالملل؟».

- «أشعر أنه لا فائدة من وجودي، أتساءل من وقت لأخر: ما الذي أفعله هنا تحديدًا؟ ولا أجد إجابة مرضية، أنا لم أســـتطع تخليص نفسي من الشـــعور بكوني هنا فقط؛ كي لا يكون المـــكان فارغًا بغيابي.. لاكتمـــال العدد لا أكثر، ما الذي نفعلـــه هنا؟ هل لدى أحدكم إجابة؟».

لم يُجبه أحد.

«ها؟ رأيتم؟ أنتم حتـــى لا تعرفون لِمَ علينا التعامل مع كل هذا؟!!! ككتاب ســـقط بيد رجل لا يقرأ! سيُمزَق منه ورقة تلو الأخرة كي يملأ فراغه، ولن يلومه أحد كونه لا يقرأ!».

قال الطبيب متعجبًا: «يا الله، لِمَ كل تلك السوداوية!».

- «ليست سوداوية يا رجل، إنها خضراء، خضراء ومملة كمراقبة الأشجار». أشعل الفتى سيجارة وأكمل: «نحن هنا كي لا نجد حلولًا، نحن هنا كي نعرض مشاكلنا فقط، وما عليك إلا أن تبحث لنا عن حلوى نمضغها ونقيس من خلالها حلاوة كل شيء يحاوطنا، علينا أن نتجاهل المُر، ونستمتع بالحلو.. أليس كذلك؟».

تنحنح الطبيب وقال: «كلا، علينا أن نستمتع بالمُر كما نستمتع بالحلو.. فالحياة خليط بينهما، فلولا المرارة بفمك لما أحببت طعم الحلو!». بسط ذراعيه ومال بجسده مُكملًا: «كذلك الناس، الأيام، المجتمعات، الأشياء، فلولا وجود السيء منها لما أدركنا الجيد، عليك أن تتذوق المُر أولًا كي تستمتع بمذاق الحلو.. وفي وقت ما ستحب المُر كما أحببت الحلو».

لم يُضف الفتى شيئًا، هز رأسه وتراجع على كرسيه واعتصر سيجارته، فأردف الطبيب: «رجلنا الثالث، قد اختار الأبيض.. كريم، لِمَ لا يبدو اليوم جيدًا؟».

تنهد كريم، ومال بجسده للأمام على الكرسي: «قد أبدو غبيًا، أو تافهًا إن قلت السبب».

- «لكل منا مشاكله، ولكنها نسبية من شخص لآخر، ما يبدو لك سخيفًا قد يُمثل لصاحبه كارثة».

تنهد مجددًا وثبت عيناه بالأرض: «إنها لوسيندا.. تظهر لي بكل الأشياء، أراها بكل الأوجه، إنها لعنة كالهيروين!». صمت لدقيقة وتابع: «لا أريد أن أنساها، وفي الوقت نفسه فأنا أعاني إن لم أنساها».

- «الحب مرض لم يُضفه الأطباء بلائحة الأمراض، وفي الوقت نفسه فهو علاج للبعض، لا مفر من مواجهته، وفي حالتك فهو مرض

سـيأكلك عاجلًا أم أجلًا.. والحل في تجاهله، وأن تقلل من شأنه، لا تنتـزع رصاصته من صدرك، تجاهلها!».

## (يونس)

*صراط الدنيا مُلتوي!*

لم يقو علـى إيصال الخبر لنور، ولم يقو على التحدث مع عبد النبي، ولم يقو على المكوث بالشـقة ليلة إضافية، حزم أغراضه ورحل متجاهلًا عبد النبي، الـذي ناداه عدة مرات حين رآه يهرول خارجًا من باب العمارة ولم يسـتجب، دار بالشوارع لسـاعة كاملة، يتخبط بالمارة ويتجنب رفع عينيـه لوجوههم، لا يعتذر ولا يرد اعتذار أحدهـم رافضًا التواصل مع أحد، حتى وإن كانت كلمة واحدة تُقال، شـعور بالذنب يتزاحم داخله، رغم كونه يعلم جيدًا أن لا دخل له بشـيء، وأنه واقع بحلقة مفرغة لا مهرب منها، كقارب فقد أحد مجدافيه؛ فدار حول نفسـه.

لم يفكـر بالعودة لمنزله بجوار أمـه وأخته، كان يهرب من الانخراط بأي تعامل بشـري، لذا حجز غرفـة داخل فنـدق (لوكاندة) صغيرة بمحطة الرمل، لم يقرأ اسمها، ابتسـم له موظف الاسـتقبال وهو يضع مفتاح الغرفة على سطح المكتب الخشبي: «تستطيع الاستمتاع بإقامتك الآن، إقامة سعيدة».

التقط المفتاح وتناول درجات السُـلم حتـى الطابق الثاني، هاربًا من سجن العالم لسـجن الغرفة، كانت صغيرة تبتلع داخلها سريرًا خشبيًا ودولابًـا ومنضدة ومرآة كبيرة عُلقت على الجدار، وقف يونس أمام المرآة لثواني يُعاين ملامح وجهـه، التي زالت منها علامات ضخ الدم بالعروق، وتمددت الهالات السـوداء تحت عينيه، وكأنها على وشـك التفشـي بصدغه لتزيد ملامحه كآبة.

قبل أن يجلس على السرير راميًا رأسه بين كفيه، أغمض عينيه لدقائق قبل أن تنهمر دموعه بلا توقف، وكأنه يُفرغ ما بصدره، حتى استلقى على ظهره، ومضغه النوم لست ساعات متقطعة قبل أن يبصقه، لم يكن نومًا عميقًا أو هادئًا، نومًا مضطربًا.. يستيقظ منه كل ساعة مفزوعًا، ويغط به مُجددًا بصعوبة، يمضغه لساعة أو نصف ساعة إضافية ويبصقه مفزوعًا، تزاحمت الأفكار برأسه أثناء النوم، حتى استسلم لنشاط عقله مُستيقظًا بالخامسة فجرًا.

غرف الفنادق أماكن مرعبة، فكر بذلك فور استيقاظه، وقد كانت الجثة بجواره على السرير الصغير طفلة بالرابعة من عمرها، جلس أمامها للحظات قبل أن يصرخ مُتهدجًا: «ما الذي يحدث؟!.. من أنت؟.. أظهر لي وأخبرني ما الذي يحدث لي!».

سعل بشدة وارتجفت رئتاه جراء الصراخ، سقط على ركبتيه أرضًا، وأخرج القداحة الزيبو من جيب بنطاله وتذكر أنه اشتراها خصيصًا؛ ليُشعل النار بالجثة الأولى، التي ظهرت له؛ فركها مرتين حتى استجابت فتوهج اللهب أمامه قبل أن يلتحم بطرف بالملاءة بالسرير، فبدأت النار تلتهم الأنسجة، شق الدخان طريقه زاحفًا للخارج من تحت عقب الباب، ويقتحم الشيش لما خلف النافذة، وبدأ يونس يسعل بشدة، وفقد قدرته على الحركة، فأغمض عينيه وخارت قواه حتى فقد وعيه.

فتح عينيه تدريجيًا، وبدأت الرؤية أمامه مشوشة قبل أن تتضح إلا من بعض الغمامة، كان الألم يعتصر صدره فلم يستطع النطق بكلمة، سعل مرتين وسمع صوتًا ينادي: «لقد أفاق يا سيدي».

«أحضر له بعض الماء بسرعة».

اقـــترب منه صاحـــب الصوت الأخير، وقد كان رجـــلاً بالأربعين من عمره، أصلع الرأس، قال له: «حمد لله على سلامتك»، نقل يونس ناظره لصاحب الصوت وأومأ برأســـه، فأضاف صاحب الصوت بعد برهة صمت: «ربمـــا يجب أن ترتاح الآن، قبل أن نتحدث عما حدث بالغرفة.. ولا تقلق لن أطلب منك تعويضًا».

- «ما الذي (يســـعل) حدث؟» سأله يونس بعد أن اتضحت الرؤية أمامه تمامًا.

- «لقـــد احترقـــت الغرفة، تم إنقـــاذك بأعجوبة، حـــادث يحدث بكل اللوكانـــدات والفنادق الكبرى والصغرى، فلا تقلق.. المهم هو أنك بخير».

- «أنا.. أسف!».

- «لا تعتذر، بالتأكيد لم تكن تقصد ذلك، إنه حادث غير مقصود».

- عاد الفتى بكوب كبير من الماء، فأســـند الرجل الأصلع يونس حتى جلس ساندًا ظهره على ظهر السرير الخشبي، وشرب الماء كله دفعة واحدة، تنهد وشكر الرجل، مد الرجل يده متناولًا كفه الأيمن قائلًا: «ياسر عبد الله التمامي، صاحب اللوكاندة.. لوكاندة التمامي».

- «شكرًا لك يا أستاذ على إنقاذي».

- «لا تشـــكرني، فقد أنقذت غرفة بلوكاندتي كما أنقذتك، أنت هنا تحـــت رعايتي الخاصة.. لوكاندة التمامـــي تهتم بضيوفها قبل أن تهتم بغرفها، إنها سياســـتنا الخاصة بالعمل».

اعتدل يونس بجلسته وهم بالنهوض قائلًا: «يجب أن أغادر الآن، آسف لما سببته».

- «سيدي لا يمكنك المغادرة الآن، حالتك الصحية ليست على ما يرام، كما أنك لم تقم بالإقامة بعد حتى تغادر».

عاد يونس لجلسته: «ولكنني لا أستطيع الإقامة بعدما حدث».

- «لا تهتم، لقد حدث الكثير سابقًا، أتعلم قبل وقت قصير ترك أحدهم الصنبور مفتوحًا وغادر الغرفة؛ فتسبب بإغراق طابق كامل بالماء، إنها حوادث اللوكاندات تحدث دائمًا.. يمكنك البقاء حتى تستعيد عافيتك ولك القرار بعدها، سأتناول فطوري معك إن لم يكن ذلك سيزعجك بالطبع».

- «سيكون ذلك لطيفًا».

غادر ياسر الغرفة تاركًا يونس بصراعه المستمر مع أفكاره، يحاول ترتيب الأحداث مرة أخري، تذكر هاتفه فنهض من جلسته، وأصابه بعض الدوار فور ملامسة قدميه للأرض؛

ترجل حتى الباب وفتحه؛ ليجد نفسه بالطابق الأرضي للفندق، رمقه موظف الاستقبال ثم قال له: «سيدي هل أنت بخير الآن؟».

- «نعم بخير.. أين هاتفي؟».

- «مقتنياتك بالكامل هنا، لقد أنقذناها من الحريق».

- «أه، شكرًا»، تقدم ناحيته والتقط حقيبته وهاتفه، وسأل موظف الاستقبال: «كم تكلفة ما تُلف أثناء الحريق؟».

- «لا أستطيع أخذ المال منك، إنها تعليمات (مستر) ياسر، لقد شدد على ذلك، كما أنني لا أعرف بالطبع حجم الخسائر بالحريق».

أخرج خمسمائة جنية ووضعها أمامه، والتقط ورقة وقلم من على المكتب، ودوّن رقم هاتفه: «إن كانت الخسائر تتكلف أكثر من ذلك هاتفني، وإن كانت أقل فاحتفظوا بالباقي»، رفع حقيبته على ظهره فعاد الدوار لرأسه، أنقذ نفسه من السقوط باستناده على المكتب، قبل أن يظهر ياسر بجوار باب الفندق، قال له ضاحكًا: «قلت لي أنك ستنتظر، لن أثق بكلمة تقولها بعد الآن يا يونس».

- «يا أستاذ أنا أسف ولكنني لا أستطيع المكوث أكثر من ذلك، يكفي ما سببته لكم من متاعب».

- «حسنًا غادر بعد تناولك الفطور، وخذ نقودك، ففندقنا لا يقبل العوض، ستحاسب على ثمن إقامتك فقط، وهي يومان الأمس واليوم، أي مئة وخمسين جنيهًا، كما أنك لا تعرف ثمن ما أتلفت يا فتى.. تذكر سياستنا الخاصة الاهتمام بالزبائن».

شعر يونس بالإحراج، فتقدم ياسر والتقط النقود من على المكتب، وحشرها بجيب بنطال يونس وقال له: «هيا، فالفطور سيبرد».

ترجلا لغرفة واسعة باللوكاندة، تُستعمل كمطعم ومقهى صغير، لمن أراد أن يتناول طعامه بعيدًا عن غرفته، وجلسا حول الطاولة الخشبية المستديرة، تناولا إفطارهما وإن لم يتناول يونس سوى بعض اللقيمات، قال له ياسر بعد بلعه لقمة كبيرة: «يبدو أنك بدأت تستعيد عافيتك».

- «تقريبًا».

- «حمد لله.. أبناء هذه الأيام يتعافون سريعًا.. يُمكننا الحديث الآن.. ما الذي دفعك لفعل هذا؟».

شرد يونس لثواني قبل أن يُجيبه: «كان حادثًا».

- «لم يكـــن حادثًا يـــا بُني، لقد وجدنا القداحة، كما أنك لم تشـــعل ســـيجارة واحدة مُنذ دلفت الغرفة، المنفضة فارغة ولا وجود لأعقاب السجائر بالغرفة».

لم يضيف يونس شيئًا، فاســـتأنف ياسر قوله: «احضر جلسات للعلاج النفســـي، لن أخفى عليك، لقد كنـــت أتعاطى الهيروين لفترة قبل أن أخرج ذلك السُم من حياتي، والآن أخضع لعلاج نفسي، يُمكنك القدوم معي إن كنت تحتاج لذلك، إنها جلسات منظمة لمن تعافى من الهيروين ولكن يُمكنك مشاركتنا».

- «لم أتعاط الهيروين، ولا أحتاج لذلك، لقد كان حادثًا.. أتأســـف عليه مُجددًا».

- «لا أســـف يا ولدي، قلت لك هذا سابقًا.. أتعلم، كان لي ولد وقد مات داخل حريق مســـرح البالون بالجيزة قبل عام من الآن».

لم يضيف يونس شـــيئًا؛ فأكمل ياســـر: «لقـــد كان بداخل إحدى الغرفتين المتفحمتين، كان هاويًا للمسرح، لقد سافر للقاهرة خصيصًا؛ ليشارك بعرض مسرحي، وقد التهمته النيران، كان شابًا بالسابعة عشر، لقد أنجبته وأنا بعمر الثالثة والعشـــرين، وقد أنشـــأته على حُب المسرح حتى ابتلعه المســـرح.. وهذا ما جعلني أتعاطى الهيروين لثلاثة أشـــهر، قبـــل أن أخضع للعلاج من إدمانه، لا أخجـــل من قول هذا الآن لكل منا أخطائـــه.. مُنذ ذلك الحين وأنا أكره النيران والمســـرح، كان إنقاذك بمثابة اعتذار لابني».

- «هذا مؤلم، رحمة الله عليه!».

- «رحمه الله».

توقفا عن الحديث لعدة دقائق، وتوقفا عن الأكل كذلك، وكأنهما قد توقفا حدادًا على الفتى، قال ياسر مُجددًا: «يُمكنك القدوم لجلسات العلاج النفسي، إنها مناقشات صريحة، نتشارك فيها كل شيء تقريبًا، نتحدث عن كل ما يُزعجنا، حتى وإن كانت بالسياسة أو الدين، أفضل ما يُميزها ألا تعاملًا شخصيًا بيننا خارج المصحة، فبمجرد خروجنا من باب المصحة لا يعرف أحدنا الأخر، أما داخل المصحة فالجميع أصدقاء».

– «إن شعرت بحاجتي لذلك سأطلب مِنك اصطحابي».

أنهيا طعامهما، وعاد يونس للغرفة التي استفاق بها، أمسك بهاتفه وفكر في الاتصال بنور، ولكنها الآن تمر بوقت عصيب على الأغلب، فلن يزيد اتصاله إلا سوءًا، هكذا كان يُفكر.

## (نور)

*لم تعد المرايا تعكس وجهي الحقيقي!*

جلست على الأريكة بالصالة، على طرف الأريكة، بالركن الذي طبع والدها به قُبلته الأخيرة له على جبينها، تُحدق بالأرضية أمامها، وضعية مُنكسرة لم تعهد جلوسها من قبل، كما لم تعهد ذاك الحُزن الطابق على صدرها، تيه وصمت ثقيل برأسها، الذكريات المنقوشة بقلبها تحفره، تُصدع جدرانه، تكسيه بلون رمادي، إدراكها للألوان يتلاشى، فكل الألوان اليوم متشابهة، كل شيء يفقد ألوانه بعينها.

حينما جاءها الخبر - بعد انتهاء الحفل الذي لم تستطع المشاركة به لخوفها - استقبلته بصمت، ذاك الصمت الذي يتوقف فيه العالم عن نشاطه، التقط حسن كفيها وربت عليهما مواسيًا، ولم يستطع أن يقول شيئًا، ولم تستطع الفرقة الاحتفال بانتهاء حفلهم الموسيقي مراعاةً لشعورها.

نزعت يديها من بين كفيه وتقدمت لإحدى زاويا كالوس المسرح، وجلست على أريكة جلدية قديمة مُغبرة، ولم تعبأ كثيرًا لملابسها، تحاول تقبل ما سمعته لتوها، تنفسها بدأ يضطرب شيئًا فشيئا، تابعها حسن وجلس بجوارها، أخرجت سيجارة من عُلبتها وأشعلتها بيد ترتعش كلهب القداحة، حشرتها بين شفتيها وحاولت إشعالها؛ فسقطت القداحة من بين أصابعها وأنعكس صدى سقوطها على مسامعها، التقط حسن القداحة وأشعل لها سيجارتها..

ومع أولى أنفاسها بدأ صدرها يضطرب وبدأت عيناها تجهش بالبكاء، سقطت السيجارة من بين أصابعها على الأرض وخارت معها قواها، تقوس ظهرها للأمام تُكفن رأسها بين راحتيها، تبكي بحرقة جعلت جسدها بالكامل ينتفض عدة مرات متتالية، حاوطها حسن بذراعه وسقطت رأسها على صدره، ملس على رأسها فيما تابعت نور البكاء، بلا كلمة تتخللها من كلا الطرفين؛ كانت تبحث عن أرض ترتمي بها ووجدت صدره أرضًا.

تلاشت تلك الذكرى حين دق جرس الباب، انتفضت وكأنها تستيقظ من حُلم، ومسحت بإصبعها دموعًا هاربة من عينيها، لم تدرك متى هبطت، ترجلت للباب بوشاحها الأسود، وفتحته لتجد حسن يقف أمامها، قال الأخير ملامسًا إطار نظارته متلعثمًا: «جئت.. كي أطمئن عليكِ».

أفسحت له طريقًا للدخول، فدلف من باب الشقة بانسيابية، انحنى لخلع حذائه، فقالت له: «لا حاجة لذلك، تفضل».

جلس على الأريكة، فيما جلست نور على الكرسي أمامه، قال لها: «شَدي حيلك.. إنها شدة وستزول».

أومئت برأسها زامة شفتيها وعينيها بالأرض.

- «نـــور، إن الحياة لا تقف، بل تســـتمر، عليكِ بالاســـتمرار كذلك لمواكبتهـــا والخروج من تلـــك الحالة قريبًا».

نظرت له مباشـــرة ولم تُضف كلمة؛ فأكمل محاولًا جمع شـــتاته: «أحاول التخفيف عنكِ، أعلم كـــم أن هذا صعب عليكِ، ولكن والدكِ كان ليحـــزن إن رآكِ بهذا الحال، صحيح؟».

أومأت، ملتقطة أنفاسها بقوة تحاول كبح البكاء، وأجابته: «لا عليك يا حسن، أنا بخير».

لم يُضف شيئًا. بل اكتفى بإماءة من رأسه.

مر صمت على الاثنين، صمت ثقيل حلَّ بهما، صمت ثقيل كالظلام، قبل أن يسألها: «متى ستعودين للعزف؟».

رفعت رأســـها تجاهه، وابتســـمت بمرارة قائلة: «العزف! لا لن أعود له مُجددًا، انتهى الأمر يا حسن».

- «لا تستطيعين التخلي عن الموسيقى، أنتِ مصنوعة منها، إنها.. أنتِ، فلا تقولي ذلك مُجددًا».

- «قتلت الموسيقى أبي، لو لم أكن بذلك الحفل لما انتهى الأمر بموته، على الأقل كان لدي فرصة لإنقاذه، عندما أتخيل كم كان يعاني هنا بينما أنا أعزف بالبروفات، وأنشغل بالحفل؛ أكره نفسي!».

«أنتِ مخطئة يا نور، بالتأكيد مخطئة، الموسيقى لم تقتله بل مرضه، وعلى أي حال ســـنتحدث بشـــأن عودتك للفرقة فيمـــا بعد، ليس هذا بالوقت المناسب على أي حال».

وقف مُهندمًا قميصه وقال: «سأرحل الآن، وإن لم أكن قد اطمأننت عليكِ بشكل كافٍ، أخبريني هل هناك من يسكن معكِ بالمنزل؟».

- «لا أقارب لوالدي إلا القليل، ولم يهتم أحد بالقدوم حين عرفوا بوفاته، أمكث هنا وحيدة».

- «لقد تحدثت الفرقة عن ذلك بالأمس، ستأتي هالة لتمكث معكِ اليوم، لن نستطيع تركِكِ بهذه الحالة وحدكِ».

- «شكرًا.. ولكن أخبرها ألا تأتي، لن أكون بخير إن جلست بجوار شخص من الفرقة».

- «حسنًا.. لا مشكلة أتفهم وضعكِ».

تقدم ناحيتها وفكر مليًا قبل أن ينحني تجاه رأسها ويلثمها ثم قال: «كوني بخير.. رجاءً، فأنا لا أستطيع تحمل رؤيتكِ على هذا الحال».

أومأت برأسها، ورحل حسن بانسيابية قدومه، فكرت بمهاتفة يونس، ولكن شعورًا بالانزعاج منه قد بدأ يولد داخلها، وهو ما جعلها تتراجع. وإن كان هناك جزء منها ما زال يتلهف له، كان من المفترض أن يكون بجوارها الآن عوضًا عن حسن، كان من المفترض أن تبكي على صدره عند سماعها الخبر، كما كان من المفترض أن يُقبل رأسها الآن، ويطمئنها وإن لم تكن ستطمئن لشيء، ولكنه لم يكن موجودًا، لقد اختفى عنها بشكل لم يعد عقلها يستطيع تفهمه.

شعور بالغُربة قد تمكن منها، وكأنها حبيسة مكان آخر لا تعلم عنه شيء، دارت حول نفسها، وقفت أمام المرآة فزادت غُربتها، وكأن روحها قد رحلت لجسد آخر، هذه ليست أنا! رددت في نفسها.

دلفت غرفتها ووقفت لدقائق قبل أن تنتزع لوحًا خشبيًا من سريرها، وتهوي به على الأورغ الإليكتروني الخاص بها حتى تهشم!

## (كريم)

*لا تحاول الغوص بعمق الأشياء، السطح أكثر أمانًا!*

جلس كريم مع مالك صديقه بمقهى الوطنية، كان الأخير قد انخرط مع أصدقائه وبدأ ينسى وجود الأول تدريجيًا، حلقة نصف دائرية من الأشخاص حول طاولة خشبية، يتطرف كريم الدائرة بجوار مالك، واثنان يُكملان نصف قطرها على الجانب الآخر.

كان مالك شابًا أسمر اللون ذا وجه منزعج دائمًا، يرتدي تيشرت أحمر طويل الأكمام وبنطال بُني فضفاض، والكثير من الأساور القطنية بمعصمه، معظمها من اللونين الأخضر والأحمر، تعمقت صداقته بكريم مُنذ المدرسة الثانوية، وتحديدًا قبل امتحان النصف الأول للصف الأول الثانوي، حيث كان يتناثر أغلب الطلبة بالمقاهي المجاورة للمدرسة لمراجعة ما درسوه - حفظوه.

كان لديه هواية متطرفة عن باقي الجالسين وهي غناء الراب، وقد رآها كريم شيئًا سخيفًا، ولكنه لم يصارحه بها علانية، كما لم يصارحه بتعاطيه للهيروين، حتى قرر التوقف عنه وخضوعه لجلسات علاج الإدمان على مدار خمسة أشهر، وبخلاف مالك الذي لم تكن حياته جهرًا أمام عائلته، فقد أخبر كريم والدته بكل شيء حين شعر ذات ليلة أن السُم الأبيض لن يفارقه، وقف أمامها ناصبًا قامته أزيد من الطبيعي، قال لها بالنص: «أنا أتعاطى الهيروين مُنذ عدة أشهر.. وأود الخلاص منه فساعديني!».

أصابتها كلماته بالصدمة وصلت حد توقفها عن تبادل الحديث معه ليومين كاملين، إلا من بعض الكلمات قليلة الحروف ومباشـــرة المعنى، ورغـــم كونها طريقة طفولية للعقاب إلا إنها كانت كفيلة الأذى لكلا الطرفين. كان ذلك فعلًا شاذًا بالنسبة لجيله، فأغلب الشباب يصارحون أصدقاءهم بمصائبهم قبل أسرتهم.

تنهـــد مالك، ونكز كريم بكتفه قائـــلاً: «لقد كتبت مقطع جديد، أتود الاستماع له؟».

— «يا للغباء، تفضل!».

طلب من أحد الجالســـين أن يُشغل الموســـيقى على هاتفه، موسيقى الراب ذات الإيقاع الرتيب: «موســـيقى لفيني باز؟ أتناســـبك؟».

— «فيني باز.. المفضل لدي، شـــغلها». تقوس ظهر مالك للأمام وحدق بالطاولة وبدأ يُغني مع بدء الإيقاع:

«صوتنا أتنبح، والتراب بلسانا أتمسح .. في طريق مسدود واقفين سم الثعابين في الجسم أكتسح

رؤوس الأفعى طـــارت لكن الجلد متغـــيرش .. ومهما تحقن اللقاح الواقي ميتأثرش!

على الأرض محفور اسمي عايش فيها سد خانة .. لفيت على المجهول لقيته في أسنان وحوش جعانة!

ســـألت شـــق الأرض على اللي عليا واللي ليا .. قالي نقلوا الدستور مكان شعلة تمثال الحُرية!

مُقيد، مُكبل، مُذلل، مكسور .. مُحطم، مُهدد، ممنوع من الظهور

نشروا الســـراب، حقنوا السم في الوريد .. عِشنا لحد ما شوفنا هلال بيسيب حُضن الصليب

وقفت، صبرت، كعوب الرجل اشتكت .. وجفن عيني جف، بدل الدموع الدم بكيت

بصباعي بشاور على القاتل وشايف المقتول .. تايه بدور جوا مني على الجندي المجهول».

صمـــت كريم للحظات قبل أن يقول له: «رائـــع، إنها جميلة، ولكنها ثورية بعض الشيء صحيح؟».

— «وهل هناك شيء أحق من الثورة بالغناء؟». قالها ملوحًا بمعصمه.

كان مالك يعد نفســـه ثوريًا، رغم مساسه البسيط بذاك المجتمع، الحمـــاس الثوري الذي اشـــتعل بداخلـــه لم ينطفئ بعـــد كما انطفأ بالأغلبية، قال له كريم بلهجة مرحة: «حسنًا يا ثوري، متى ستسجلها؟».

— «الراب لا يحتاج لتســـجيل واضح، ســـيفقد متعته إن تحول لشيء تســـتمع له من وقت لآخر يا صديقي، للغنـــاء الحي متعته».

— «أنت غبي».

— «شكرًا». وضع كفه على رأسه.

قال أحد الجالسين مخاطبًا كريم: «ألا تُحب الراب؟».

— «لم أستمع من قبل لمن يجعلوني أحبه».

— «يجب ان تســـتمع لمن يغني الراب حقيقة.. آيس كيوب، توباك، فيني باز، سيُعجبك الأولد سكول بالتأكيد».

— «رُبما سأستمع لهم».

- قال مالك: «لا تتجاهل العرب كذلك، شادية منصور، الديب، دام، مليكا وغيرهم».

- قال الفتى الآخر: «شادية منصور لها أغنية رائعة اسمها «كلن عندن دبابات» ستعجبك».

- قال له كريم: «استمعت لبعض المصريين سابقًا، لا أذكر أسماءهم تحديدًا».

- «لم تُنجب مصر مثل محمد الديب وشاهين وبعض الفرق المغمورة».

لم تطل جلستهم إذ شعر كريم بالضجر، فطلب من مالك النهوض والتجول قليلًا، وافق الأخير وتجولا لساعة كاملة بشوارع محطة الرمل، سأله مالك بعد أن توقفا عن الحديث لدقيقة: «هل ما زلت على معرفة بتلك الفتاة؟ لوسيندا؟».

- «أراها من وقت لآخر». أجابه في حذر.

- «لن تصدق ما سأقول صحيح؟».

توقف كريم مكانه وقال له مُحدقًا: «ماذا هناك؟».

- «رأيتها مُنذ أيام داخل سيارة رجل، سيارة تويوتا صفراء».

- «...».

- «كانت السيارة متوقفة على طريق الكورنيش، وكان الرجل يضع أصابعه على ساقها».

لم يستطع كريم ان يستحضر الصورة بذهنه، سأله محاولًا الحفاظ على هدوئه داخل ابتسامة مصطنعة: «أنت بالتأكيد مخطئ، ليست هي».

- «إن رأيت شخصًا لمرة واحدة فأنا لا أنساه، وقد رأيتها عشرات المرات.. من المستحيل أن أخطئ».

- «ومن ذلك الرجل؟».

- «لم أراه مُسبقًا، ولم أحدق به بالشكل الكافي لأستحضر ملامحه، ولكن ما الجديد، إنها لوسيندا يا صديقي.. لديها الكثير من العلاقات المتشابهة كما سمعت عنها، لم أصدق بالبداية ما أسمعه حتى رأيتها بنفسي».

- «مالك.. أود العودة لمنزلي!».

- «أكل شيء على ما يرام؟».

- «أجل.. لا تقلق».

- «أحذر منها يا صديقي، فإن نبشت بالقاع ستجد الكثير».

عاد لغرفته ولم يستطع النوم، ظل مُحدقًا بالبوستر الخاص بفيلم (كلاب المستودع) على جدار غرفته، هاتف لوسيندا مرتين فلم تُجبه، تذكر المشهد الأخير بالفيلم، عندما نطق (أورانج) وهو ينزف بين يد (وايت): «أنا شرطي، أنا آسف». حينها شعر وايت بالخيانة، فقد قتلهم لتوه كونه يصدقه ويثق به، رغم أنهم أخبروه سابقًا بأن أرني شرطي، ويسعى للقبض عليهم فلم يصدقهم، سدد فوهة المسدس لرأس أورانج وأطلق الرصاص... حل النهار، وتفرقت الظلمة واستيقظ كريم وإن لم يكن يتذكر متى قد نام.

## (يونس)

### الموت والرحيل سيّان

غادر الفندق وعاد بزجاجة هينيكن داخل كيس بلاستيكي أسود، تجرع ربعها وأخفاها بدولاب الغرفة، فلم يعرف بعد موقف الفندق من المشروبات الكحولية، لم تكن غرفته الجديدة بالفندق تختلف عن التي أحرقها، بالفنادق نفس نظام الترتيب ونفس أنواع الأثاث، فتح اللاب توب وبدأ يجمع صور كل من يعرفه داخل حافظة ملفات واحدة (فولدر)، يكتب على كل صورة اسم صاحبها، وبجوارها نبذة عن علاقته بها داخل ملف وورد، عائلته - أصدقائه - معارفه - أصدقاء العمل، استعان في تجميعهم بإنترنت الفندق الرديء.

بات متيقنًا إنه بالصباح سيفقد أحدهم كما فقد والد نور ومن قبله فريد، انشغل تفكيره كعادته بمحاولة التأقلم على المشكلة بدلًا من البحث عن أسباب حدوثها، تجرع ربعًا آخر من الزجاجة، وهرع يُخفيها بالدولاب حين طرق ياسر الباب مرتين، قبل أن يأمره يونس بالدخول، دلف الغرفة ينقل ناظره بين يونس ومنفضة السجائر بجواره، ضحك يونس وقال له: «لا تقلق، لن أشعل النار مُجددًا».

- «جئت كي أطمئن عليك».
- «تفضل بالجلوس» أشار للكرسي بجواره، ترجل الرجل للكرسي البلاستيكي وجلس، سأله: «هل تحسنت حالتك؟».
- «نعم أعتقد» طوى شاشة اللاب توب، وأضاف: «أعتقد أنني أفضل حالًا الآن».

- «تعرف عليك موظف الاستقبال منذ دلفت الفندق، يونس سلامة، أخبرني أنك كاتب أليس كذلك؟».

- «بلى، أعمل على كتابة رواية جديدة، كنت على وشك كتابة فصل جديد قبل دخولك».

- «هل عطلتك؟».

- «لا، يُمكنني كتابته في وقت لاحق».

- «يباغتني سؤال سخيف، ولكن لا مفر من طرحه.. أليس لديك منزل تعود له؟».

- «سأغادر الفندق بالغد، سأعود لمنزل العائلة، أمي وأختي هناك».

- «لا أقصد طردك أو شيء من هذا القبيل، أنت كابني، وتسُرني إقامتك هنا ولكن تعرف.. العائلة قد تُساعدك في تجاوز ما أنت فيه».

التقط علبة سجائره وأشعل إحدى محتوياتها وأردف: «بالتأكيد، سأغادر بالصباح، شكرًا لك على كل شيء».

- «لا تشكرني يا بُني، ولكن عُد لزيارتي وقتما تشاء.. وإن كنت تشعر بالسوء يُمكنك الانضمام بجلسات العلاج النفسي معي، صدقني إنها مفيدة.. تعرف سياستنا».

- قاطعه يونس: «الاهتمام بالزبائن أولًا».

- ضحك ياسر وأردف: «تتعلم بسرعة».

قضى ليلته يُكمل استجماع الصور، توقف عند صورة نور، تأملها لدقائق قبل أن تعتريه الكآبة، فكر بمهاتفتها وتراجع، مازال يهرب من إيصال خبر وفاة والدها لها رغم علمه بكونها استقبلته وانتهى الأمر، لم

يكن يستطيع مواجهتها، أو المكوث بجوارها الآن؛ فقد انتهى وقت المواساة، إن لم يكـــن بجوارها من البداية فما فائدة أن يعود الآن.

فتح ملف الرواية وقرأه مرتين، ولم يشـــعر بأصابعه أثناء تدوين فصل جديد بها:

# «رواية السكير»

(٤)

رن هاتفي برقم لم أعهده من قبل، صعب الحفظ رغم سهولة التلفُظ به. ضغطت زر استقبال المُكالمة وألصقت الهاتف بأذني اليمنى:

- ألو !

- أنا نادر ..

(نادر)!.. إن لم تخونـــني ذاكرتي هذه المرة، فهو ذلك الصامت الذي قابلته ليلة أمس فلم يـــ ..

قاطع تفكيري: «أنا نادر صديق علاء.. انتظرني بأول الشـــارع، فمن الضروري أن نلتقي الآن.»

قالها وأغلق المُكالمة.. لســـت من النـــوع الدرامي، ولكن ما حدث للتو يذكرني بالمسلســـلات البوليســـية عندما يُخبئ (نبيل الحلفاوي) رسالة لـــ (محمود عبد العزيز) في حمـــام المطعم.. يقرأها الأخير، ثم يُمزقها ويحرقهـــا ويُلقى بها في مجرى المياه.. ليخرج بعدها لـــ (تهاني راشـــد) ويُكمل طعامه وكأن شـــيئًا لم يكن!

وكما فعل (محمود عبد العزيز) فقد اســـتجبت لما قال حتى دون أن أســـأله كيف جاء برقمي .. أو بالأحرى لم يترك لي الوقت للســـؤال!.. انتظرته على أول الشارع وبعد دقائق توقفت سيارة (كيا سبكترا) موديل ٢٠٠٥ ســـوداء ـــ إنها السيارة المُفضلة لدىـــ وفُتح زجاجها وأشار لي نادر أن أتخذ المقعد الأمامي بجوار مقعـــده.. وبلا كلام أو أحاديث أو حتى إلقاء التحية انطلق مُتخذًا كورنيش البحر.

دخن سيجارتين كليوبترا أثناء الطريق، فيما قمت بتدخين واحدة ــ رغم أن الطريق ليس بالقصير، إلا أنه كان يتحرك ببطء ــ لم أكن أعلم من قبل أن تلك السيارة بطيئة إلى هذا الحد.. توقف بالسيارة فجأة، وشعرت بالألم أسفل قدمي.. التفت لي قائلًا بلهجة صارمة :

– «احك!»

ارتفع حاجبي ونظرت لساعتي الـ (كاسيو) تجاوزت عقاربها الثانية عشر ظهرًا..

– احك!؟ هل طلبت مقابلتي لأحكي؟

– احك؟

– أحكي بشأن ماذا؟

– بشأنها، احك عنها!

سرت في جسدي قشعريرة ومر شبح يحمل صورتها ومررها أمام عيني.. ولكن لم أجب عن سؤاله إلا بسؤال أخر : «من أين أتيت برقم هاتفي؟»

– ما رأيك بعقد صفقة رائعة.. أخبرك من أين أتيت برقمك وتحدثني عنها؟

بدأ صدري يعلو ويهبط بشيء من الغضب.. سحبت شهيقًا لصدري، وأخرجت زفيرًا حارًا كان ليُشعل الهواء المُحيط بنا.. قال في هدوء وصرامة: «نحن نفهم بعضنا جيدًا، لا نستطيع الهرب بطرح الأسئلة فقط.. ولن تستطيع الكذب عليّ!»

– ما الذي تريده؟

بدأ المطر يهطل من خارج السيارة بهدوء بداياته، وبطريقة ما سقطت قطرات على جبيني! هل سقف سيارته الكيا غير موجود؟ نظرت لسقف السيارة لأجده ثابتًا كأعصاب (نادر)، ولكن الأمطار تتخلله بطريقة ما.

– كيف يهطل المطر بداخل السيارة؟

سألته، فأجاب : «ليس لدي سيارة!».

أغمضت عيني وفتحتها والقشعريرة لا ترحل عن خلايا جسدي.. ما الذي يحدث؟!

كيف انتقلت أنا و(نادر) لسور الكورنيش!.. هل انتقل (محمود عبد العزيز) لإسرائيل بهذه الطريقة؟!

الخوف يقتحم جسدي من جديد.. كعبا قدماي لا تكُف عن الشكوى بلا سبب، ابتسم نادر وقال : «لنكمل ما بدأنا، الاتفاق تذكره؟»

– من أنت وما الذي يحدث؟

– ليس هذا من ضمن الاتفاق ولكن سأجيبك.

صمت لبرهة وأكمل: « أنا الوهم.. لكل منا وهمه الذي يعيشه ويتعايش معه، ولكن القليل من يصدقه على أنه حقيقة مطلقة، وبعضهم يُهمله.. وآخرون يشبهونك، يعلمون جيدًا أنه وهم ولكنهم قرروا تصديقه.. صدقني أو لا، أنت من صنعتني.. أنا مثل (ليلى) الفرق بيني وبينها إنها ماتت وتحولت لوهم.. ولكن أنا وهم مُنذ البداية».

ما هذا الهراء!.. بالتأكيد هناك شيء ما خاطئ.. قرصت ذراعي دون لفت الانتباه حتى أستيقظ من حُلمي.. ولكنه ألمني بدلًا من ذلك.. وكل ذلك لم يمنع جسدي من الارتعاد خوفًا..

– ليس من الصعب أن أهاتفك، أو أقنعك بأنك ركبت سيارة وأنت بالأساس تمشي!.. هذا طبيعي لأي شخص يخلق كيانً لوهمه.

– ما الذي تريده مني؟

– أن تقتلني!

– أنت مجنون وبحاجة لعلاج.. سأرحل!

قُلتها ونهضت من مكاني.. مازالت كعبا قدماي يؤلماني وجسدي يرتعد..

– لابد لك من أن تقتلني، لأجل ليلى!

تثبتت قداماي بالأرض .. وبدأ المطر يزيد من هطوله.. التفت إليه بصعوبة، وكأن جسدي قرر أن يتصلب مكانه!.. أشعل سيجارة (كليوبترا) لم تبتل بالمطر، وأكمل بصوت هادئ: «هل تعرف الأخوين مايكل وشون؟»

– لن أقتلك، ولن أنسى ليلى، ولا أريد أن أعرف من هما!

لم يهتم بما قلت وأكمل: « سنة ١٩٧٥ كان الأخان يقفان بحديقة قومية في كاليفورنيا.. وفجأة بدأ شعرهما يرتفع بالهواء..»

لم أهتم وتحركت من مكاني أغادر مجال رؤيته.. ولكن ظل صوته يرافقني كظِلي، وكأنه مُلتصق بي: «وخاتم مايكل يصدر أصواتًا يسمعونها لأول مرة.. ضحكا على منظرهما فرغم ما يحدث لهما إلا أنه كان مضحكًا، كان يرافقهما طفل ثالث، التقط لهما صورة.»

أبتعد أكثر فأكثر.. ولكن الصوت لا يختفي!.. ألتفت فلا أراه! ويُكمل سرد قصته: «أتعلم ما الذي حدث بعدها؟.. كان ما يحدث من

البدايـــة عاصفة برقية وثوانٍ كانت تفصلهم على مواجهة الموت، ضربت العاصفة ثلاثتهم، واحد من الأخويـــن نجا من الموت.. ودخل بعدها في غيبوبة لســـتة أشهر وأصابه دمار عصبي قاده للانتحار بعد فترة قصيرة.»

أركض بلا جدوى.. الصوت يلاحقني.. ألتفت ثم أعود لأجد صاحبه يقف أمامي!

– هل وصلت للمغزى؟

– .....

– ما تراه رائعًا ما هو بالحقيقة بداية الكارثة!

***

أستيقظ بالصباح، بجواره جثة لرجل بالعقد الثالث، تفحص الصور باللاب توب، ولكنه لم يجد وجه صاحبها، فكر في ماذا إن اســـتيقظ يومًا ليجـــد بجواره جثة حقيقيـــة، وقد أرعبته الفكرة، غســـل وجهه وفكر في احتمالية حدوثها، ولم يتوصل لطريقة تعامله مع الموقف إذا تم بالفعل، ثم عاد للغرفة وجمع أغراضه داخل الحقيبة، تناول فطوره وارتشف قهوته على عجل، ودعه موظف الاســـتقبال ودفع يونس حـــق مكوثه بالغرفة، وحاول دفع ثمن ما تلف بالحريق، امتنع موظف الاســـتقبال وأوضح له بأدب: «لدي تعليمات بعدم اســـتحقاق أكثـــر من ثمن مكوثك ليومين فقط يا سيدي».

– «شكرًا، سأعود هنا مجددًا بالتأكيد، اشكر السيد ياسر نيابة عني».

غادر الفندق وتوجه لمنزله، ضغط على جرس الباب مرة واحدة قصيرة، كان به شيء من التردد قبيل ما يفعل، فتحت أخته الباب نادت باسمه فرحة وعانقته، وأضافت: «اشتقنا لك». نادت على أمها: «أمي، أخي هنا، لقد عاد».

هرعت أمه نحوه وعانقته بدورها، فأضاف مازحًا: «لم أعد من السفر! لِمَ كل هذا؟».

حاوطت وجهه بين راحتيها وأردفت: «تبدو شاحبًا، ألا تأكل؟».

– «في الحقيقة، أنا جائع، لم أتناول فطورًا جيدًا».

تناولوا طعام الغداء، ثم قالت والدته: «ستساعدنا بتعليق الزينة، اليوم عيد ميلاد أختك، لم تنس صحيح؟».

– «بالتأكيد لم أنس».

وقفا يعلقان الزينة والبالونات بالصالون، فيما كانت أخته تعد أطباق الحلوى على الطاولات، قالت له أمه بلهجة سريعة بينما كانت تُعلق فرعًا من الزينة الحمراء: «سيأتي أصدقاؤها لمنزلنا، ستكون اليوم بمنزلة أباها».

– «أنا أبوها بالفعل، لقد ربيتها».

– «لم تربيها، ولا تتعجل ستنجب أولادًا يومًا ما وتشبع من التربية.. كيف حال نور؟ لم تزورنا مُنذ أمد، لم نعد نعرف عنها شيئًا».

– «بخير يا أمي». لم يُضف شيئًا، وإن كانت ملامحه تفضح الكثير.

هرعت أخته نحوه وحشرت عودًا من البقسماط المملح بفمه، وقالت: «هل انتهيت من روايتك؟».

– مضغها وقال: «ليس بعد، مازال ينقصني الكثير».

– «أود قراءة ما كتبت منها».

– «اصبري حتى تنتهي».

- «سأقرأ ما كتبت بعد انتهاء حفل عيد الميلاد، لن أصبر».

- «لا مشكلة، دعينا ننتهي من الحفل أولًا».

كانت أخته هي القارئة الأولى له في السابق، كان يكتب فصلاً تلو الآخر ويدعها تقرأه فتعود له بالملاحظات اللازمة وانطباعها كاملًا، عن السرد والحوار والحبكة والشخصيات، فبرغم أن سنها ما يزال صغيرًا إلا أنها تربت على القراءة من خلال كم الكتب بمنزلهم، كان يونس يكتب لها بالصفحة الأخيرة من كل رواية يُنهيها (شكر خاص لأختي التي ساعدتني كثيرًا بملاحظاتها لإكمال تلك الرواية).

كان في كل مرة يقوم بكتابة ذلك السطر يُفكر مليًا فيما قاله ستيفن كينج بخصوص هذا الأمر (إننا ككتاب نكتب صفحات الشكر؛ كي نقاوم نزعة الغرور داخلنا).

بدأت مراسم عيد الميلاد التقليدية، أخذ يونس ركنًا بالشقة وجلس يراقب كل ما يجري بعين هائمة، تحوم بين الجالسين دون التركيز على أحدهم، تذكر عيد ميلاد لوسيندا، الحفل الذي بدأ من بعده كل شيء، حينها مرت به لحظة كئيبة، وشعر كم هو وحيد حتى وإن جاوره الكثيرون، لم يكن قادرًا على مشاركتهم احتفالهم، ولا هم قادرون على مشاركته اضطراباته.

عبر الجالسين واتجه لغرفته، وهاتف لوسيندا، استجابت للمكالمة على الفور: «لوسيندا، كيف حالكِ؟».

- «أنا بخير يا يونس، قلقة عليك فقط، فكيف حالك؟».

- «لا أعرف إن كنت بخير أم لا، هناك العديد من التناقضات داخلي».

- «أتود لو تحكي لي؟».

- «في الحقيقة لا»، استشعر ثقل الصمت للحظات، وأكمل: «لا أعرف شيئًا بعينه يتوجب على الحديث بشأنه».

- «عندما تحتاج للحديث سأكون موجودة يا يونس، سأسمعك وإن أصابني الصمم سأتعلم كيف أقرأ شفتيك».

ضحك يونس وقال لها: «هذا رائع، شكرًا لكِ، سأراكِ قريبًا بالتأكيد، سلام».

- «اغلق المكالمة بنفسك، فهاتفي ثقيل لا يستجيب لأمري بسهولة».

- ضحك مجددًا: «حسنًا سلام».

انتهى الحفل، وجلس يونس بغرفته ومد يده بحقيبته ملتقطًا زجاجة الهينيكن، وارتشف منها القليل، فُتح باب الغرفة فدس الزجاجة بحقيبته، كانت أخته واقفة على الباب: «هل أزعجتك؟».

- «لا مشكلة، تفضلي».

مشبكة يديها خلف ظهرها قالت له: «جئت كي أقرأ ما كتبته من الرواية، لقد وعدتني».

مد يده باللاب توب لها، فالتقطته وجلست على السرير بجواره وبدأت تقرأ، دخن يونس سيجارة بينما انتهت من القراءة، ثم أعادت اللاب توب له وقالت: «إنها سيئة للغاية!».

- «لماذا؟».

- «أفهم أن تلك هي المسودة الأولى، إنها عظام رواية لم تكتسِ باللحم بعد، ولكنها سيئة، الشخصيات مبهمة، الحبكة غير واضحة، إنها أشبه بقصاصات مبتدئ!».

- «وما العمل؟».

أسندت رأسها على ظهر السرير وأجابته: «لا أعرف رُبما عندما تنتهي ستصبح جيدة، ولكنها الآن سيئة للغاية، لا ترقى لمرتبة رواياتك السابقة».

- «سأعمل على تحسينها قدر الإمكان».

بالصباح استيقظ ليجد بجواره جثة لامرأة بأواخر الأربعين، هرع ناحية اللاب توب وفتح ملفات الصور، قلبها واحدة تلو الآخرة حتى سقط نظره على صورة الجثة، قرأ المعلومات المدونة عليها بهدوء وخوف: «عزة محمد المنشاوي.. أمي». ابتلع ريقه بصعوبة وتسارعت أنفاسه، دس اللاب توب داخل الحقيبة وارتدى ملابسه على عجل مضطربًا، ودس بعض حاجياته بالحقيبة وخرج من المنزل محافظًا على هدوء خطواته.

## (نور)

*أنا فارغة من الداخل كاللؤلؤ المُهملة، والركن الخالي بغرفتي!*

حين تنظر للوراء قليلًا محاولة ترتيب الأحداث؛ تجد أنها قد سقطت مرة واحدة في فوهة عميقة، كانت سابقًا تسير على السطح، ومن ثم وجدت نفسها بالقاع، لا علامات مسبقة على السقوط، فقط وجدت نفسها كما هي، ولا مجال للعودة، قاع الحُزن الذي يمتصك حتى تنتهي.

كانت هائمة بالركن الخالي من كل شيء بالغرفة، كانت تهيم كثيرًا في اللا شيء، وإن لم تكن تلاحظ ذلك، تجلس لساعات ترمق الفراغ، كان لذلك أثرًا عميقًا على نفسها، فانزوت عن الناس من تلقاء نفسها؛ لتختلي بوحدتها وشرودها.

طُرق الباب فانتشلها من شرودها، فتحته لتجد أمامها عبد النبي يقف منتصب القامة بجلبابه الأبيض ناصع البياض أكثر من ذي قبل،

فأغلب الظن إنه يحتفظ باثنين، واحدٍ ليخرج به والأخر ليعمل به، سألته نور في صغرها: «لِمَ لا ترتدي الجينز؟»، فضحك الأخير وقال لها: «لأنني رجل قديم».

ابتسم لها الواقف على الباب، وبادلته الابتسامة، خلع حذاءه ثم دلف من الباب وتعثرت قدمه بقطعة بلاستيكية سوداء، انحنى وقلبها بين أصابعه ثم التفت لها قائلًا: «أليست قطعة من الأورغ؟».

- «بلى».

تبادلا نظرات حزينة، استشف عبد النبي من خلالها ما فعلته تحديدًا، قبض على إصبع الأورغ بيده، وترجلا للكراسي بالصالة، جلسا قرابة بعضهما قبل أن يسألها: «كيف حالكِ الآن يا ابنتي؟».

- «كما ترى». أشاحت بوجهها بعيدًا.

- «لم تُحبي اللون الأسود سابقًا» كانت عيناه قد سقطتا سابقًا على قميصها الأسود وبنطالها الجينز من نفس اللون.

- «لم أحبه قط ولكنه يفرض نفسه».

- «بالفعل، كالمفاتيح السوداء بالأورغ لم أجد لها فائدة، أيُمكنكِ أخباري بفائدتها؟».

- حدقت نور به للحظات: «لِمَ؟».

- «لأنني أجهل فائدتها».

- «حسنًا». مسحت وجهها بكفيها، والتفتت كُليةً له: «تعرف الدرج الموسيقي صحيح؟».

- «دو ري مي فا.. أليس هو؟».

«بلى هو، سبعة درجات، بالأورغ خمس مفاتيح سوداء داخل كل (أوكتاف) بين الدرجات، ليصل المجموع لاثني عشر مفتاحًا، الأبيض والأسود، الأبيض يصدر صوت النغمة كما هي مع اختلاف (الأوكتاف)، أما عن المفاتيح السوداء فتُعرف بالنغمات الحادة ويرمز لها (بشارب)، وهي تحد من النغمة التي تصدرها، والنغمات الخمسة التي تصدرها الدو والري والفا والصول واللا، أي خمس مفاتيح من أصل سبعة».

- «يبدو ذلك صعب الفهم لرجل مثلي!» قال قاطبًا جبينه.

- «كان يمُكنني أن أشرح لك عمليًا ولكنني.. قد حطمت الأورغ، ولا أنوي العزف مجددًا».

- «لِمَ يا ابنتي؟».

فركت كفيها، وتنهدت مُثبتة عينيها على الأرض لحظات قبل أن تتبدل ملامح وجهها للجمود ناظرة له: «قتلت الموسيقى والدي يا عمي، لم أكن أعلم أنها تحمل ذلك الجانب السيء من قبل، إنها قاتلة، لقد شغلتني حتى أهملته.. أنا والموسيقى قد قتلناه».

مسحت دمعة هاربة من عينيها، انسابت بين ملامحها الجامدة، وأردفت: «أين يونس؟».

هز رأسه نفيا.

- «حتى يونس قد رحل فجأة، ألا يُفترض أن يكون متواجدًا الآن؟ كان أبي مُحقًا عندما قال إنه لا يستطيع تحمل المسؤولية».

- «بالتأكيد هناك شيء ما يشغله، رُبما شعوره بالذنب، ولكنه ليس من النوع الذي يهرب من المسؤولية بتلك الطريقة يا عزيزتي.. أعتقد أنني أعرفه جيدًا».

– علت ابتسامتها مسحة من السخرية، وقالت: «لن يعود يا عمي، لا شيء سيعود كما كان».

– «سيعود يا ابنتي».

– «وإن عاد، أتضمن لي أن يظل حبي له كما كان؟».

لم يستطع الرد، فاكتفى بتنهيدة حارة، كان يتمزق بين شعوره بالمسؤولية غير المبررة تجاه الطرفين، وكأنه أب لهما.

– «هل هاتفتيه؟».

– «لا».

– «هاتفيه يا نور، عاتبيه، مزقي أحشاءه إن رغبتي، ولكن دعي الفراق حل أخير، فهو مازال يُحبكِ».

– «إن كان يُحبني لكان الآن موجودًا، على الأقل لكان اتصل بي».

– «علينا أحيانًا أن نكون الطرف الذي يقدم تنازلات، حتى وإن لم تكن طاقتنا تسمح بذلك».

لم ترد، وقف ومد يده بإصبع البيانو: «هذا يعود لكِ، الموسيقى مازالت تجري بروحكِ حتى وإن قلتِ عكس ذلك، وهذا جزء من روحكِ.. حتى وإن حطمتي الأورغ، فمن حقه عليكِ الاحتفاظ بأجزائه على الأقل».

غادر الرجل المنزل، وكتبت نور رقم يونس الذي تحفظه مُنذ تبادلا الأرقام على مفاتيح هاتفها، ولكنها لم تستطع الضغط على زر الاتصال.

## (كريم)

***بإمكاننا تصحيح الكثير من المسارات فقط إذا تجنبنا اتخاذ القرارات متأخرًا.***

مرت ثلاثة سنوات مُنذ لقائه الأول بلوسيندا، قفزت ذكرياته معها بعقله فور تذكره لتاريخ اليوم، يكاد يلتقط منها صوتًا أو صورة أو كلمة، كان ينظر لذكرياته تلك النظرة التي تُستخدم لالتقاط ما تحتويه اللافتات من خلال نوافذ الحافلة، حتى توقف عند مشهد رؤيتها للمرة الأولى، زاوية الرؤية بدت متقلبة، وسرعان ما تكونت.

الصورة تضح شيئًا فشيئًا، حتى انغمست بعمق في تخيلاته، ظهرت لوسيندا تحتسي قهوتها بالمقهى، متقوسة الظهر، أمام طاولة فردية مستديرة الشكل، خفضت رأسها لتطبع شفتيها على الفنجان، كانت كزهرة تُلثم الأرض بالندى، لا يعلم كريم من أين أتت، أو كيف وصلت لهنا؟ ومتى؟ ولماذا ظهرت؟ جاءت بغفلة منه، ورحلت بغفلة منه، كأحلامه!، وإن كانت صورتها أوضح من أحلامه المُبهمة.. لم يحلم يومًا بشيء واضح، كانت طموحاته عائمة لا تتجمد بشكل يُمكن من خلالها تحديد مسار محدد للوصول لها.

على مدار أيام كان يراها بشكل يومي، ترتشف قهوتها ومن ثم ترحل.. لم ينشغل عقله كثيرًا وإن كان شيء بداخله قد انشغل، وفي نفس المكان بعد أسبوع كامل كان بالفعل قد اتخذ قراره بشأن التعرف عليها. فتقدم نحوها بخطى ثابتة، وقال لها: «تأتين لهنا كثيرًا؟».

– «انه مكان لطيف».

– «قد يبدو ذلك غريبًا، ولكن هل يُمكنني مشاركتكِ جلستك؟».

- «لا أراه غريبًا.. تفضل بالجلوس».

- جلس كريم وقال: «هذا جيد».

- «أتريد أن تشرب شيئًا؟».

- «لا، كنت أجلس هناك، بتلك الطاولة .... هناك». أشار بإصبعه.

- قالت ضاحكة: «لم أرك مُسبقًا، ظننت أنك قادم من الخارج.. إذن، أهناك شيء ما بطاولتك؟».

- «في الحقيقة لا.. أنا فـ...».

دلفت والدة كريم الغرفة، منتزعة ذلك الغارق بحلم اليقظة، وفزع المستلقي على ظهره لينتقل لوضع الجلوس: «كريم، أأنت بخير؟».

- «نعم، أكيد».

- «ارتدي ملابسك، فلم يتبق إلا نصف ساعة على جلستك مع الطبيب» قالتها أثناء انتقالها من غرفته للمطبخ.

نهض كريم من سريره، وترجل للمطبخ وسألها: «لِمَ تهتمين كثيرًا بأمر الجلسات؟».

- «ماذا تعني؟» قالت وهي تُرتب الأطباق فوق بعضها.

- «تعلمين ما أعنيه، لِمَ لا نتحدث عن شيء مختلف؟ لِمَ دائمًا ما يدور حديثنا حول العلاج، الجلسات، الطبيب، حالتك، كيف حالك؟، أأنت بخير؟، هل تحسنت؟، هل ما زلت على قيد الحياة ولم تنتحر من ذلك السم الأبيض؟» قال كلماته الأخيرة منفعلًا، وكاد صوته يتخذ نبرة الصراخ قبل ان يُلجمه.

توقفت عن رص الأطباق وحدقت به فأكمل: «ألا يُمكننا كأسرة أن نتناقش حول أشياء أخرى؟ السينما مثلًا؟ نجلس أمام التلفاز، نشاهد فيلمًا؟ نضحك؟ ننسى؟ ألا يُمكنكِ فعل ذلك؟».

صمتت قليلًا قبل أن تقول: «بلى، يُمكنني الضحك والنسيان ومشاهدة الأفلام.. ولكن لا يُمكننا التعامل كأسرة مُنذ تعاطيك ذلك القرف».

– «ألا تُخطئين؟».

– «أخطأت كثيرًا، ولكنني لم أسمح لخطأ واحد بالتكرار».

– «وأين تكرار الخطأ الذي ارتكبته؟».

حدقت به للحظات ثم أردفت: «اذهب وارتدِ ملابسك، فليس لديك وقت» ثم رحلت من أمامه.

عاد كريم لغرفته مع الكثير من التساؤلات والغضب، ضرب الحائط بكفه عدة مرات حتى أحمر كفه وجُرح، ارتدى ملابسه وخرج من المنزل صافعًا الباب خلفه.

داخل العيادة تجمع الخاضعون للجلسة التأهيلية، كل منهم يتناقش مع الجالس بجواره حول موضوعات شَتى، جلس كريم وتوسطهم مُحدقًا بالأرض محني الظهر، وعادت ذكريات لوسيندا تطرق أبواب رأسه..

– «ممم، تبدو جريئًا قليلًا» قالت له لوسيندا، وهي ترتشف من فنجانها.

– «رُ.. ربما، ليس كثيرًا».

– «لا بالفعل هذه جراءة، أخبرني كيف فعلتها؟».

– «مـــ.. ما الذي تقصدينه؟».

– «كيف فكرت بالتعرف عليّ، كيف جلست تراقبني ثم تقدمت نحوي؛ وجلست أمامي وقلت لي «أريد التعرف عليكِ!؟».

– «حسنًا أنا أسف، سأنصرف» همَّ واقفًا وانفجرت لوسيندا بالضحك، وأشارت له بيدها أن يجلس فانصاغ لأمرها: «أنا فقط أمزح، حسنا.. أنا لوسيندا» مدت يدها نحوه تصافحه.

توقف الجميع عن الكلام حينما دخل الطبيب، رافعًا سترته الشتوية فوق كتفه، رمى بها على ظهر الكرسي؛ وجلس أمامهم: «يوم جيد هذه المرة، أراكم تضحكون».

تبادلوا الضحك، فيما عدا كريم، كانت جلسة عادية لم يطرح بها الكثير من المشاكل، انتهت بعد ساعة واحدة - وإن كانت عادةً تتجاوز الثلاث ساعات - خلت العيادة، وبقي كريم جالسًا كما هو، سأله الطبيب: «كريم.. أهناك شيء ما؟» اضطر لإعادة سؤاله بنبرة أعلى لعدم انتباه الأخير.

– «لا، لا يوجد شيء، أود فقط التحدث معك قليلًا».

– «لم تتحدث بالجلسة تقريبًا، لم أسمع صوتك».

– «لا أود الحديث أمام أحد، لذا انتظرت للآن».

– «حسنًا، قل ما يشغلك؟».

قال بعد بُرهة صمت: «إنها لوسيندا، سمعت من صديق لي أنها كانت داخل سيارة مع شخص آخر، لا أعرف ما الذي يفترض بي فعله الآن!».

– «إن الأمر بسيط، حادثها، أخبرها بما رأيت، لا داعي لسوء الظن».

– «لأنني أحبها فهناك دائمًا مساحة داخلي لسوء الظن».

- «نعـــم، هذا صحيح، فأمام كل شـــيء ما يوازيه مـــن نقيضه، ولكن عليـــك أن تتجنب النبش بالشـــك كي لا تهلك».

- «لم أستطع تجنب هذا، فتجاهل الألم مؤلم! كما أن أكثر ما يزعجني بالأمر أنه لا يحق لي قول شيء، فنحن أصدقاء، لا يحق لي التدخل فيما لا يعنيني».

- «إذن لا تكونـــوا أصدقاء.. أخبرها بحبك يا كريم، كي يحق لك التدخل وقطع الشك باليقين».

- «ليس الأمر بالسهل يا دكتور».

- «إنه سهل، أنت فقط لن تراه كذلك، هذا لأنك لا تريده هكذا».

- «دكتور، أنا بحاجة للابتعاد عنها نهائيًا، أحتاج للعلاج منها».

- «علاج الحب الكره، حاول قلب الآية».

- «من يحب لا يكره!».

- «من يستطع أن يحب يستطيع أن يكره بقدر حبه».

قفـــز الطبيب من على مقعده؛ والتقط ســـترته ولبســـها ثم قال له: «هاتفها اليوم، وحـــدد موقفك إن كنت فعلًا تكرهها لأفعالها أم تحبها رغم أفعالها.. ولكن قبل كل شـــيء، تأكـــد من كون ما سمعته عنها صحيحًا، وتذكر دائمًا، عليك أن تتجنب النبش بالشك كي لا تهلك».

«سأتذكر!».

لم يستطع كريم العودة مباشرة لغرفته، وبدلًا من ذلك جلس على الكورنيش، يتأمل الأمـــواج المتضاربة، المتســـابقة لنهايتها على الرمال، فمهما بدت قوية وســـريعة ومندفعة ينتهي بهـــا الحال متفرقة ومنتهية

فوق الرمال، فكر فيما قاله الطبيب؛ وقرر تأجيل القرار لبضع ســـاعات، رُبما لأنه لم يرد أن ينتهي الآن فوق رمال لوســـيندا.

لم يشـــعر بمرور الوقت إلا بعد مرور ســـاعة ونصف، تبددت أفكاره في الهواء، فبدا خاويًا، أغنية (لوسيندا) لفرقة (The Knack) تطن برأسه:

لوسيندا ستقوم بتمزيقك.

لوسيندا ستجعلك تبكي.

لقد كانت موجودة ولا تسألني كيف!

هي عليها أن تجرحك.. عليها أن تجرحك.. أن تجرحك!

هز رأسه محاولًا طرد الأغنية، وأخرج هاتفه وطلب رقمها..

لوسيندا ستقوم بتمزيقك.

استمع لرنين الهاتف ومازالت الأغنية تُعزف برأسه..

لوسيندا ستجعلك تبكي.

أجابته؛ فأغمض عينيه وقال لها: «لوسيندا، أنا أتعذب وأنتِ لا تدركين ذلك.. لسنا أصدقاء كما تظنين، فأنا أحبك وأحبك جدًا، وأنا آسف جدًا، ولكن لابد أن ينسى كل منا الآخر.. أنتِ لا تدركين كم أتألم، أنا لم أخبرك، ولكن كان عليكِ أن تشعري بذلك على الأقل.. أنا أحترق، لذا علينا أن نبتعد.. أنا أسف، أريد أن نبتعد..».

– «ممم.. أوكيه».

أصابته الإجابة بالفزع، فتح عينيه وتبدد كل شيء من حوله لثواني، قبل أن يستعيد توازنه: «لوسيندا!».

لم تستجب عبر الهاتف وسمع صوت طرق جرس بابها، فثبت السماعة على أذنيه، وبدأ يستمع لِمَ يحدث على الجهة المقابلة..

لقد كانت موجودة ولا تسألني كيف!

هي عليها أن تجرحك.. عليها أن تجرحك.. أن تجرحك!

## (يونس)

*هناك من خُلق ليوشم داخلنا، ولا سبيل للخلاص.*

فرك أصابعه، وتنهد بلحظة شـــك مما يفعله للتو، سأل نفسه: هل أنا على الطريق الصحيح؟ بعد ثوان فتحت لوسيندا الباب، كانت تقف أمامه بفســـتان أحمر قصير، كشف عن ساقيها، أســـندت قامتها على الباب؛ وابتسمت، قالت له: «تفضل».

دخل يونس مترددًا، التفت حوله قبل ان يســـألها: «هل تعيشـــين هنا وحدك؟».

– «نعم، لا أحد هنا غيرنا».

انتكست نظرته وزم شفتيه، سمع صوت غلق الباب، ابتسمت لوسيندا وقالت: «اجلس على الأريكة ريثما أعد لنا عصيرًا.. أيهما تفضل التفاح أم الموز؟».

– «التفاح».

انفرج ثغرها بابتسامة غريبة؛ وأردفت: «أنا أيضًا أحبه».

غابت عن ناظريه لدقائق، ثم عادت بكوبين من عصير التفاح، وضعتهما على المنضدة، ارتشـــف يونس القليل من كوبـــه، وقال لها: «اسمعيني يا لوسيندا، هناك العديد من الأشياء الغريبة التي تحدث لي.. تحديدًا مُنذ رأيتك لأول مرة».

– «ما الذي يحدث يا يونس؟».

تـــردد قليلًا ثم قال: «أســـتيقظ كل يوم لأرى بجـــواري جثث موتى، ولكنهم ليســـوا بموتى، أنا أعرفهم، ولكنهم بمجرد ظهورهم بجواري على السرير أنساهم، تُمســـح ذكرياتهم من رأسي، كما تُمسح من رأسهم».

مالت بظهرها للأمام تُســـند كوعيها على ركبتيها كاشفة عن شق صدرها عبر فستانها الأحمر، وأردفت: «وماذا بعد؟».

– «حدث ذلك تحديدًا بعد عيد ميلادك.. اليوم الذي رأيتك فيه لأول مرة».

– «تتخيلهم أم هم حقيقة؟».

– «لا أعرف، كل ما أعرفه أن علاقتي بالأشـــخاص تنتهي بهذا الشكل، جئت كي أطلب منكِ تفسيرًا».

– «ولِمَ أنا تحديدًا؟».

– «بدأ الأمر عندما رأيتكِ!».

نهضت من كرسيها وجلست بجواره على الأريكة: «رُبما أكون ساحرة، صحيح؟».

ضحك يونس بسخرية: «ساحرة! لا بالتأكيد، لا وجود للساحرات.. أنـــا حتى لا أعرف ما علاقتكِ بالأمر.. لقد جئت لكِ كي أحكي رُبما أحتاج للحديث فقط لا أكثر».

– «لِمَ تُحب التفاح عن الموز؟».

– «لان طعمه أفضل من الموز!».

- «يُقال بأن شـــجرة تفـــاح قد أخرجت آدم من الجنـــة، وما زلت تُحب التفاح بعـــد هذه الحقيقة؟».

- «مغالطة.. فلم يُحدد نوع الثمار بالشجرة».

- «إذن فينبغـــي عليك أن تكره كل الثمار، فلـــولا أحدها لكنت الآن بالجنة ونعيمها».

- «وما شأن هذا بما أحدثكِ عنه؟!».

- «رُبما تأكل الثمرة التي أخرجت آدم من الجنة يوميًا، تســـتمد منها حياتك في حين إنها كانت الســـبب الأول لشقائك، ألم تفكر بهذا المنطق من قبل؟».

- «...».

- «إنها فرصتك لكي تُشـــكل علاقات جديدة، وتنســـى القديمة، لقد أخرجتـــك الجثث مـــن علاقاتك بكل انســـيابية، والآن عليك أن تستغلها في تشـــكيل علاقات جديدة».

حدق بها يونس للحظات ثم ســـألها: «ما الـــذي تقصدينه؟ وكيف ترين الأمر منطقيًا بهذا الشـــكل؟».

اقتربت منه حتى شـــعر بأنفاسها، ثم همست: «لأنني أعلم كل شيء» لثمت شفتيه، فيما تســـارعت أنفاســـه فدفعها بعيدًا عنه، ووقف قائلًا: «لوسيندا، لا أريد فعل هذا».

- «لقـــد رغبت في ذلك دائمًا، مُنذ أول لقـــاء بيننا، أتظن أنني لم أقرأ عينيك، الكلمات بين الســـطور.. مُنذ مقابلتي لك.. إنه الشـــيء الوحيـــد الذي ترغب به أكثر من أي شـــيء آخر الليلة».

– «أنا فقط لا أريد.. سأرحل».

مد خطواته ناحية الباب فأوقفته حين قالت: «لا أحد يرفضني».

التفت لها ليجدها جالسة على الأريكة بارتياحيه، وقال: «لوسيندا، أرجوكِ.. لن أتحمل ذنب خيانتي لنور أو كريم».

– «إن رحلت الآن ستواجه الأسوأ، ستنسى نور بالغد إن لم تمكث هنا الليلة».

– حدق بعينها وسألها مُنفعلًا: «من أنتِ؟!».

– «لوسيندا.. التي لا يرفضها أحد».

خرج من منزلها مُسرعًا، كاد أن يتعثر مرتين أثناء نزوله الدرج، وسرعان ما وجد نفسه بالشارع، استقل تاكسي للفندق، وعلى الباب وجد ياسر جالسًا بجوار موظف الاستقبال: ـ ـ ـ «يونس!».

– «سيدي أسف على إزعاجك، أود المكوث بالفندق يومًا أو اثنين».

– «ما الذي يحدث لكَ يا بُني؟».

– «لا شيء، أود فقط المكوث ليومين».

نظر ياسر لوجه يونس الشاحب، وتابع أنفاسه المتهدجة: «حسنًا كما تشاء، ولكن أأنت بخير؟».

– «نعم بخير».

أعطاه مفتاح الغرفة التي مكث بها سابقًا، جلس يونس على سريرها يراقب الصور على اللاب توب الخاص به، يحاول حفظ ملامح نور جيدًا، يوشمها بعقله، بات متيقنًا أنه لن يراها مُجددًا...

بالصباح، أرسل لها رسالة نصية على هاتفها: «نور.. أرجوكِ لا تمسحي الصور التي تجمعنا ببعض.. أرجوكِ!».

تفحص موقع فيس بوك يبحث عن لوسيندا، ولكنه لم يجد لها أثرًا، وكأنها لم تكن.

بقي مستيقظًا طوال الليل، بين أشباح خوفه وقلقه، ضم ركبتيه بين ذراعيه وبكى، ولم يخرج من حالته إلا عندما بدأ يخط فصلًا جديدًا بروايته، أملًا في أن يخرج من حالته بالكتابة:

# «رواية السكير»

(٥)

ركبت (تاكســـي) بجوفه سائق ذي كرش مُمتد أمامه، وفم لا يكُف عن الحديث، واتجهت لشـــقتي الثانية؛ دلفت باب المنزل، وجلســـت على الأريكـــة أفكر فيما قاله ذلك المجنون مُحدقًا في صورة (ليلى)، ســـاكنة الإطار على الحائط، الكؤوس الســـبع تتراقص أمامي تبحث عمن يملأها بالشراب..

لكل منا وهمه الذي يعشـــقه.. والذي لـــن يتخلى عنه.. وكل منا يتمنـــى أن يتحول وهمه لحقيقة ملموســـة ذات رائحة مُميزة، ولكنه لن يســـعى لتحقيقه؛ لاقتناعه الكامل أنه مُجـــرد (وهم)، ولأن للوهم طعمًا أخرًا مُميزًا، ربما سيفســـد طعمه إذا تحقق، وربما تتحول رائحته المُميزة لرائحة اعتيادية.

ما هو الواقع من الأســـاس: مُجرد صور تبث لك حقيقة وجود شيء ما!

أما الوهم فهو الحقيقة بذاتها ولكن أنت من تبث صورها!

ماذا لو كانت (ليلى) حقيقة الآن ولم تتحول لوهم، ربما سأمل منها سريعًا.. للوهم سحر التمسك به، أما الحقيقة فهي سريعة الذوبان.

قبل أن تمـــوت (ليلى) مُنتحرة، وتتحول لوهم، كُنت أعشـــق رؤيتها وكأن عينـــاي خُلقت لتراها.. كان الملل لا يخـــترق حديثنا، وربما لم يخـــترق الحديث من جانبي فقط! لا أذكـــر أنها قالت لي كلمة واحدة تروى ظمأ مشـــاعري التي لا ترى سواها..

لماذا انتحرت؟ بحثت عن الإجابة كثيرًا ولم أجدها..

رُبما انتحرت لتصبح لعنتي، أو نعمتي!

كانت تعشق تلك الأسوار التي بنتها حولها، وكأن الكتمان خُلق لها، كانت دائمًا ما تتركني في مُفترق طرق: أبكى فتبكي وتضحك؟

سعيدة الآن أم تعيسة؟

أهذه دموع فرح أم حُزن؟

كان التعامل معها كتفكيك القنابل.. الخطأ الأول هو الأخير!

لقد انتحرت لسبب أجهله أو على عِلم به (مفترق طرق)، ولكن هل فكرت قبل أن تنتحر ماذا سأفعل؟.. أنانية التفكير بلا شك.. خمس سنوات مُذ أن التقينا حتى يوم انتحارها.. كُنت أغمرها بكلمات لم أنتظر ردها.. بعض الكلمات تتسلل للأذان؛ ثم تعبر لتسكن الروح بلا طلب مسبق ولكنها لم تعبر لروحها!.. هل كان لديها روح؟

كُنت حريصًا على ملء أذانها بتلك الكلمات؛ حتى تمتلئ روحها بالحروف.. وظلت روحي فارغة!

الكؤوس تتراقص أمامي وزجاجاتي جاهزة لتفريغ محتوياتها..

تتقلص مُدة ظهور (ليلى) كلما أعتاد جسدي على الشراب.. وإن لم أشرب لن تظهر!

احتياجي الآن لها أكثر من ذي قبل.. وهذا يكفي.

صببت كؤوس العجائب السبع .. وشربتها بنفس الترتيب.. ولكنها لم تظهر هذه المرة، كانت المرة الأولى التي لا تستجيب فيها (ليلى) لكؤوس العجائب السبع.. شعرت برغبة في البكاء ولكنى فقدت القدرة على

البكاء مُنذ فترة طويلة ولا أعلم السبب.. كيف كُنت أبكى قبل تلك الفترة؟.. لا أعلم .

***

أنتهى من الكتابة هنا، وأنغمس بغفوة لا تتجوز العشر دقائق؛ ليستيقظ بجوار جثة جديدة، فتح اللاب توب وحدق بالصورة التي كُتب عليها (نور) ليتحقق مما قالته لوسيندا.. لقد رحلت نور من حياته ولا سبيل للعودة.

## (نور)

*لم أستطع التخلص من شعوري بلّون شيء، ما ناقص!*

قبل أن تنام، قرأت نور رسالة يونس عدة مرات، ولم يتحرك شيء بداخلها تجاهه، تحجرت مشاعرها، وبحثت عن الصور التي تجمعها به ومسحتها كلها، ثم مسحت الرسائل بينهما، ثم رقمه، وتخلصت من صورهما الفوتوغرافية المطبوعة، والهدايا الصغيرة التي أهداها لها يومًا. لم تترك شيئًا واحدًا يدل على وجوده يومًا ما بحياتها، تزداد المرأة قوة حين تقرر النسيان؛ ولكنها في المقابل تضل سبيلها.

بالصباح تبخر تمامًا من ذاكرتها، فلم تعد تذكر وجهه، بدا مُبهمًا برأسها، ضبابيًا، لم تشعر بالراحة حينها، وبدلًا من ذلك كافحت في معركة لتتذكر أي شيء يربطها به، بحثت عن صوره بهاتفها وحاسوبها ولم تجد شيئًا، لعنت نفسها مئات المرات على قرارها بالأمس.

بعد يومين هاتفها حسن وطلب منها اللقاء فاستجابت، وقصدا مقهى قريب من منزلها، كانت نور شاردة بلوحة للموناليزا مُعلقة على الحائط بالمقهى، نظر حسن للصورة ثم قال لها: «هل تُحبين تلك اللوحة؟».

- نقلت مقلتاها له وأجابته: «نعم، إنها جميلة، من الغريب أن يُعلق مقهى صورة كهذه».

- «يُقال بأنها ليست الصورة الحقيقة التي رسمها دافنشي».

- «وأين الحقيقة إذن؟».

- «قرأت اسم مكانها الحقيقي سابقًا ولكنني لا أذكر، لم يرسم دافنشي تلك الصورة، الموناليزا الأصلية أصغر سنًا من هذه».

- «كانت حبيبته صحيح؟».

- «لا، كان دافنشي شاذًا جنسيًا».

- حدقت به ضاحكة فقال لها: «لقد سمعت هذا فحسب، ربما إنها الحقيقة!».

- «إذن مَنْ هي الموناليزا؟».

- «التقاها ليوناردو دافنشي لأول مرة حين كانت بالرابعة والعشرين من عمرها، كانت متزوجة من رجل يكبرها بعشرين عامًا، يدعى جيوكوندو، يقال بأنها فقدت طفلًا لها حين رسمها دافنشي، إذ كافح زوجها كي يجعلها تبتسم أثناء الجلسات الأولى لرسمها.. لقد استأجر مهرجين وموسيقيين لإضحاكها.. أتتخيلين ذلك؟».

- «إذن مَنْ المعلقة على الحائط هناك؟».

- «ليست الحقيقية، فلقد أهدى دافنشي اللوحة لزوجها مقابل عمولة، كما أن الأصلية كانت تحمل خلفية غير مكتملة، أما هذه التي بمتحف اللوفر فهي ليست المرأة الحقيقة، انظري لوجهها.. ليس وجه لامرأة بالرابعة والعشرين».

ابتسمت بمرارة وأردفت: «ربما تكون الحقيقة، الحُزن والفقد يجعلانا نكبر سريعًا».

صمتا لدقائق احتسى خلالها حسن كوب الشاي أمامه، حامت أصابع نور حول فهوة فنجان قهوتها، وقالت بدون مقدمات: «أنا لا أتذكر كيف كان يونس».

- «تقولين بأنك لا تتذكرينه؟».

- «لم أنساه، ولكنني لم أعد أذكر ملامحه».

- «هذا يبدو غريبًا، كيف تذكرينه ولا تتذكري ملامحه؟».

- «لا أعرف، شيء ما ناقص بالصورة.. شيء ما ناقص داخلي».

- «لا أحد كامل».

مالت برأسها للأمام، سقطت خصلتان من شعرها أمام وجهها، فأعادتهما خلف رأسها: «لقد تبدلت خلال أيام، لم أعد كما كنت، لِمَ غاب عني؟».

- «لم يغب، رُبما لأنه لم يكن يومًا موجودًا من الأساس».

- «لم يكن... يونس وهم!!».

- «لم أقصد أنه وهم، أقصد أن وجوده كان سطحيًا.. لقد رحل فجأة».

نظرت لعينيه مباشرة؛ فأكمل: «ما من مُحب يرحل، مَنْ يرحل لم يذق الحب.. وأنا لم أرحل». قال جملته الأخيرة بصوت منخفض ولهجة مرتعشة.

ابتسمت نور: «أنا مُتعبة، سأعود للمنزل».

– «نور.. أرجوكِ.. عودي للعزف، الموسيقى تشتاق لكِ، فالموسيقى دائمًا أوفى من عازفيها».

وقفت أمام الأورغ المُحطم، تتأمل أصابعه المُهشمة والأسلاك المتناثرة منه، كانت بعض الأصابع مازالت في أماكنها، ولم تتأثر من ضربها باللوح الخشبي، أوصلت القابس، وضغطت بإصبعها على أصبع الصول بالأورغ، فصدر صوته مرتعشًا وكأنه يلومها على ما فعلته.

## (كريم)

*رُبما ظللتُ تركض طوال حياتك بالطريق المعاكس!*

«خذ ما طلبت».

دس الكيس بيده، فحشره الأخير بجيب سترته، وأخرج المال من جيب بنطاله ودسه بيد الأخر: «تمام؟».

نظر للمال نظرة خاطفة: «لا مشكلة» أدار الرجل وجهه ورحل.

أصابع كريم تُعاين الكمية داخل الكيس بجيبه، بدأت السماء تهطل بقطرات بسيطة تكاد تُلاحظ، رفع كريم رأسه للسماء، فسقطت قطرتان على وجهه، وقال في نفسه: أخبرني إن كان ما يحدث صحيحًا أم لا؟ أحتاج إلى علامات، ألم يقولوا عنك أنك تُرسل للناس علامات تُرشدهم.. ها أنا أقف الآن بانتظار علامة واحدة!

زاد المطر من حدته، فاحتمى تحت لافتة محل مغلق، ينقل ناظره بين السماء والأسفلت، أغنية لوسيندا تُعزف داخل رأسه بلا توقف، وكأنها لعنة تطارده، فكر كم أن للموسيقى جانب سيء، مرت برأسه المحادثة التي دارت بين يونس ولوسيندا، والتي استمع لها من أولها لآخرها عبر الهاتف، طلب لوسيندا من يونس بالنوم معه، كم كان يكرهها حينها ويُحبها بقدر كرهه.

نقل ناظره للسماء مرة أخرى، وأردف بصوت مسموع: «ألن ترشدني؟!». نظر له عابر بالطريق ثم التفت لطريقه.

- هاتف مالك: «أتستطيع توفير شقة لي اليوم؟، أحتاج للمبيت».
- «أهناك شيء ما؟».
- «لن أستطيع المكوث بمنزلي اليوم، هل لديك أم ماذا؟».
- «تستطيع المبيت بالشقة التي نستعملها في تسجيل الأغاني، ولكن الليلة فقط».
- «الليلة فقط، موافق».
- «تعال وسأقودك للشقة الآن».

كانت الشقة بالطابق الأرضي بالبناية التي يسكن بها مالك، مُتربة ومُهملة، جلس كريم على الأريكة فيما قذف مالك بالمفتاح له، فالتقته الأخير عبر الهواء، وقال مالك: «بالصباح يجب أن تكون الشقة فارغة، لا توقعني في مشكلة».

- «سأغادر فور رؤيتي للشمس».
- «هذا جيد» رحل وأغلق الباب خلفه.

أحضر كريم طاولة قصيرة، نفض الغبار عنها، ووضع فوقها ورقة بيضاء التقطها من مكان ما بالشقة، وفرش عليها جرعة الهيروين التي بالكيس الصغير، وأحضر ورقة أخرى برمها على شكل ماصة، رتب سطرين من الهيروين واستنشق بلا فاصل، وسرعان ما بدأ جسده يرتخي وعيناه تدمعان، وأنفه تسيل، أغلق عيناه ورمى برأسه على الأريكة.

بعد ســـاعتين بدأ العالم من حوله يســـتعيد اتزانه، وإن لم يكن بشكل كامل، كان جســـده متراخيًا إلا من بعض القوى التي دبت فيه، فغسل وجهه ورمى الأوراق والكيس الفارغ في القمامة، خرج للشـــارع وبدأ يسير هائمًا بطيئًا، شعر بأن الحياة حوله تُسرع خطواتها عنه، وأنه لن يلحقها وإن ظل يركض، ســـاوره شـــعور آخر بكونه يركض ولا يصل، وكأن ما يركض لأجله يتنافر معه كالأقطاب المتشـــابهة للمغناطيس.

فتح باب شـــقته بالمفتاح المعدني بعد البحث عنه لفترة بجيبه، أصدر الباب صريرًا مزعجًا، وحين أوصده خلفه والتفت كانت أمه تقف أمامه مباشرة: «أين كنت؟».

لم يُجب وبدلًا مـــن ذلك حدق بها بعينين ناعســـتين، فأعادت طرح السؤال.

- «هل أصبحنا أسرة الآن؟» أجاب السؤال بسؤال.

- «أين كنت.. أجبني!».

- «لا يحق لكِ السؤال.. فلسنا أسرة».

- «لقد عدت لذلك السُم أليس كذلك؟».

مسح أنفه بأصابعه..

- «هـــذا واضح عليك، لقد عُدت للســـم.. عاد ابـــني لتعاطي القرف مُجددًا.. منك لله» بدأت عيناها تدمع ونبرة صوتها تختنق، جلست على الكرســـي واضعة رأسها بين كفيها.

اقترب منها كريم، وربت على رأسها فنفرت منه، ونظرت له باشمئزاز، وأردفـــت: «كنـــت أعلم أنك لم تُقلـــع عنه.. مُنذ رأيـــت ذلك الكيس بغرفتك».

- «كنت بالفعل قد أقلعت عنه.. عن أي كيس تتحدثين؟».

- «هذا» أشـــارت للمنضدة التي مكث فوقها كيـــس صغير بُني اللون، أكملت: «وجدته بغرفتك مُنذ شـــهر.. شهر كامل وأنت تتعاطى ذلـــك القرف، وتكذب عليّ.. لِمَ لم تكن كوالدك، ما الذي فعلته أنا كي أبتلي بك؟!»

ضحك بملء شـــدقيه، وكاد يفقد اتزانه ويسقط، تماسك واستند على الحائط، وبعينين تكاد تنغلقان قال لها: «أهذا ما غير تعاملكِ معي كل تلك الفترة؟».

- «ليتك تُشبه والدك في شيء».

- «ليتني أشببه، أنا بالفعل أشببه؛ هذا الكيس الذي وجدتيه يعود له.. إنـــه ملكه، لقد وجدته بجواره في اليوم الذي مات فيه، كان يتعاطى الهيروين هو الآخر، ولكنه لم يُخبر أحدًا.. أتعرفين، بدأت تعاطي ما تسميه قرف لأجرب كيف كان والدي يشعر.

ليتك مثل والدك.. ليتك مثل والدك.. أنا مثله تمامًا، أنتِ الغريبة الوحيدة هنا!». صرخ أثناء تلفظه بالجملة الأخيرة، فاقتربت منه بهدوء وصفعته على وجهه!

- «إيـــاك أن تتحدث عن والدك هكذا.. أخرج من هنا ولا تعد إلا وأنت مقلع عن ذاك القرف».

تحســـس موضع الأصابع على خده وزم شفتيه، ركل الكرسي بجواره ورحل.

أمضى ما تبقى من الليل على أحد المقاهي القريبة من المنزل، احتسى القهوة مرتين، وعندما أشـــرقت الشـــمس عاد للمنـــزل فوجد أمه كما

كانت بالمساء، اقترب منها وهمس: «أنا آسف يا أمي، سأصلح كل شيء».

- «هل كان والدك بالفعل يتعاطى؟».

- «إنها الحقيقة».

بدأت تبكي وأردفت: «كريم.. لا أريد أن أخسـرك مرة أخرى.. لقد خسرت الكثير سـابقًا، ولم أعد أقوى على خسارة أخرى».

- «سأصلح كل شيء يا أمي» ضمته لصدرها؛ فأغمض عينيه وقال في نفسه: سأقتل لوسيندا!

# -١١-

«كنت وقعت مثل ولد، ما طال القمر ولا قلبي ببطالك»

أغنية: (لو أنى) رشا رزق - ٢٠١٧

هاتفتني أروى، وقالت لي إن هناك أشياء كثيرة قد اتضحت لها بعد الانتهاء من قراءة الرواية، أشياء ستعني لي الكثير، كما أخبرتني أنها للتو انتهت من كتابة تقرير يحتوي على بعض النقاط المهمة عن الرواية، وعن يونس سلامة بالأخص، وأنها ستستعمله في إنشاء ملف خاص به، ليكون أول موضوع تتناوله في مشوارها الصحفي، قالت: «مراد، يتوجب عليك قراءة الرواية بالكامل.. ستصل لإجابة واضحة عما حدث لسلمى».

- «لا أريد إجابات، أنا راضٍ بما حدث حتى الآن، لقد تقبلتني ياسمين أخيرًا، وقد توددت علاقتنا كثيرًا في الآونة الأخيرة».

ظهرت سلمى مُجددًا، هذه المرة كانت تجلس أمام بيانو متوسط الحجم، لا أعلم من أين ظهر، كانت تعزف بلا نغمات، فقط أصابعها تنقر المفاتيح بانسيابية ونعومة «ستجد الإجابة التي بحثت عنها» قالت أروى عبر الهاتف.

اقتربت من البيانو، لامســـته فتخللته أصابعي، إنه الوهم مرة أخرى، الوهم الذي بات يطاردني مُنذ بداية الأحداث، إن الطريق الأمثل للتعامل مع الوهم تجاهله، ابتعدت عن البيانو وســـلمى، وجلســـت على أريكتي، «أخبريني عما اكتشفتِه» قلت لأروى.

- «يجب أن تعرفه بنفســـك، سأقابلك لإعطائك الرواية كي تكمل قراءتها».

- «ربما فيما بعد.. لدي شيء هام على إنجازه الليلة».

- «هل يمكنني معرفته؟».

- «سأسجل اسم ياسمين في برنامج ليتل ستارز، أعتقد إنها أنسب هدية لها في عيد ميلادها القادم».

- «هذا رائع، هل اتقنت العزف على الكمان؟».

- «نعم.. لقد تعلمت بسرعة قياسية».

- «إنها فتاة رائعة».

***

في الخامســـة وقفت أمام مرآة الحمام، وأزلت شاربي بالكامل، كانت تلك رغبة ياسمين التي تجاهلتها لأســـابيع.. دق حســـام جرس منزلي، اســـتقبلته وصنعت كوبين من الشاي لكلينا، قال لي إن سبب الزيارة هو الاطمئنـــان عليّ؛ خصوصًا بعد الارتباكات الـــتي أمر بها في العمل من غياب متكرر، وقلة تركيز أثناء مزاولتـــه، تناول الكوب بين كفيه وقال لي: «هل تذكر ذلـــك الرجل الذي قُتل أمام الحانة؟».

- «نعم يونس سلامة» أجبته.

- «هل سمعت عن أخر التطورات المتعلقة فيما حدث له؟».

- «ما الذي سيحدث له أكثر من الموت؟» قلت ضاحكًا.

- «لا.. لا أقصده، أقصد الفتاة التي صدمته بالسيارة».

عقدت حاجبي وقلت: «لا أذكر اسمها ولكن ماذا حدث؟».

- «هديل خالد.. الفتاة التي صدمته، اختفت فجأة، بحثت الشرطة عنها، واكتشفت أن هناك فتاة أخرى تحمل نفس الاسم، ولكن لا علاقة لها بالأمر».

- حككت رأسي: «لا أفهم».

- «هناك فتاة انتحلت شخصيتها وقتلت يونس ثم اختفت» أطلق صافرة بالهواء، وأكمل: «تبخرت!».

- «هذا غريب».

- «لا تهتم لقد كان يومًا عصيبًا على أي حال، يتوجب علينا نسيانه» حدق بي ثواني ثم أردف: «بِك شيء مختلف.. آه شاربك! أين ذهب؟».

- ضحكت: «إنها رغبة ابنتي، فهي لا تحبه».

- «تبدو الآن كالأطفال يا صديقي».

- «كل الرجال أطفال كِبار.. ألست محقًا؟».

***

في التاسعة والنصف كنت قد انهيت إجراءات اشتراك ياسمين ببرنامج ليتل ستارز، كانت الإجراءات سهلة ويسيرة، كما قال لي المسؤول عن

التسجيل موضحًا ذلك: «لم يعد الأطفال يقبلون على البرنامج فقد تغيرت ميولهم مؤخرًا.. لذا ففرصة الاشتراك في البرنامج قد زادت للضعف مؤخرًا» اتفقنا على ظهورها يوم عيد ميلادها، أي بعد أسبوع واحد من الآن، ثم توجهت بأوراق المشاركة لمنزل سمير، قبلتني ياسمين عندما أخبرتها عما فعلت، وقبلتني مرة أخرى عندما لاحظت أنني قد تخلصت من شاربي.. كان يومًا رائعًا.

***

في اليوم التالي، قابلت أروى صباحًا، أطلعتني على التقرير المبدئي الذي كتبته عن يونس سلامة، وقد أضافت الكثير من الأشياء التي لم أكن أعرفها مطلقًا عنه، وفي وجهة نظري لم يكن لها من الضرورة في شيء، كأغانيه المفضلة والكتب التي قرآها والأفلام التي لم يمل منها. قالت موضحة تلك النقطة: «إن كان يجب على الجمهور معرفته؛ فيجب أن يعرفوا عنه أدق التفاصيل».

كتبت أيضًا إن أخر شيء قد نشره على موقع التواصل الاجتماعي «فيس بوك» قبل إغلاقه كان رابط أغنية «تسكر تبكي» لمريم صالح وموريس لوقا وتامر أبو غزالة.

كنت أعرف الأغنية ولكنها المرة الاولى التي ألحظ فيها تشابه الاغنية مع شخصية يونس.. وربما تشبهني أيضًا.

أعطتني الرواية لاستكمالها، صنعت فنجانًا من القهوة؛ وشرعت بقراءتها كلها في جلسة واحدة فور عودتي للمنزل..

# الفصل الثالث

# لكن الموتى لا يرقصون!

## (يونس)

**اللقاء الأخير دائمًا ما يأتون على غفلة منا.**

جدد إقامته بالفندق ليومين إضافيين، أمضاهما وحده داخل الغرفة، جثتان جديدتان، لا صور لهما باللاب توب، شعر بِحدة الوحدة، كانت كسكين ينخر صدره، ولو أن وجوده وعدمه تجاه كل شيء الآن سيان، حين يرحل الجميع من حولك، فما دافعك للبقاء؟!! حين يرحل الجميع ستبلعك الفراغات التي تركوها، سيمضغك غيابهم بأسنانه الكريهة.

تفحص ما كتبه بهاتفه: «مقابلة المسئولين بدار النشر للحصول على باقي مستحقاته» - «مهاتفة عمر ومقابلته» - «مروة وعلاقته القديمة بها، وعلاقتها بفريد».

ألقى نظرة على عقارب ساعة يده، الواحدة والنصف ظهرًا، ما الذي يُمكنني فعله الآن؟ سأل نفسه؛ وآل الأمر إلى أنه بحاجة ماسة لفهم ما يحدث، والتخلص منه، قالت له لوسيندا ذلك اليوم: إنها فرصته لتشكيل علاقات جديدة، وإن بدا ذلك جنونيًا فهي تظل فرصة، وإن لم يعرف سببها بعد، فقد كانت علاقاته كلها على وشك التمزق، كان

هذا هاجســـه الذي لم يســـتطع التخلص منه، وإن تظاهر بعكس ذلك، حين يبدأ الحائط بالتصـــدع فمن الأفضل التخلص منه وبناء غيره، إن دهنه بلون مختلف محاولة بائســـة لإصلاحه!

- «يونس، أترغب باحتســـاء الشـــاي معي؟». سأله ياسر من خلف باب الغُرفة.

- «لا بأس.. سأكون عندك خلال دقيقة».

- «أنا بانتظارك».

داخل غرفة الطعام بالفندق، احتسيا الشاي، كان التلفاز المُعلق على زاوية الحائط يبث إحدى الأغاني الجديدة عبر قناة للأغاني المصورة على طريقة الفيديو كليب، كان المطرب أسمر البشرة نحيف وطويل القامة ذا شـــعر قصير ومصفف بطريقة مضحكة، حيـــث إن كل خصلة تتخذ مســـارًا مختلفًا عن الأخرى، تابعه يونس وهو يتمايـــل أمام الكاميرات، وينطق بكلمات شـــبه هزلية يُضيف بين كلمة والأخرى كلمة (حبيبي) على لحن ســـخيف، أشعل سيجارة: «هل هناك معايير محددة لإذاعة هذا الهراء؟».

- أجابه ياســـر ضاحكًا: «أنت بمجتمع رأسمالي يا صديقي، بمجتمع أشـــبه بالمصنع الصدئ، لا شـــيء يخرج للنور إلا بأمر المال أو لجني المـــال.. أراهن أن تلك القناة تقبض مـــن المغني الأموال لقاء إذاعة أغنيته، الأغنية تُذاع، القناة تســـتقبل الأموال.. الجميع يســـتفيد!».

- ضحك يونس واعتصر ســـيجارته: «العالم ينجرف بســـرعة ليُشبه كتاب قصص هزلية».

- «كمجلات ميكي؟».

- «بمجلات ميكي بعض القضايا المهمة، داخل إطار كوميدي بسيط، أما ما نعيشه الآن فهو أشبه بأفلام الدرجة الثانية الأمريكية، البي موفيز الرخيصة».

- «أتختلف تلك الأفلام عن الأفلام التجارية؟».

- «نعم كثيرًا.. إنها أفلام قائمة على الكوميديا الرخيصة والجنس.. لا أعرف كيف يستمتع شخص ما بها».

- «ألا يُمكنك أن تستمتع قليلًا؟».

- ضحك يونس: «لا شيء ممتع بكل ما نمر به من عبث».

- «هل ستظل داخل غرفتك للأبد، أقترح عليك أن تأتي معي للجلسات، ستستفيد صدقني».

- «أفضل أن أنتهي من الرواية أولًا، ثم إن لدي بعض الأعمال الأخرى التي يجب أن أهتم بها.. أخبرني يا سيدي، ماذا لو استيقظت لتجد أن بعض الأشخاص القريبين منك قد تمت إزالتهم من ذاكرتك؟».

- أطرق لثواني يُفكر: «سيكون الأمر سلاحًا ذا حدين، من ناحية سيكون الأمر رائعًا لأن بعض المسؤوليات قد زالت عني، ومن ناحية أخرى ستسوء حالتي، بسبب الفراغ الذي تركوه».

عاد للغرفة بالرابعة عصرًا، وفتح ملف الرواية وبدأ يكتب الفصل الجديد بروايته:

# «رواية السكير»

(٦)

ذهبت لدوام عملي في موعدي .. كُنت أشـــعر ببعض الجوع فتناولت في الطريق بعض المخبوزات السريعة، استقبلني (خالد) قبل أن أدلف باب المحل: «فاتك يوم لا يُعوض!».

كانت رأسي ثقيلة من أثر الشراب فقررت إنهاء المحادثة قبل أن تبدأ بأخذ منعطفات أخرى:

– ربما يُعوض في يوم آخر.

لم أنتظـــر أن يضيف المزيد من الكلمـــات ودخلت المحل وقمت بارتداء الملابس الرسميـــة (اليونيفورم) وبدأت بمزاولـــة عملي.. ترتيب الملابس حسب تصنيف الماركات ونوعها، يغلب عليها تيشرتات الـــ (بولو) التي زاد الطلب عليها فـــى الفترة الأخيرة مع اقتراب فصل الربيع.

سمعت صوت يناديني.. فاستجبت بابتسامة روتينية:

– هل أعجبتك الصُحبة بالأمس؟

– كانت رائعة.

اســـتمر (علاء) بالتحدث بينما لم أسمع جيدًا ما قاله.. كُنت أومئ برأسي وأبتسم:

– ما رأيك؟

– فيما؟

– ما بك، تفتقد لتركيزك؟

– لا شيء!

ربت على كتفي وابتسم؛ ورحل بهدوء لمحت شخصًا واقفًا خارج باب المحل يُدخن الكليوباترا تحت لافتة (ممنوع التدخين) المُتدلية من سقف المول!.. كان ذلك (نادر)، خرجت له بهدوء أتصنع البرود:

– ما الذي أتى بك هنا؟

– أود إنفاذك.

– مما؟

– من الوهم الذي قد عشت به.. أنا أعرف أن (ليلى) تُشبه سجائر الـ (كليوبترا) من يعتاد عليها لا يستبدلها.

– لا أريد منك إنفاذي، اتركني لحالي..

تركتـــه وعدت لمزاولة عملي.. اختلطت أنواع الملابس فى غفوة منى، وأنا أراقب ظهور (نادر) من خلف زجاج المحل.. أمســـكت برأسي وأمسك بـــه الصداع قبل كفاي.. صارت ألوان الملابـــس صعبة التمييز، الأحمر يُشـــبه القرمزي !.. الأزرق يقترب من الســـماوي الشاحب!.. الأخضر يقترب من الأسود!

– اقترب (علاء) منى وقال: «تحتاج لإجازه اليوم.. اذهب لمنزلك».

– لِمَ؟

قُلتها وأنا أرفع حاجبي فى تعجب، ولا أســـتطيع تمييز لون بذلته أهي باللون الأسود أم البُنى؟

– تبدو مُتعبًا.. هناك عمل كثير اليوم، ولست مؤهلًا له..

***

توقـــف عند هذا الحـــد، بدا ذهنه مرهقًا إلى الحـــد الذي يمنعه من المتابعة، غادر الفندق وهام بالطرق بلا مسار مُحدد، كانت أغنية (جولين) لـــ دولي بارتون تُعزف بأذنه عن طريق سماعات الأذن، ماسحة عبث المغني الأسمر عن رأسه، شـــعر بأن الفراغ الذي تركته نور بداخله بدأ ينبض مطالبًا بها، ولكن لا سبيل للاستجابة، خطر بباله أن يستعيد الأمور من البداية، مُنذ أول شخص غاب عن ذاكرته (فريد)، ولكن كان الوصول له مستحيلًا، وعلى الصعيد الآخر للأمر كان وجه مروة مازال برأسه، مروة التي قضى ليلة داخل أحضانها بمنزل فريد بآخر سنة بالجامعة، كانت تلك الليلة هي الفاصلة في صداقتهم.

بحث عنها عبر موقع فيس بوك، وتوصل للحساب الشخصي الخاص بها، كُتب بمعلوماتها الشـــخصية أنها تعمل الآن بإحدى دور الســـينما بمحطـــة الرمل، اتخذ طريقه نحو مبني الســـينما، ووقف على الرصيف المقابل لها يراقبها، لم يحاول مراسلتها عبر فيس بوك، كان اللقاء الحي الخيار الأفضل له. كيف ســـتتذكرني؟ سأل نفسه.

كانت تقف خلف شباك التذاكر، بابتسامتها الصافية كما كانت قبل أعوام، لم يزد على ملامحها ســـوى إطار نظارة صغيرة فوق أنفها، وإن زادتها جمالًا فوق جمالها، لم يكن مريدو السينما من الكثيرين ذلك اليوم، تجمع عشرة أشخاص على الأكثر أمام المبنى، اقترب يونس ووقف أمامها فابتسمت له، وضاقت عيناها: «ما الفيلم الذي تريد مشاهدته يا أستاذ؟».

ابتسم: «ما هي الأفلام المعروضة؟» وقد تأكد أنها لم تذكره.

– «إن البو سترات أمامك مُعلقة، اختر منها ما يناسبك».

«ممم» نقل ناظريه بينها وبين البوســـترات ثم أشـــار لإحداهم: «رُبما هذا.. يبدو جيدًا».

مرت بأصابعها على إطار نظارتها: «اختيار جيد.. سيبدأ الفيلم بعد عشر دقائق»، قطعت التذكرة من حزمة التذاكر أمامها وناولتها له: «أربعون جنيهًا».

أخرج من محفظته أربعين جنيهًا وناولها لها: «شكرًا لك يا مروة».

التفت ليرحل فاستوقفته: «معذرة.. كيف تعرف اسمي؟».

- «أنا يونس.. أتذكرينني؟»، شعر ببعض الإحراج، وفكر في حال أن لم تتذكره فما الطريقة المناسبة ليُذكرها، خصوصًا وإن ما يجمعهما ببعض قد انتهى بذكرى لابد أن تُنسى».

- حدقت به للحظات وحاولت كبح ابتسامتها: «آه لقد تذكرتك.. كيف حالك؟».

- «أنا بخير، لدي شيء أود أخبارك به».

مسدت شعرها، وقالت محاولة تجنب النظر له مباشرة: «ليس بالوقت المناسب.. حسنًا، ينتهي الفيلم بعد ساعتين، وحينها ينتهي دوام عملي كذلك.. سأنتظرك هنا.. تمام؟».

«تمام!».

كانت قاعة السينما فارغة إلا من القلائل المتناثرين على المقاعد عشوائيًا، لم يتابع الفيلم باهتمام، حتى أنه تفاجأ ببعض الأحداث التي لم يتابع تمهيد الدراما لها بالبداية، ولكنه كان فيلمًا سخيفًا يُشبه أغنية المطرب الأسمر، تذكر ما قاله ياسر بالصباح: «مجتمع رأسمالي».

باستراحة الفيلم خرج للحمام تبول واشترى من قاعة الانتظار زجاجة من الكوكاكولا، شربها لحين انتهاء الفيلم، وحين انتهى صفق من بالقاعة فصفق بدوره وإن لم يعلم لماذا، قتل الوقت يتطلب مهارة السير

مع الموجة أحيانًا، خرج من القاعة وكانت مروة بانتظاره أمام المبنى: «هل أعجبك الفيلم؟».

- «اه كثيرًا».

- «أراه بشـــكل يومي، لقد مملت منه، إنها الضريبة التي تدفعها مقابل عملك بدار للســـينما.. هنالك مقهى قريب من هنا، فما رأيك؟».

- «أحتاج للقهوة.. هيا بنا».

كان المقهى مكتظًا بالرواد، جلسا على طاولة مُتطرفة بإحدى الزوايا: «تغيرتِ كثيرًا» قال لها.

- «أنت كذلك.. تغيرت» مررت أصابعها بين خصلات شعرها.

- «نتحدث عن سنوات.. تبدو النظارة عليكِ رائعة».

- «شكرًا.. تعلم ضعف النظر مشكلة».

- «ولكنها تليق بكِ».

- سعلت، وقالت له: «أصبحت روائيًا صحيح.. رأيت اسمك على رواية ســـابقًا، ولكنني كذبت نفسي، يونس ســـلامة! يا الله، كيف أصبح روائيًـــا فجأة.. لم أصدق بالبداية إلا حينمـــا رأيت صورة لك على ظهر رواية أخرى».

- ضحك: «كان الأمر سريعًا، مضى كل شيء بسرعة».

- «نعم بسرعة قصوى».

- «هل تذكرين فريد؟».

- «اه بالطبع، ما زلت أقابله من وقت لآخر».

جاء النـــادل وطلبا القهوة.. أكملت: «لم يتغـــير فريد كثيرًا، ظل كمـــا كان أيام الجامعة».

– «هل لديك صورة له؟».

أمســـكت بهاتفها وأخرجت صورة لفريد، وضعتهـــا أمام عينيه، فكان ذات الشـــخص الذي قابله سابقًا، نفس الجثة على السرير، إلا أن وجهه بذاكرته ظل ممســـوحًا: «لم يتغير كثيرًا».

– «لقد انزويت عنا فجأة.. لم نعد نعلم عنك شيئًا من وقتها».

– «مُنذ أخر لقاء جمع ثلاثتنا، شعرت بضرورة رحيلي».

– «اه.. ذلـــك اليوم!» بـــدأت الحُمرة تعلو وجنتيهـــا، ونزعت النظارة ونظفتها بمنديل ورقي وكأنها تمســـح ذكرى من رأسها، ثم أعادت تثبيتهما من جديد: «هل تزوجت؟» ســـألته في محاولة لتغيير اتجاه الحديث.

– «لا». أجابها وهز رأسه نفيًا.

– «لقد تزوجت وانفصلنا بعد سنة واحدة».

– «هذا مؤسف، ولكن لماذا؟».

– «لم يكن زواجًا ناجحًا، لم نتفق على عدة أشياء».

– «بهذه البساطة؟».

– «نعم.. إن الـــزواج يعتمد على الزوجين، وقـــد تزوجت من رجل قد تفهـــم الاختلافات بيننا، لذا وافق على الطلاق بســـرعة».

– «لا أعلم إن كان هذا جيد أم لا».

- «بالطبع هـــذا جيد، خاصةً إننا لم ننجب.. تخيل أنك تُنجب طفلًا ليستقبل العالم مع أم ذات ميول صبيانية مثلي».

ضحك، وعاد النادل بفناجين القهوة، ووضعهما أمامهما.

- «الآن أخبرني.. لِمَ أردت رؤيتي فجأة؟».

- «جئت كي أودعكِ، رُبما ننسي بعضنا ذات يوم».

- «لِمَ تقول هذا؟».

- «لأننا لا نسير على أرض ثابتة، صارت أرضنا مضطربة».

- حكت جبينها مفكرة، ثم أردفت: «أرض مضطربة!».

- «رُبما نستيقظ بالغد فلا نجد وجه بعضنا البعض بذاكرتنا».

- «لقد أمضينا أيامًا لا تُنسى، فكيف سننساها يا يونس؟».

- «إنها الحقيقة.. في يوم ما سننســـاها، تعرفين، تأتي ذكرى جديدة لتحل محلها».

- نظـــرت لفنجان قهوتها ثم قالت له: «هذا يعني أنه رُبما يكون هذا هو أخر فنجان قهوة يجمعنا؟».

- «فلنستمتع به إذن» ابتسم بمرارة، وارتشف أولى قطرات فنجانه.

- «لا لن يكون الأخير، اسمع، هناك حفلة بعد بضعة أيام، ما رأيك أن نحضرها ســـويًا سأدعو فريد أيضًا.. لنستعيد يومًا من الماضي.. ما قولك؟».

- «موافق».

أخرجت من حقيبتها ورقـــة كتبت عليها العنوان والتاريخ ووضعتها بين راحتيه، قرأ العنوان وقال في نفســـه: إنه نفس المكان الذي التقت به نور لأول مرة!

- «سأكون هناك، فرقة الأمواج.. إنها رائعة» إنها نفس الفرقة!

- «اتفقنا».

- «مروة هل يُمكننا التقاط صورة؟».

- «بالطبع». قالت مبتسمة؛ واقتربت منه فيما التقط هو صورة لكليهما عبر كاميرا هاتفه.

بالصباح، داخل الفندق كانت مروة جثة بسريره، تفحص هاتفه ورأى الصورة عدة مرات حتى تأكد من ذلك، لقد كان فنجان قهوتنا الأخير بالفعل يا مروة!

## (نور)

*لا طريقة لإصلاح الأمر إلا بإفساد أمر أخر.*

- «أستاذة نور، إن مستر أحمد بانتظارك، تفضلي».

أومأت نور، وترجلت خلف الفتى ذي الزي الخاص (اليونيفورم الأبيض) إلى داخل المكتب، كان الجالـــس على المكتب رجل بأواخر العقد الثالث، يرتـــدي بذلة زرقاء أنيقة بلا رابطة عُنق، ومن خلفه على الحائط عُلقت صورة كبيرة له مُبتســـمًا أمام مبنى المطعم، رفع ناظره لنور وأشـــار لها بالجلوس، فجلســـت الأخيرة على الكرسي المقابل للمكتب، أوصد الفتى (ذو اليونيفورم) الباب وانصرف: «نور محمد العزيزي.. كيف حالك؟».

- «بخير» ابتسمت بأدب.

- «أخبريني إذن، هل عملتي سابقًا بمجال السياحة؟».

- «في الحقيقة لا، إنها المرة الأولى».

- «فيما عملتي سابقًا إذن؟».

- «عازفة بيانو في فرقة موسيقية».

- شبك يديه: «حلو، فنانة.. كم هذا.. ماهي الكلمة المناسبة؟ شاعري».

- ضحكت نور فأكمل: «كنت أود لو أكون موسيقيًا بالصغر، وجربت العزف على الجيتار عدة مرات قبل أن أكتشف أن الوصول للنساء له طرق أقصر» ضحك بملء شدقيه فبادلته الضحك، أكمل: «كانت أيام جميلة، إذن هل تجيدين الطبخ؟».

- «ليس كثيرًا».

- «لا بأس ستتعلمين، ماذا عن الضيافة؟».

- «لا أعلم عنها شيئًا».

- «إنها أبسط من الطبخ بكثير، تبتسمين للزبائن وتنحنين لهم بأدب، «تفضل يا فندم». تقودينهم للطاولة المناسبة ثم تنسحبين بأدب».

لم تقل شيئًا، وإن بدا على وجهها التذمر.

- «أنتم الفنانون تملكون كرامة عالية، لقد تأقلمتم أن يأتي الناس لكم، لم تعتادوا خدمة الناس.. خدمة الناس هي مهنتنا، نحن نخدم الخدامين.. أخبريني لِمَ تريدين الالتحاق بالوظيفة؟».

- «أحتاج لملء أوقات الفراغ، كما أحتاج للمال».

- «إنهـــا وظيفة تحتـــاج مِنك أن تُحبيهـــا أولًا، لا تلتحقي بها للمال والفراغ».

- «...».

- «أراهن أنكِ ســـتحبينها، تعال بالغد، بالساعة التاسعة صباحًا، دوام عملك سيستمر من التاسعة وحتى السادسة، ستكونين تحت التدريب لمدة عشرة أيام، بعدها سنتحدث عن الراتب.. هل يناسبكِ هذا؟».

- «يناسبني جدًا، شكرًا جزيلًا».

هاتفت حســـن فور خروجها من المطعم وقالت لـــه إنها قد التحقت بالوظيفة، وشـــكرته لمســـاعدته على التواصل مع المطعـــم، قال لها: «لا تشـــكريني، تســـتحقين ما هو أكثر من ذلك».

- «أنت أفضل صديق لي، أحبك جدًا».

- تلعثم: «أنا أيضًا.. أحبك.. ما رأيك، هل نحتفل؟».

- «نحتفل بالطبع».

- «بالمقهى الذي اعتدناه الآن؟».

- «سأكون هناك.. أنا بالطريق».

اجتازت الشوارع تقفز عابرةً بِرك الماء، التي خلفها مطر الليلة السابقة كطفلة بالخامســـة، ترتدي حذاءً جديدًا، ذاك الفـــرح الطفولي الذي يســـتفيق حينما ينتهي المرء من أداء اختبار حتى وإن كان بســـيطًا ولا يستحق، انســـابت بين المارة تتفاداهم وإن كانت خطواتها بطيئة بعض الشـــيء، فلم تشاء أن تستقل وســـيلة مواصلات، بل فضلت المشي، حتى وصلت للمقهى، كان حسن جالسًا على طاولة مستديرة يحدق بهاتفه،

حـــين رأته نور ترجلت نحـــوه إلا أن فتاة ذات قوام نحيل وبشـــرة سمراء اســـتوقفتها على باب المقهى: «يا آنسة».

– استدارت لها نور: «هل تقصدينني؟».

ابتسمت لها الفتاة فظهرت أســـنانها البيضاء ومدت يدها لها بورقة، التقطتهـــا الأخرى، فقالـــت الفتاة: «هناك حفل خـــلال أيام، نتمنى أن تُشرفينا».

– قرأت نور الورقة ثم أردفت: «إنه حفل لفرقة الأمواج!».

– «نعـــم، تقـــوم الفرقة بعدة حفلات خـــلال هذه الفترة من الســـنة، ستســـتمتعين كثيرًا».

– «أعـــرف تلك الفرقة.. لقد حضرت لهم حفل ســـابقة، كان ذلك مُنذ سنوات».

هبطت لرأســـها أحداث الحفل التي قابلت فيـــه يونس للمرة الأولى، ظهور وجهه بصورة ضبابية ومشـــاعرها المضطربـــة تجاهه جعلت منها ذكرى منقوصـــة، أغمضت عينيها وفركـــت جبينها بأصابعها.

– «يا أنسة هل انتِ بخير؟» قالت الفتاة وشُدت ملامح وجهها بقلق.

أومأت برأسها إماءة خفيفة، ثم رفعتها تجاه الفتاة.

– «يبدو عليكِ الإعياء» شـــعرت الفتاة بشـــيء من الحـــرج لتدخلها فأكملت: «حســـنًا.. ارتاحي قليلًا وأتمنى أن أراكِ بالحفل» وغابت عن ناظرها.

قرأت الورقة مرة أخرى ثم طوتها وحشـــرتها بحقيبتها، ودارت بعينيها بأرجـــاء المقهى، وكأنها لم تر حســـن قط جالسًـــا، وحين اكتشـــفت

وجوده تقدمت نحوه وجلست قبالته بهدوء: «آسفة لقد تأخرت قليلًا».

- «لا، لم تتأخري قط.. مبارك» قالها مُبتسمًا وأنزل الهاتف على الطاولة، وحرك كوبًا زجاجيًا فارغًا لركن آخر بالطاولة.

- «الله يبارك فيك.. أنا سعيدة للغاية».

نظف حنجرته ورفع كفه أمامه، وكأنه على وشك شرح مسألة حسابية: «حسنًا إنها مناسبة مدهشة، لقد التحقتِ بوظيفة جديدة، لم تضحكي مُنذ زمن بعيد، لم أعد أذكر أخر مرة ابتسمتِ فيها، ألم يحن الوقت لتعودي للموسيقى؟».

- «الحقيقة إنني وبالأمس قد عزفت مقطوعة ارتجالية صغيرة على الأورغ.. أقصد ما تبقى من الأورغ، ماتزال بعض الأصابع تعمل حتى بعد كسر معظمه».

- لامس إطار نظارته: «نعم.. هذا ما أريد، هذا رائع».

ابتسمت وحدقت لثانية بالكوب الفارغ ثم رفعت عينيها صوب عينيه: «أنت السبب، في الحقيقة لقد كنت بجواري طوال تلك الظلمة.. شكرًا لك».

- «إذن فقد حان وقت عودتكِ للفرقة، صحيح؟».

- «رُبما بعد أيام.. ليس بالوقت الراهن».

طلبا كاسين من عصير الليمون المُثلج من النادل، الذي دون ما طُلب منه بدفتر صغير، وانصرف.

- «لم أركِ تُدخنين مُنذ فترة.. هل توقفتِ عن التدخين؟».

- «توقفت عن القلق، أيامي تسير نحو الاستقرار نوعًا ما».

كانت تكـــذب، فقد أثارت دعوة الحفلة في نفســـها القلق، بالإضافة لإحساســـها بفراغ ذكرى ما من رأســـها رغم وجودها، كان الأمر أشبه بكوب المـــاء الفارغ أمامها، فرغم وجـــوده إلا أن النفع منه لا يكتمل.

حمل حســـن من تحت الطاولة صندوقًا مســـتطيل الشكل؛ ووضعه أمامهـــا على الطاولـــة، كان الصندوق مغلفًا بـــورق زينة حمراء: «هذا بمناســـبة عودتكِ للموســـيقى والتحاقكِ بالعمل».

– «حسن! هل هذا لي!» قالت متلعثمة تتعثر بين كل حرف.

– «نعم، بالتأكيد، إنه أفضل شيء تستحقينه في الوقت الراهن».

– «هذا.. لطيف!، هل يُمكنني؟». أشارت نحو العُلبة بعينين لامعتين.

– «بالطبع».

التقطت الصندوق وبدأت بفك شـــرائطه، ثـــم تابعت بتمزيق الورق الأحمر، فظهر أورغ صغير مرســـوم على العُلبة.

– «إنه أورغ صغير، يتصل بالكمبيوتر عن طريق اليو إس بي، إنه رائع في التمرينات، عودة هانئة للموسيقى».

– لمست العُلبة ثم أردفت: «وكيف عرفت أنني سأعود؟».

– «الموســـيقى لا تتخلى عـــن أحد، يومًا ما كنتِ ســـتعودين لها.. لا مهرب منها».

حكت وجنتها التي احمرت خجلًا، وقالت بابتســـامة حاولت كبتها: «شكرًا لك.. شكرًا».

– مد كفه والتقط كفها: «لا تشكريني.. تستحقين ما هو أكثر من ذلك».

## (كريم)

*نقتلع الزهور باسم الحُب فتموت.*

انزلق نحو قاع نفسه على غفلة، حتى إنه كاد يظن أحيانًا أنه شخص أخر، إن التحول الذي طرأ عليه فجأة لم يعده، عاد كما كان قبل أن يُقلع عن الهيروين، بل إن الوضع قد تفاقم أضعاف الأضعاف، صار الهيروين جرعة يومية لابد منها، كما أن ترك البيت كان وضعًا إلزاميًا، الهرب من كلام أمه الجاف، خصوصًا بعد اكتشافها بتعاطي والده مثله، إن لانهيار صورة زوجها أمامها أثرًا لا يُنسى.

كان يقضي نهاره بالتسكع بين الشوارع والأزقة والمقاهي، وبالمساء يتعاطى جرعته البسيطة، التي أحيانًا لا تتجاوز السطر الواحد؛ ثم يغض بالنوم حتى الصباح التالي بالمنزل الذي يملكه مالك، إلا أن تلك الليلة لم تمض كسابقاتها؛ فكر جديًا بقتل لوسيندا، فلم يتحمل خيانتها له وإن لم تكن علاقتهما إلا ضربًا من الخيال برأسه، فلم توافق لوسيندا يومًا به حبيبًا وربما بنسبة ما ساعده الهيروين على تخيل علاقته بها على نحو أدق، كانت أغنية لوسيندا تطفو فوق الهيروين برأسه كل مساء، اللحن لا يفارقه حتى بعد النوم.

كان الهيروين يجري بدمه حين حشر سكين قصير بين بنطاله وجلد وركه، وهاتف مالك فاستجاب: «لوسيندا.. ستموت، سأقتلها الليلة»، كان بحاجة لإخبار شخص ما، وربما هو نداء من داخله لينقذ نفسه، تظل غريزة البقاء متأصلة بالإنسان حتى وإن فقد عقله.

– «كريم! ماذا تقول!».

أغلق المكالمة فورًا، والشـــرر يتطاير مـــن عينيه، فأعاد مالك الاتصال به عدة مرات؛ ولكنه لم يســـتجب، كما أن نشوة التعاطي أنسته أن يغلق الهاتف منعًا للإزعاج.

خرج من المنزل قاصدًا منزلها، وترك هاتفه يرن، جلس على الرصيف المقابل لبنايتها بعد أن تهدلت أطرافه، لم يكن يقوى أن يُحرك ساقًا، شاهد من بعيد أنوارًا لســـيارة شرطة، فأخرج الســـكين بقوة واهنة تكاد أصابعه تُمسكه وطوح به بعيدًا عنه، اقتربت السيارة منه وزادت أنوارها، دس براسه بين كفيه، عبرت ســـيارة الشـــرطة من أمامه، فرفع نظره ناحية شرفة لوسيندا ووجدها واقفة هناك تنظر له بابتسامة ساخرة، حاول أن يستقيم وينهض من مكانه، ولكنه لم يســـتطع، بحث بعينين غائرتين عن السكين حوله؛ فلم يجده، يجب أن تموت لوسيندا.. لوسيندا يجب أن تختفي من عالمنا... قال في نفسه، وإن كاد يسمع صدى صوته همسًا: «ستموتين!».

قال لها بصوت واهن يكاد يخرج من حنجرته.. نظرت له ضاحكة؛ ثم اختفت من أمامه تدريجيًا..

- «كريم.. لا تقلق كل شيء ســـيكون بخير» قال له مالك منحنيًا نحوه، ممسكًا برسغه.
- رفـــع كريم عيناه نحوه: «كُف عن قـــول مثل هذا الهراء، كُف عن قول ما تقوله بنت الو...».
- قاطعه: «إن الطبيب في طريقه لنا، ولكن أرجوك عد معي الآن، سنكون بالمنزل الآن ريثما يأتي الطبيب.. تعال معي».

ســـانده للنهوض، فنهض الأخير بعد مشـــقة، قـــال مالك: «هاتفت والدتك بعد اتصالك بي مباشرة.. قالت لي كل شيء، لماذا لم تخبرني بكل هذا من قبل يا صاحبي؟».

- خطا بخطوات ثقيلة يكاد الأسفلت يتحملها: «أخبرك بماذا؟».

- «الهيروين.. كان بوسعي مساعدتك».

- «إن كنت تود مساعدتي.. ساعدني بقتل لوسيندا.. إنها الشيطانة هنا».

- «كريم.. أنت تهذي!».

سعل واستنشق سيل أنفه: «أنا لا أهذي، إنها شيطانة، لقد ضحكت لي عبر الشُرفة، يجب أن أقتلها قبل أن تقتلني، يجب أن أخلص العالم منها».

كاد يسقط فسانده مالك: «يجب أن تُعالج من هذا السُم أولًا.. فقد بدأ عقلك ينصهر».

- «أنا عاقل.. لقد تسببت لوسيندا في الكثير لي وليونس».

- «من يونس؟».

- «إنها ساحرة يا مالك.. شيطانة».

- «نعم أعرف.. ساحرة أو شيطانة أو أيا يكن.. سنذهب لمنزلنا ثم نتحدث».

استقلا تاكسي للمنزل، غاص كريم بالأريكة، وأغمض عينيه، فيما هاتف مالك الطبيب واضعًا كفه على فمه: «إنه بخير الآن.. سأرسل لك العنوان برسالة.. أنا بانتظارك.. سلام».

جلس بجواره، ففتح كريم نصف عينه، فقال له مالك: «إن الطبيب بالطريق.. ستكون بخير».

أغلق كريم عينيه مُجددًا، ولكن أغنية لوسيندا لاتزال تسري بأذنيه: «مالك.. أنا لست مجنونًا».

- «أعرف يا صاحبي، إنه تأثير الهيروين».

- «ليس الهيروين.. إنها بالفعل شيطانة، لوسيندا هي الشيطان!».

- «مَنْ يونس، الذي ذكرته بالطريق؟».

هام بعينه: «إنه أكثر الأشـــخاص الذين تأذوا منها.. لقد سمعتهما أثناء حديثهما، لقد قالت بنفســـها إنها ساحرة».

- «يبدو الأمر غريبًا» قالها وهو يحك أنفه.

- «إنها الحقيقة».

- «كريم.. لن أقول شيئًا لوالدتك، عما فعلته اليوم.. فلا تقلق».

- «لست قلقًا، قل لها أو لا تقل، لن تهتم ولن أهتم على أي حال».

- «لا تقل ذلك، إنها أمك قبل كل شيء».

أومأ كريم برأسه، وأغلق عينيه مُجددًا وغاص بنوم خفيف.

جاء الطبيب بعد ســـاعة، وســـرعان ما تم نقـــل كريم لمركز علاج الإدمان.

## (يونس)

*العالم أكثر جنونًا من أن نألفه.*

كانـــت مقطوعة **dream a little dream**، لأرمســـترونج تُعزف من خلال سماعـــات أذنه المتصلة باللاب توب؛ يميل رأســـه مع صوت البوق، فيما كانت أصابعه تنقر لوحة المفاتيح أمامه على المكتب، يتابع كتابة روايته التي شـــارفت على الانتهاء، انتهت المقطوعة فتابعها بـــ **killing me softly** لـــ فرانك ســـيناترا. وأكمل ما يكتبه:

## «رواية السكير».

(٧)

عُدت لمنزلي.. كانت (هدى) تغط فى نومٍ عميق.. لم أرد أن تستيقظ، وجلست أمام الأوراق أحاول ترتيب ما يحدث، لو أنني داخل فيلم سينمائي لما صدق المُشاهدين أن كُل هذا يحدث خلال يومين فقط!.. فى الحقيقة أحتـــاج أنا أيضًا للوقت حتى أبتلع ما يحـــدث ! رسمت رسمًا توضيحيًا لعلاقاتي القريبة.. علاقاتي ببعض غريبي الأطوار.. أم أنا غريب الأطوار الآن؟ لا أعلم ! ولا أريد إجابة .. هناك شيء خاطئ !

هل تعرف (هـــدى) ليلى؟.. لقد خانتني الذاكـــرة مرة أخرى!.. لا أتذكر إن كانـــت تعرفها أم لا.. مازالت (هدى) نائمةً.. لا أســـتطيع إيقاظها لهذا السبب..

صنعت فنجانًا من القهوة وجلست فى غرفتي أستمع لـــ(ليني وليامز) أغنية (cause I Love You) قررت تصفية ذهني بشـــكل كامل.. أشعلت سيجارة وبدأت أردد فى ذهني:

– «لا تُفكر كثيرًا .. لا تُفكر كثيرًا»

تلك الحلقة المفقـــودة مازالت تتابعني.. تذكـــرت كلمات (نادر): «صدقني إن شـــئت أم لم تشـــأ، لقد اخترعتني مثل ليلـــى، أنا وهم مثلها تمامًا».

هل (نادر) وهم كما يدعى!؟

«لا تُفكر كثيرًا .. لا تُفكر كثيرًا»

لقد أقنعني بطريقة ما أننا نركب تلك السيارة الـ (كيا) هذا لا يُصدق.. هذا مُخالف لقوانين الطبيعة.. ما الذي يحدث لا يخالفها على أي حال!؟

«لا تُفكر كثيرًا .. لا تُفكر كثيرًا»

انتهت أغنية (ليني وليامز) وحل محلها أغنية (براين آدامز) (Here I'm).. انتهت سيجارتي فأشعلت أخرى؛ وأمسكت بالرسم مرة أخرى.. أحاول ترتيب الأحداث.

(سجائر الكليوباترا)

(حنا السكران)

(سيارة الكيا)

(كؤوس العجائب السبع)

(الأخان مايكل وشون)

بدأت أنغام (Stand by Me) بصوت (بين إي كينج) تغزو الغرفة..

فتحت (هدى) باب الغُرفة .. فأخفيت الأوراق قبل أن تراها..

حكت رأسها بأناملها وقالت: «لقد عُدت مبكرًا.. مبكرًا أكثر من اللازم»

– إجازة .. كُنت بحاجة للراحة.

أطفأت وصلة الموسيقى واقتربت منى بهدوء.. وبدأت تعبث بشعرى ..

– الحمد لله على سلامتك يا حبيبي.

لامســـت جبيني ثـــم احتضنت رقبـــتي بكلتا يديها؛ حتى أحســـست بخصلات شـــعرها تلامس وجهي.. أدرت وجهي نحوها فألصقت شفتيها بشـــفتي وقبلتني، دفعتها بعيدًا وانتفض جسدي فى فزع :«أنتِ مجنونة!».

صرخت بوجهها وبصقت على الأرض ليلتصق اللعاب بالسجاد..

تســـمرت مكانها.. اتســـعت حدقة عينيها، مسحت فمي بمعصمي.. ولمحت الخاتم بيدي اليســـرى بطرف عيني، بدأت عيناها المُتســـعة تغرق بالدمـــوع.. ثم اقتربت منى تُمســـك بيدي فأفلتهـــا منها.. وصرخت بوجهها: «اغربي عني!»

– ابتعد!؟..

خرج صوتها مُتلعثمًا.. تـــذرف الدموع من عينيها ببكاء صامت يكاد ينفجر فى أي لحظة.. بدأ جســـدها بالارتعـــاد وحانت لحظة الانفجار بالبكاء، كفنت وجهها بيديها وقالـــت فى تلعثم: «أنا زوجتك!».

وقع صدى الكلمة على مســـامعي، وكأنهـــا صاعقة ضربت الأخوين (مايكل وشون) فى إحدى الحدائق بكاليفورنيا.. (زوجتك!) لهذه الكلمة وقع غريب، اختلطت الألوان أكثر وأكثر، صار الأبيض يُشبه الأسود.. هُنـــاك ألوان لم أسمع بها قط أراها الآن أمامي ..

«لا تُفكر كثيرًا .. لا تُفكر كثيرًا »

رحلـــت (هدى) من الغرفة لغرفتها وأغلقـــت الباب خلفها.. وما زلت فى مكاني!.. صوتها الباكي يخترق أذني (زوجتك!).. متى وكيف !؟

أختي !

زوجتي !

الأبيض يُشبه الأسود إلى حدًا كبير!

ما الذي يحدث هنا؟

هل خانتني ذاكرتي إلى هذا الحد.. لا أذكر من هي (هدى)

أختي!

زوجتي!

مشيت بخطوات ثقيلة، وكأن قدماي مُكبلة بكُرات حديدية، استندت على أحد كراسي السُفرة فى الصالة.. الصورة أمامي على الحائط لم تعد مُمزقة الآن ..

أنا بالنصف الأيسر من الصورة أرتدى بذلة، والنصف الايمن كان لـ (هدى) ترتدى فُستان زفاف لا أعلم إن كان أبيض أم أسود!

الأبيض صار يُشبه الأسود إلى حد كبير!

مسحت خاتم إصبعي وصدري يكاد ينشق من ثُقل الغيوم المُعبئة بالأمطار، التي تهطل بعد صاعقة الأخوين (مايكل وشون) .. نزعت خاتم إصبعي الفضي.. بداخله كُتب (هدى ٢٠١٣/٢/١٥) قبل عامين!.. قبل عامين تزوجت أختي!

أختي !

زوجتي !

تسللت الكرات الحديدية لقدمى بالكامل.. صار ساقي مُحملًا بجسد يزن سبعين كيلو من الكرات الحديدية التي تزن مئة كيلو.. لم أستطع المُقاومة.. سقطت على الأرض وعيناي لا تنغلق!

مفتوحة كأبواب المدينة أمام المُغتربين!

أزحف حتى غُرفتها.. أناديها بصوت مُنتحب: «هدى!»

تخرج منـــى مُتلعثمة وكأن مجرى خروج الصوت ملئ بكلمات أخرى تتنازع للخروج..

– هدى ..

خرج النداء الثاني أقوى من الأول.. ثم.. !

لم تر عينـــاي المفتوحتين إلا الظلام.. لم أكن أعلم أن الظلام يُمكن تمييزه عن اللون الأسود..

هذا (ظلام) أما الأسود فلا يمكنني تميزيه الآن عن الأبيض!

(ليلى)

(هدى)

(الوهم)!

(ليلى) كانت تحكى لي عن الحور العين.. عن أهل الجنة !.. كانت تحكى لي ما لم يره بشر!

كشـــهرزاد.. كانت تحكى لشهريار ما لم يره أحد حتى لا يقتلها.. هل قتلـــت (ليلى) عندما فرغت مـــن حكاياتها؟.. هل قتل (شـــهريار) (شـــهرزاد) عندما فرغت من حكاياتها؟

الظلام .. الظلام .. الأصوات تختفي تدريجيًا.. لا أشـــعر بجسدي الذي يزن سبعين كيلو.

***

«يونس!».

رفع عينيه تجاه باب الغرفة، كان ياسر يقف ملوحًا بيده: «يبدو أنك منغمسًا في عملك!».

- «هل هناك شيء ما؟».

- «هناك شخص بالخارج يسأل عنك».

- «من؟».

رفع يديه بالهواء: «رجل كبير، يقول أن اسمه عبد النبي».

رفع يونس حاجبيه: «عبد النبي!».

كان العجوز يجلس على مقعده بصالة الاستقبال باللوكاندة، وقف حينما رأى يونس أمامه، عانقه يونس فقال له العجوز: «اشـــتقت لك يا فتى».

- «أنا أيضًا».

جلســـا بغرفة الطعام باللوكاندة، احتســـى العجوز الشاي ثم قال لـــه: «لقد بحثت عنك بكل اللوكاندات حتـــى وجدتك هنا، لمَ غادرت الشقة؟».

- «بعد موت صاحبها لم أستطع البقاء».

- حدق به عبد النبي ثم أردف: «على الأقل كان عليك إخباري».

- «حدث كل شيء بسرعة».

- «هاتفتني نور بالأمس، وقالت لي إنهـــا قد تجاوزت علاقتكما.. لقد نسيتك بشـــكل غريب.. حتى أنني ظللت أصف لها ملامح وجهك».

- صمت قليلًا ثم قال: «هل هذا شيء جيد أم سيء؟».

- «لقد بدأت حالتها تتحسن، وهذا أمر جيد، ولكن ليس هذا ما دفعني للبحث عنك».

- «إذن ما السبب؟».

- «سأعود للصعيد بعد أيام، كان عليّ أن أودعك قبلها، هذا هو الفرق بيننا يا صبي».

- ابتسم يونس، وقال له: «سأشتاق لك يا عم».

- «أخبرني فقط أأنت بخير؟».

- «أتدبر أموري على أكمل وجه، سأقابل مسئولين دار النشر خلال أيام؛ لنشر روايتي الجديدة ولأتقاضى منهم باقي مستحقاتي.. أنا أتدبر أموري فعلًا».

- «لا يثير غياب نور عنك شيئًا إذن؟».

- «لقد تجاوزت الأمر كذلك.. ورغم كوني أشتاق لها إلا أن الحياة تستمر».

- «لم تتوقف الحياة للحظة واحدة كي تستمر.. إنها تسير على الدوام».

- «صحيح».

ارتشف من كوبه القليل: «إلى متى ستبقى بالفندق؟».

- «إلى حين تدبير مكان أخر».

- «ومنزل العائلة؟».

- «لقد انتهى أمر العائلة، لقد كبرت بما يكفي لتدبر أموري وحدي.. كما إنهم وبطريقة لا أستطيع شرحها قد نسوا أمري».

- ضحك عبد النبي وقال: «ينساك الجميع يا فتى، ما الذي يحدث لك؟».

- «يبدو أن الحياة تمضي دون الالتفات لي!».

ربت عبد النبي على رأسه وهمَّ واقفًا؛ فاستوقفه يونس: «يا عم».

التفت له العجوز فأكمل يونس: «قلت لي سابقًا أنك تُحب اسم يونس.. أغنية منير، شيء عن السيرة الهلالية أو شيء من هذا القبيل».

جلس عبد النبي أمامه وقال: «سأحكي لك.. سمعت عبر الراديو عن السيرة الهلالية، هناك قصة بالسيرة تسمى عزيزة ويونس.. تعرف.. سبب غزو تونس كانت امرأة جميلة تُدعى عزيزة، كان والدها يُحبها كثيرًا، رفض تزويجها عدة مرات، كانت تعيش في قصرها سجينة مع جاريتها، التي كانت من بيت سلطان بني هلال.. والد يونس، كانت جاريتها تنظر لجمال عزيزة وتقول دومًا إن هذا الجمال لا يصلح إلا لجمال يونس، كانت تصف لها جمال يونس حتى وقعت عزيزة في حبه من السمع».

صمت لثواني يستعيد ذاكرته وأكمل: «كانت عزيزة تعلم أن رؤيتها ليونس من المستحيلات فهي لن تغادر موطنها.. أتعلم ماذا فعلت؟».

هز يونس رأسه نفيًا، فأكمل العجوز: «اختطفته، لا أذكر الطريقة، ولكنني أذكر أنها اختطفته، طالبته بحبها، ولكنه لم يستطيع، تذكر أغنية منير صحيح؟ المقطع حين قال: وده حب أيه ده اللي من غير أي حرية».

ابتسم يونس.

- «أحب تلـــك القصة، وأحب موقف الفتى يونس، لقد رفض حبها له لأنه لم يكن حُرًا يا ولدي».

غادر عبد النبي بعد جلســـة استمرت لساعة كاملة، بدا يونس بعدها هائمًا، فيما كان ياســـر يُعد فنجانين من القهوة لهما، قال له ياســـر: «هناك شيء غريب حدث اليوم بجلســـة العلاج، أود أخبارك به».

- «ما الذي حدث؟».

وضع الفناجين أمامهما وقال: «كان لنا زميل بالجلسة يُدعى كريم، إنه فتى بالثالثة والعشـــرين على ما أظن، وربما أصغر من ذلك.. لقد عاد لتعاطي الهيروين مُجددًا ونُقل لمصحة علاج إدمان».

تناول يونس فنجانه وارتشف منه القليل فأكمل ياسر: «إنه يعرفك، سمعت أنه ظل يقول شـــيئًا له علاقة بك وبفتاة تدعى لوســـي أو اسم مشابه».

فتح يونس عيناه على مصراعيهما وقال في فزع: «لوسيندا!».

- «اه، لوسيندا.. إنه ذاك الاسم».

- «وأين ذاك الفتى الآن؟».

«بالمصحـــة.. يُعالج، تعلـــم أن أصعب فترة هي فـــترة ما بعد الإقلاع مباشـــرةً.. الفترة التي يُنتزع فيها الســـم من جســـدك.. هل تعرفه؟».

- «كان لي لقاء سابق معه ومع تلك الفتاة.. أود زيارته».

- «لقد قال إنه يود رؤيتك كذلك.. وقال الطبيب إنه من الجيد لو توصلنا لك وأبلغناك بالأمر.. الدنيا صغيرة للغاية».

# (نور)

*هناك زوايا بقلبي لا تُملأ بعد رحيلهم!*

عزفت بالمساء على الأورغ الذي أهداها إياه حسن، وتعجبت لقدرتها على العزف بتلك المهارة، رغم ابتعادها لفترة عن الموسيقى، بدأت بجزء صغير من سوناتا مون لايت لبيتهوفن، إنها المقطوعة التي كان يجب عليها تأديتها بيوم الحفل ولم تستطع، ثم تابعت بعزف جزء من السيمفونية الأربعين لموزارت، وهي التي استعملتها فيروز كلحن لأغنيتها (يأنا يأنا)، توقفت عن العزف وغمرتها النشوة ثم ألقت بجسدها على السرير، حدقت بالسقف لدقائق قبل أن تشعر بالفراغ يقتحم قلبها، كان هناك جزء كبير منها فارغ لا يُملأ، ولو أنها لم تكتشف كنيته تحديدًا، انسابت له بهدوء، كان الشعور يسحبها كالغرق بالرمال، لم يكن ماديًا ملموسًا ولكن بطريقة ما يُمكنها لمسه بسهولة.

بالصباح زاولت عملها بالمطعم، وقد أبدى زملاؤها بالعمل إعجابهم بقدراتها على التعلم سريعًا، علقت على هذا قائلة: «اكتشفت أن لدي شغف بالمطبخ لم أكن أعلمه سابقًا».

وعلى مدار أيام تحول شعورها المسائي لروتين لا يمكن اجتنابه، بات يؤرق نومها وإن غفت تستيقظ سريعًا، إنه الوجع الذي يتفشى بصدرها ولا يُمكنها استئصاله.

بداخل المقهى عدل حسن من إطار نظارته فوق أنفه وقال لها بعد بُرهة صمت: «نور.. أشعر أنني.. وكأنني..».

كانت الأخيرة هائمة تثبت عينيها على شيء ما بالمقهى، لم يكن بالشيء المهم أكثر من كونه نقطة سقطت عيناها عليه، تابع حسن: «أنا أحبكِ!».

دارت برأسها نحوه فظهر السواد أسفل عينيها، وقالت له: «حسن.. أنا آسفة!».

«...».

- «لقد حاولت، ولكنني لم أستطع».

بحث عن كلمة مناسبة ولم يجد فالتزم الصمت.

- «أعرف شعورك نحوي، وهو شعور صادق، دافئ، أكاد أطير من الفرحة بجوارك، ولكنني لا أستطيع».

- «لِمَ؟».

- هزت رأسها نفيًا: «لا أعلم، شيء ما بداخلي ناقص، لم أعد كما كنت بالماضي.. لست بنور التي أحببتها، يخالجني شعور بكون أحدهم استبدلني».

- «ولكنني اقبلك بكل تقلباتكِ، غرابتكِ، حُزنك قبل فرحكِ.. فلِمَ ترفضين!».

- «لا أستطيع أن أحبك بمشاعر منقوصة».

- «منقوصة؟».

أسندت ذقنها على يدها وهزت رأسها: «نعم» أضافت: «أتذكر الموناليزا؟».

أومأ برأسه.

- «قلت لي أن ما بمتحف اللوفر ليست الأصلية، ويُمكنك القول إنني أيضًا لم أعد بالأصلية، لقد أحببت الفتاة القديمة، أما الآن فما أمامك مسخ».

- زمَّ حسن شفتيه وتهدلت عيناه: «لقد فهمت».

- «أعرف أن ما سأقوله سخيف ولكن أرجوك.. لا تتضايق مني!».

- «لا.. سأنتظرك، أنا هنا لن أرحل عنكِ، لن أرحل حتى تتجاوزي محنتكِ.. حتى تكتمل مشاعركِ».

- «أنا آسفة!».

- «خُلق الأسف لينطبق على الأخطاء.. لا يد لنا بمشاعرنا».

أشعلت نور سيجارة من عُلبتها فقال لها: «هل تسمحين لي؟».

حدقت به ثم مدت العلبة ناحيته، فالتقط منها سيجارة وأشعلها بقداحتها، ابتسمت، والتقط حسن منها نفسًا طويلًا وبدأ يسعل: «اه.. إنها ليست سيئة كما يُقال عنها».

- ضحكت نور: «لا سيئة.. سيئة للغاية».

- «سيئة ولكن هناك دائمًا ما هو أسوأ».

التقطت نور بعض الدخان وزفرته سريعًا، فقال لها حسن: «هناك بالمساء بروفة للفرقة، ستحضرين صحيح؟».

- «سأكون متواجدة ببروفة الغد.. لدي موعد مهم الليلة».

- «حسنًا لا بأس.. أنا والموسيقى بانتظاركِ».

## (كريم)

*الحب قادر على إتلاف روحك.*

أعراض الانسحاب بدت واضحة عليه، بدايةً من لون بشرته التي تحولت للصفراء، مرورًا بمخاطه الذي كان يسيل على الدوام، انتهاءً بجسده

الذي يرتجف وآلام ظهره، إضافة للقئ الذي صار يمارسه كل ساعة، كان كريم قد صار أشبه بكيس من العظام. كانت غرفته بالمصحة واسعة ذات طلاء أبيض على الجدران، وستائر زرقاء تحجب عنه ضوء الشمس القادم من الشُرفة، طُرق الباب فقال كريم بعد أن مسح أنفه بمنديل: «ادخل».

فتح يونس الباب، ودخل الغرفة، أول ما سقطت عليه عيناه هي الستائر الزرقاء، ثم كريم، الذي بدا له في حال لا يُحسد عليها، أشفق عليه وإن لم يقل له ذلك صراحةً: «تفضل يا يونس.. كنت أعلم أنك ستأتي». أشار للمقعد الوثير بجوار سريره.

- «كيف حالك الآن؟».

- ابتسم وأردف: «كما ترى».

جلس يونس على المقعد، وإن لم يجلس بكامل ثقله، انحنى للأمام ساندًا رسغه على ركبتيه، وتاركًا ذقنه تستند لقبضته: «لم أكن أعلم أنك تتعاطي الهيروين».

- «ومن كان يعلم من الأساس». سعل ثم أضاف: «أتريد أن تشرب شيئًا ؟».

- «لا أنا بخير».

- «لا تخاف، إنها مصحة رائعة تختلف عن المستشفيات الحكومية أو ما شابه، هنا كل الأشياء نظيفة».

- علق يونس عينيه على الستائر وأردف: «يُمكنني ملاحظة ذلك.. ولكنني لا أود أن أشرب شيئًا، هل يُمكنني التدخين؟».

- «لا مشكلة».

أشعل يونس سيجارته وناول الأخير سيجارة، وقال: «لقد قالوا لي أنك تود لقائي، ما الأمر؟».

تنهد كريم وأشعل سيجارته: «أنا أعلم جيدًا ما تمر به.. الجثث.. الأحداث الغريبة.. أعلم جيدًا، لقد استمعت للحديث الذي دار بينك وبين لوسيندا».

- «أكنت تتنصت عليها؟».

- «لقد تركت المكالمة مفتوحة بيني وبينها عندما زرت أنت منزلها».

- فرد يونس ظهره: «لا تفهم الموضوع بشكل خاطئ».

- «أتفهم كل شيء، أعرف أنها أرادت أن تنام معك، وأعرف أنك رفضت ذلك بشدة».

تنشق مخاط أنفه وأكمل: «لقد قالت لك إنها ساحرة أو شيء كهذا».

- «نعم، ولكنها تُخرف».

- هز رأسه: «لا، لا تُخرف، إنها بالفعل ساحرة أو شيطانة.. تعرفت عليها في أحد المقاهي، وعندما عدت لأسأل عامل بالمقهى عنها؛ قال بأنه لم يرها مُسبقًا، كنت أظنه يهذي، أو كما تعلم، عمال المقهى لا يقولون كل شيء، لا يُركزون من الأساس.. فهم يرون بالفعل مئات الأشخاص يوميًا».

- «تقول بأنها ساحرة؟».

- «نعم.. أنا متأكد من هذا، لقد بدأت متاعبك مُنذ لقائك بها صحيح؟».

- «صحيح!».

- «ذاك ما حدث معي كذلك.. بدايةً من تعاطي الهيروين وانتهاءً بأنني أحببتها.. الآن أنا أؤكد لك أن ما أقوله صحيح».

ساد الصمت للحظات قبل أن يقاطعه يونس: «على افتراض أن ما تقوله صحيح.. لقد جئت لي.. أول مرة لأكون حاضرًا بحفل عيد ميلادها، لِمَ جئت لي من الأساس إن كنت تعلم كل هذا؟».

ـ«لم أكن أعلم بعد، كما إنني أحببتها فأعماني الحب عن كل الحقائق.. لقد كانت بالفعل تريدك أن تحضر الحفل، لقد لمحت بذلك مرارًا، ولكنها لم تطلبه صراحةً، أنا آسف لقد ورطتك بالكثير».

مسح يونس جبينه بكفه، وأغمض عيناه، فأكمل كريم: «لقد فكرت بقتلها.. لم أصل إلا لتلك النتيجة، ولكني لم أستطع التنفيذ مع ذلك.. وكأن قوة خفية قد منعتني من الاقتراب منها».

رفع يونس عينيه تجاهه فأكمل: «إنها تُدمر كل من يدخل في دائرة علاقاتها.. إنها شيطانة تستحق الموت، لقد قالت لك إنها ساحرة صراحة.. ألا تذكر؟».

- «بلى!».

- «لِمَ لم تقتلها حينها؟».

- «لن أقتل شخصًا لمجرد أنه قال لي أنا ساحر.. لا أستطيع القتل من الأساس».

سعل كريم من جديد ثم أردف: «ينبغي عليها أن تموت يا يونس، إنه الحل الوحيد للخلاص من شرها.. لا أعرف حتى إن كانت ستموت أم لا.. ولكن ينبغي علينا المحاولة».

- «ما الذي تقصده؟».

- «أقصد أن تقتلها».

- «هذا مستحيل، أنت تهذي!».

- «لا، أنا لا أهذي.. اطعنها بسكين، اشعل بها النار، افعل أي شيء لتتخلص من لعنتها!».

همَّ بالوقوف وأردف: «سأرحل».

- «يونس.. فكر بما قلته لك».

- «لن أقتلها يا كريم.. لن أقتلها، إن كانت شيطانة كما تقول أنت؛ فسيكون هدفها أن نخطئ، وإن كانت ساحرة فلن تموت.. لن أتسبب في مقتل شخص أيا كان، رغم كل ما حدث إلا إنني ما زلت على الأقل إنسانًا».

- «إن لم تقتلها.. لن تكون أنت مُجددًا».

- «ومن أنا الآن؟» صرخ به.

- فقال كريم بهدوء: «حسنًا لا تقتلها، ولكن أرجوك لا تنجرف وراءها من جديد.. ابتعد عنها فهي سبب كل ما نحن به الآن».

## (يونس)

*الموتى لا يرقصون*

عاد للفندق بعد لقائه بكريم، وكتب أخر فصل بالرواية:

## «رواية السكير».

(٨)

غرفة ليس لها ألوان، واســـعة بما يكفي لمباراة (كرة قدم) خماسية.. أجلس فى إحدى زواياها أضم ركبتي لصدري.. ليس لملابســـي ألوان.. يعجز الوصف عن إدراكها فى كلمات.. جلست فى مكاني قرابة الـــ.. لا يوجد مقياس للوقت على ما أعتقد.. لا أعلم كم اســـتغرق قدومي هنا ولا أعلم كم بقيت على هذا الوضع.. فُتح باب الغرفة بهدوء؛ ودخل شـــابان فى عمر المراهقة، أحدهما طويل ذو شعر أســـود، وأنف عريض، وأســـنان كبيرة، والأخر أقصر منه ذو وجه مُمتلئ وعينان زرقاوان، وشعر يميل للون البُنى.. يرتديان ملابس بلا ألوان مثل ملابسي تمامًا .. قال الفتى القصير: «مرحبًا»

مهـــلاً! .. إنه يتحدث بلهجـــة لم أسمعها مُســـبقًا، ولكنى أفهم ما يقول.. هناك شيء ما لا أستطيع أن أفهمه .. ردد الفتى التحية مُجددًا: «مرحبًا».

فأجبته بنفس اللهجة، ولا أعلم متى وأين تعلمتها: «مرحبًا!»

- أنت جديد هنا على ما أظن .
- أين أنا بالتحديد ومن أنتم ؟
- أنا (شون) .

وأشار للفتى الطويل: «وهذا أخي (مايكل)».

- مايكل وشون!.. أتقصد إنكما ..

قاطعني: «نعم بالتأكيد ! .. نحن هما من تعتقد»

– أين أنا ؟

أجابني مايكل هذه المرة: «أنت الآن فى غرفتك الخاصة، لقد جئت فى زيارة هنا لبعض الوقت وسترحل قريبًا».

– غرفتي الخاصة!

– نعم .. غرفتك الخاصة بهذا الفندق.. إنه الفندق الذي تلتقي به من رحلوا عن هذا العالم ممـــن تعرفهم قبل أن ترحل للأبد أو تعود للحياة مُجددًا.. لكنك محظوظ ســـتعود قريبًا للحياة مُجددًا.

– كيف عرفت ؟

– التاريخ على جبينك، ليس تاريخ اليوم.. لن تموت الآن ، فلا تقلق.

أضاف (شون): «تعال برفقتنا .. سنتجول بالفندق قليلًا».

خرجنا مـــن الغرفة .. على الغرفة أرقام كثـــيرة وأسماء كثيرة.. يعلوها اسمى ورقم ٠.

٣٦٥ هدى .

٦٥٣ علاء .

٧٨٢ أحمد .

٢٩٠ ليلى .

والعديـــد من الأسماء.. وقفت أتأمل تلـــك الأسماء والأرقام، فقال (مايكل): «الأرقام تُشـــير إلى رقمـــك عند تلك الأشـــخاص.. ترتيب معارفك .. أو ما يعرفونك.. على سبيل المثال رقمي على غرفة (شون) هـــو ٣ لأنني أخوه وقد عرف قبلي شـــخصين أمي وأبى».

– فهمت .

تجولنـــا بالفندق عديم اللون حتى توقفـــت عند غرفة مكتوب عليها (حنا الســـكران).. فقال (شون): «لا نســـتطيع أن ندلف تلك الغرفة .. فنحن لا نعرف من يكون هذا الشخص.. لذلك لا نرى مقبضًا للباب.. هل ترى مقبضًا للباب؟

– نعم أراه!

– جيد إنه شخص تعرفه .. يُمكنك أن تدلف الغرفة ..

أمســـكت بمقبض الباب.. ودلفت الغرفة فى هدوء؛ لأرى أمامي رجلًا فى ســـن لم أحدده.. ملامحه جافة بالكامل.. تحت عينيه سواد أستطيع تميزيه عن الأبيض.. قال (حنا): «من أنت؟».

– فـــى الحقيقة .. أنا أعرفك .. وظهر لـــي مقبض الباب لذلك أنا هنا!

– على جبينك تاريخ .. وهو ليس تاريخ اليوم .. لذلك أنت ســـتعود إلى الحياة فى أي لحظة .. ولن تكون ساكنًا للفندق لوقت طويل.. ماذا تريد منى؟

– لا يوجد شـــيء مُحدد علـــى أيه حال .. احك لي عن نفســـك لا أكثـــر.. مُنذ أن سمعـــت أغنية (فيروز) وأنا أشـــعر برغبة فى رؤيتك!

– يـــا فتى .. أنـــا لا أعرفـــك ولا أنـــت تعرفني.. لقـــد سمعت بي فقـــط.. على أي حـــال لن يُضر كثـــيرًا إذا حكيـــت لك عنى.. (حنـــا) ليس اسمي الحقيقي على أي حـــال.. أعمل بمهنة الحلاقة مُتجولًا؛ حتى أســـتطيع شـــراء زجاجات الكحـــول.. لقد ارتفعت أســـعار الكحـــول فـــى (أنطلياس) وشـــعر الناس لا يطـــول بنفس

المقدار.. إنه لشـــيء ســـخيف! .. هذا كُل ما أستطيع إخبارك به!

- ماذا عن تلك الفتاة التي كُنت تعشقها؟ (بنت الجيران)؟

- من؟ .. أنا لم أعشـــق أحدًا.. لا أعلـــم حتى ما تقول، تلك الأغنية التي سمعتها عنى.. ولا من يُغنيها.. يعشـــق الناس إضافة الأحداث الدرامية؛ حتى تُصبح القصة بنكهة التشـــويق والتعاطف.

- أتعنى أن (بنت الجيران) هي مُجرد خرافة؟

- بالتأكيد أيها الأبله!

وهم! .. مثلهـــا مثل ليلى.. لم تكن هناك (بنت الجيران)! يا لها من مفاجأة .

خرجـــت للأخوين لأجدهما قد رحلا! .. أصبحت وحيدًا داخل فندق بلا ألوان .. تجولت بين الغرف الكثيرة حتى وجدتها (ليلى) اسمها مكتوب على الغرفة من الخارج، دلفت باب الغرفة فى لهفة؛ لأجدها أمامي بلونها الذي اشتقت إليه، ابتسمت وشبكت ذراعي بخجل.. أنا الآن لست ثملًا .. أنا بكامل قواي العقلية وليلى أمامي.. فتحت ذراعي لأضمها، ليس بما يحدث علاقة بالوهم. ضممتها بقـــوة بين ذراعي.. عيناي بدأت بالبكاء أخيرًا.. لمن اشتقت أكثر(لليلى) أم (للبكاء)؟

قالت لي بصوتها الرقيق: «كنت أعلم أنك ستجدني».

- بحثت عنكِ كثيرًا .. أنا تائه بالكامل يا (ليلى).

- سترحل بعد لحظات.. ســـأراك قريبًا على أي حال.. ولكن الكحول ليست الطريقة المناسبة.

مـــا زالت بين ذراعـــي، لا يهم كم من الوقـــت.. فلتبقِ بين ذراعي.. الوقت لا يُحتسب بهذا الفندق.. سألتها والدموع تنساب من عيني: «لماذا قررتِ الانتحار والابتعاد فجأة؟»

– هناك أشياء ستعلم بها عاجلًا أم أجلًا.. لن تستطيع معرفتها الآن.. كل شيء يأتي في الوقت المناسب.

بين ذراعيها بقيت لســـاعات.. أيام ..ربما شـــهور أو سنوات.. لا أعلم كـــم من الوقت بقيت هكذا.. حتى عاد الظلام تدريجيًا.. تشـــبثت بها أكثر وأكثر.

– حان وقت عودتك..

– لا أريد أن أتركِك!

– سأراك قريبًا.. عليك الاهتمام بـــ (هدى).

تشبثت بها أكثر وأكثر.. حتى ابتلعنا الظلام ..

فتحت عيناي تدريجيًا.. أنا في ســـريري، بجواري شخصين أحدهم يرتدي بذلة وأخر يرتدي قميص باللون الأزرق.. لم تختلط الألوان هذه المرة.

يُمسك الأخير بيده محلولًا موصولًا بذراعي اليمنى..

(هـــدى) تقف على باب الغرفة تبكي، تُغطي فمها بكلتا يديها، بيدها اليسرى خاتم ذهبي تمسح عليه من حين لأخر..

قال الرجل ذو البذلة بصوت هادئ: «حمدلله على السلامة يا أستاذ».

لم أُجب.. انحنى على أذني اليسرى وتمتم: «اقلع عن الكحول».

أومئت برأسي .. وعلى مدى نصف ساعة صار يحادثني في موضوعات شـــتى .. ربما والده كان سائق (تاكســـي) وقد ورث منه هذا الكم من

الحديث جينيًا.. وظل الفتى ذو القميص الأزرق مُمسـكًا بالمحلول ينقله من يد لأخرى حين يتعب.

لم أُجب على أسئلة الطبيب سوى بـ ( نعم) أو (لا) أو إجابة مُختصرة أو ابتسامة.. ألقى على التحية وألقى بورقة فى يد (هدى) ونزع الفتى ذو القميص المحلول من يدي، وانصرفا بهدوء.

اقتربت (هدى) منى وقبلت جبيني، تذكرت كلمات (شون): «على جبينك تاريخ لم يأت بعد». قالت (هدى) بصوتها الحنون: «حمدلله على السلامة» أجبت بابتسامة، همت بالرحيل فأمسكت بيدها، ولامست خاتمها وتمتمت: «أنا آسف!» ابتسمت وخرجت من الغرفة وأغلقت الباب خلفها...

ظهر (نادر) من العدم .. يُمسك بيده علبة (كليوبترا) فارغة.. ثناها بأصابعه وألقى بها نحوي .. أمسكت بالعلبة الورقية بين يدي فقال: «يجب أن تقتلني.. حتى تعود كما كُنت، ولا تقلق فلا وجود لي من الأساس.. مجرد وهم .. أشبه بليلى تمامًا».

اقترب منى بهدوء، وناولني سكين وقال: «لابد أن يقتل شهريار شهرزاد بالنهاية.. وإلا فسيموت قبل أن تنتهي حكاياتها.. ولن يرى غيرها.. شهريار لم يُحب شهرزاد، بل أحب حكاياتها.. ظل في مكانه ألف ليلة وليلة يسمعها.. لكن لا شيء آخر يفعله بعدها».

أغمض عينيه ورفع يديه فى الهواء، واقترب منى بهدوء، أغلقت عيني وطعنته ببرود قاتل مأجور.. اختفى بعدها كما يختفي الدخان ويتطاير فى الهواء ..

مر أسبوع .. ذهبت بعدها لدوام العمل، خطر ببالي أن أسال (علاء) عن (نادر)؛ فأقسم أنه لا يعرف شخصًا يحمل هذا الاسم!

دعاني (خالد) لسهرة معه فاستجبت وكانت سهرة رائعة .. ذهبنا للسينما وشاهدنا فيلم (Black Mass) ثم تجولنا واشترينا الكُتب والأسطوانات الموسيقية الجديدة، التي لم أعرف من يغنون بها، فكرت للحظة كيف سأستبدل موسيقى السبعينيات بهذه الأسطوانات، وجلسنا لاحتساء القهوة فى أحد المقاهي الشعبية بمنطقة (بحري).

أخبرني (خالد) أن علاقاته الاجتماعية محدودة جدًا .. يبتعد أصدقائه عنه بعد فترة قصيرة.. تذكرت عندما ابتعد عنى جميع أصدقائي فجأة ولم يذكروا السبب.. كان (خالد) يتمنى سهرة مع صديق.. وأنه سعيد باستجابتي لدعوته هذه الليلة.

عدت لشقتي الثانية بعد تلك السهرة.. جلست أمام الكؤوس السبعة التي توقفت عن الرقص .. صورة ليلى على الحائط ما هي إلا مرآة داخل إطار!

ابتسمت فى هدوء؛ وأخرجت من جيبي علبة (الكيلوبترا) الفارغة؛ وألقيتها فى صندوق القمامة .

«تمت»

***

قرأ الرواية التي كتبها بالكامل، دفعـــة واحدة، ولكنها كانت أقصر مـــن أن تُصنف كرواية من الأســـاس، ولم تُعجبه، نظر لروايته على أنها طفولية لا ترتقي للنشـــر، تذكر ما قالته أختـــه، تصفح ملفات روايته السابقة ووجدها أفضل من الجديدة بكثير، وبلا تردد مسح ملف الرواية الجديدة ثم أشـــعل سيجارة وكأنه قد انتشى من تخريب جُهده، فأحيانًا يكون للخراب لذته.

هاتف صاحب دار النشـــر وقال له نصًا: «لا أريد ان أنشر رواية جديدة هذا العام». وتقبل المتلقي الأمر على مضض. أرســـل رسالة نصية لعمر صديقه الـــذي قد أهمل مؤخرًا صداقتهما: «عمر، ســـألتقيك بالغد.. أوحشتني جدًا يا صديقي».

اســـتلقى على الســـرير لدقائق وفكر فيما قاله لـــه كريم، أن يقتل لوسيندا، شعر بضعفه تجاه أمر كهذا، واستسلم لكونه لن يستطيع فعل ذلك نهائيًا، بل الأفضل من ذلك محاولة إعادة بناء علاقاته من جديد.

تذكر الورقة التي أعطته إياها مروة، ما تزال بجيب بنطاله، أخرجها ونظر للتاريخ، إنه اليوم، بعد ســـاعة تقريبًا سيبدأ الحفل! قال في نفسه، وبدأ يرتدي ملابسه على عجل.

دلف الحفل وكانت فرقة الأمـــواج تعزف أغنية قديمة تنتمي لفرقة ذا بوليـــس، بدأ يبحث بين الوجوه حتـــى رأى فريد ومروة، يقفان بإحدى زاويا المكان، اقترب منهما ولكنهما لم يعيراه اهتماما، فقد مُسح وجهه من ذاكرتهما ولولا أنه مازال يحمل صورًا لهما لكان الأمر مماثلًا بالنســـبة له، جلس على كرســـي خشبي بعيد، وبات يتفحص الحضور، حتى وجد وجهًا مألوفًا، بحث بهاتفه عن صورته ليجدها نورا!

بدأت الفرقـــة بعد لحظات بعزف أغنية ليدي إن ريد لكريس دو بيرغ، وبدأ الحضور بالتجمع للرقص، اقترب يونس من نور ومد يده لها طالبًا الرقص، حدقت به لثواني، وشـــيء ما جعلها تســـتجيب، حاوط وسطها بيديـــه وعلقت هي الأخرى يديها على كتفيه، قال لها: «تبدين جميلة».

ابتســـمت بمرارة: «شـــكرًا.. تعرف، أنا لا أرقص عـــادةً، ولكن لتلك الأغنية ذكـــرى معي.. ولكنها ذكـــرى ضبابية».

- «إنها أغنية جميلة».
- «جميلة للغاية». ابتسمت وكادت عيناها تدمع.
- «لم ترقصي مسبقًا صحيح؟».
- «لم أرقص مطلقًا.. رغم إنني أعرف كيف أرقص، عزفت تلك الفرقة تلك الأغنية بنفس المكان سابقًا ورفضت الرقص».
- «الرقص يُعد اضطرابًا من نوع ما».
- صمتت لثانية ثم أردفت: «صحيح.. سمعت ذلك سابقًا من شخص ما!.. أشعر أنني أعرفك!».
- «رُبما.. لِمَ لم ترقصي سابقًا؟».
- «كنت أشعر أنني لا أحتاج للرقص، كنت أشعر أنني ميتة!».
- «والآن؟».
- «ما زلت ميتة!».
- ضحك يونس: «لا يا عزيزتي، أنتِ حية.. الأموات لا يرقصون».
- «شيء بداخلي يخبرني أنني أعرفك!».

- «دعكِ من هذا واستمتعي بالرقصة.. لن تتكرر تلك الرقصة مرة أخرى».
- صمتا لثواني قبل أن تسأله: «ما اسمك؟».
- «ما الفائدة؟».
- «إنه عنوانك.. الشيء الذي يستطيع الناس تمييزك به».
- ضحك: «لا يُهم، إن كُنا سننسى الأشخاص لاحقًا، فلِمَ نطلق عليهم الأسماء من الأساس؟».
- «يبدو ذلك معقدًا».
- «معقد أكثر من اللازم».
- انسابا مع لحن الأغنية، بات العالم كله ضبابيًا حولهما، وكأنهما قد انزوا عنه لعالم أخر خاص بهما. أراحت نور رأسها على كتفه، وبدأ الجميع يتمايل تحت تأثير الإيقاع، أنهت الفرقة الأغنية وأعادت غناءها مرة أخرى.. بينما كانت لوسيندا تقف بالزاوية تتابعهما مُبتسمة، وإن لم تتضح ما نوع المشاعر التي تُخفيها من خلف ابتسامتها!

# -١٢-

«الحب (Love) شيء شرير، أعكس حروفه وسأربكِ (Evol)»

أغنية: ((Space Bound إيمبنبم – ٢٠١٠.

هجرتني سلمى.. لأن جزءًا منها ما زال مُعلقًا بيونس.. حتى وإن لم تكن حقيقةً تُدرك ذلك، لقد كان جزءًا بروحها فارغًا بعده، هذا ما فهمته من روايته، حين عاد أخاها من سفرة ظلت تزوره لأيام، كنت أظن أنها صلة الرحم، والآن أنا متيقن أنها كانت تهرب مني لأيام لا أكثر حتى اتخذت قرارها في ليلة وغادرتني للأبد.

من هي لوسيندا بالنهاية؟

الموت.. لا إجابة أخرى، الموت الذي سكن روح كريم وحسن أحياءً، و من قبل يونس فرمى بالموت على فراشه كل صباح، وانتشل مني أسباب الحياة مُنذ سنوات، كم وجهًا للموت؟

هاتفت أروى، أخبرتها عن انتهائي من قراءة الرواية: «يمكنكِ الاحتفاظ بها حتى تكملي ملفك عن يونس».

- «لقد فكرت في شيء إضافي» قالت.

- «ما هو؟».

- «ستُنشـــر الرواية عن دار الحُر.. لقد أخبرت أستاذ سامح وقد وافق على نشـــرها، كانت رغبة أخته ألا ينساه الناس، ولكن يجب عليك أن توافق أولًا.. ففي النهاية أنا وأنت نعلم أن بطلة الرواية شخصية حقيقية».

- للحظات ساد الصمت، تنهدت ثم أجبتها: «لا مشكلة أنا موافق».

- ســـعلت مرتين ثم أردفت: «حســـنًا ســـأقوم بكل اللازم، أخبرني متى تصوير حلقة ابنتك في ليتل ســـتارز؟».

- «بعد يومين، ستكونين حاضرة صحيح؟».

- «بالتأكيد، وربما أكون في الحانة الليلة أيضًا».

اســـتحممت وارتديت ملابسي ذاهبًا للعمل، ولكنني لم أستطع لطوال الليل محو رواية يونس من رأسي، كانت ليلة لطيفة على الجميع، ثقيلة على نفســـي، قال لي حســـام بنبرته الإخبارية: «لم يتوصلوا للفتاة التي قتلت يونس بعد هل تعلم ذلك؟».

أجبته بإماءة من رأسي وتابعت ترتيب الزجاجات والكؤوس أمامي.

دلفت أروى الحانة، وجلســـت أمامي، أعطيتها أوراق الرواية، سعلت ثم قالت لي: «هل عرفت الآن لماذا هجرتك سلمى؟».

- ابتسمت بمرارة: «أعتقد» ثم أضفت: «لم يكن الأمر يستحق كل هذا في النهاية».

- «تكذب على نفسك».

أشـــحت ببصري بعيدًا عنها، ثم التفت وبدأت في رص الزجاجات على الرفوف.

- سعلت بقوة وقالت: «هل تعتقد أن للوسيندا يدًا في كل ما حدث؟».

- قلت لها دون أن التفت: «لوســيندا هي الموت، أعتقد أنها شــخصية خيالة بالنهاية».

- لم ترد.. فالتفت لأجد رأســها مُلقى على الطاولة، تجاهد لالتقاط أنفاسها.

- «أروى.. هل أنتِ بخير؟».

رفعت رأسها تجاهي ثم غابت عن الوعي، اتصلت بالإسعاف ثم نقلناها للمشفى، إنها أزمة التنفس المصابة بها، هذا ما قاله لي الطبيب.

جلســت بجوارها ساعة حتى اســتفاقت، وقالت لي أنها تريد المغادرة، ربت على رأســها: «يتوجب عليكِ المكوث فترة أطول» أغمضت عينيها مرة أخرى واســترســلت في النوم، كانت ســلمى تجلس على كرسي بنهاية الغرفة، وللمرة الأولى أسمع صوتها الشــبحي: «هل ستهاتف أهلها؟».

- حدقت بها ثم قلت: «تتحدث الأشباح إذن!».

- «يمكنك مهاتفة أهلها، فلا يمكنك المكوث بجوارها للأبد».

ابتسمت من تخيلاتي، والتقت هاتف أروى، ولكنني لم أستطع البحث في قائمة الأسماء، فقد كانت فارغة تمامًا. حككت ذقني ثم نظرت لســلمى ولكنها لم تعد موجودة الآن.

***

في الصباح غادرنا المستشفى، عدت إلى منزلي ورأسي يشكو من الطرق، وبدأت بحثًا عشـــوائيًا عبر شبكة الإنترنت، بداية من البحث عن لوسيندا وانتهاءً بأروى، عبر العديد من مواقع التواصل، ولكنني لم أجد شيئًا لافتًا للنظر حتى غلبني التعب بالنهاية استسلمت لنوم بارد متقطع.

في الظهيرة، وفور استيقاظي هاتفت أروى عدة مرات ولكنها لم تستجب، فغادرت منزلي متجهًا لمقر دار الحُر للنشر، للاطمئنان على حالتها، فما من ســـبيل أخر لدي للوصول لها، كانت هناك فتاة سمراء تجلس على المكتب في غرفة الاســـتقبال، أخبرتها عن رغبتي في الدخول للسيد سامح الحُر، فطلبت مني الانتظار ثم أبلغته،

دقائق وكنت بالمكتب نفســـه الذي كنت فيه سابقًا، حدق بي سامح لثواني قبل أن يســـتقبلني بحفاوة، جلســـت أمامه وقـــررت البدء بصلب الموضوع: «هل أرســـلت لك أروى رواية يونس الأخيرة؟».

- حك الرجل ذقنه وهز رأسه مرتين: «لا.. لم ترسل لي شيئًا».

- «ربما ليست بالصحة المناسبة للقدوم اليوم، هذا أمر طبيعي».

- «أي أروى تقصد؟».

- «أروى.. السكرتيرة الخاصة بالدار!».

- «انتظرني لحظة».

ضغـــط على زر ما بجوار مكتبه فدلفت الفتاة الســـمراء للغرفة، قال لها: «هل معـــكِ رواية يونس الأخيرة؟».

- «من يونس يا أستاذ؟».

- نظر لي سامح ثم قال: «ليس معها شيء!».

- «أقول أروى وليست السكرتيرة الجديدة» قلت له موضحًا، وشيء بأوصالي بدأ يخفق.

- «أستاذ مراد، لم أوظف سيدة أخرى بنفس الاسم، التي أمامك هي أروى».

- «هذا مستحيل!». نظرت لها.

- «أنا أذكرك يا أستاذ مراد لقد جئت سابقًا لمقابلة أستاذ سامح، وسألته عن روائي نشر رواياته لدينا صحيح؟».

- «لابد أن الأمر قد اختلط عليك يا مراد» قال لي سامح. وبدأ العالم بالذوبان في رأسي، قلت: «أستاذ سامح، أنا متأكد أن فتاة أخرى كانت تعمل هنا، اسمها أروى، تجهز للعمل بالصحافة، وقد أعطيتها رواية يونس الأخيرة (الموتى لا يرقصون) وكنا بالأمس في المشفى».

- «ربما تقصد فتاة أخرى، ولكنها لا تنتمي لهذا المكان، أروى الوحيدة التي تعمل هنا هي الماكثة أمامك، وهي تعمل هنا مُنذ ثلاث سنوات، من المستحيل أن تكون هي من تقصد».

حدقت بأروى (السمراء) ثواني ثم تذكرت رقم هاتف أروى الذي سُجل على هاتفي، أخرجت هاتفي وبحثت عنه، وهاتفته وكما توقعت تمامًا فلا وجود له على شبكة الاتصالات..

***

في المساء، لم أكن واعيًا تمامًا لكل ما يحدث، ولأكون دقيقًا أكثر لم أكن قادرًا على الفهم، تركت نفسي للمياه كي تغرقها، وللرمال كي تبلعها، بدت الحياة شيئًا هلاميًا يغرقني فيه كُلما قاومته، زئبق كُل محاولة لإمساكه هي فرصته للفرار، ذهبت لمنزل سمير ورافقتهما إلى

استوديو تصوير حلقة ياسمين، كانت ياسمين متحمسة بقدر ما كانت خائفة، أمام باب الأستوديو أمسكت الصغيرة بأصابعي وقالت لي: «هل سأكون جيدة؟».

– «ستكونين ممتازة يا حبيبتي».

وبداخل الأستوديو جلسنا على المقاعد المخصصة لأهالي الأطفال المشاركين، وجلست ياسمين بمنتصف القاعة وبجوارها محاورها، قال المحاور لياسمين بنبرة واثقة بعد عدة أسئلة معتادة وقدماه فوق الأخرى: «كيف اكتشفتِ موهبتكِ؟».

– أجابت ياسمين بعد ثواني: «كانت والدتي تحب الموسيقى وأنا أحب والدتي».

– «إذن هل أنتِ جاهزة للعزف؟».

أومأت برأسها ثم نظرت لي، فأشرت لها برأسي ورفعت قبضتي في حركة واثقة، فابتسمت وعادت للمحاور تقول له بثقة: «نعم جاهزة».

– «إذن ماذا ستعزفين لنا؟».

– «أغنية كانت والدتي تحبها كثيرًا».

وقفت ياسمين على خشبة المسرح، وبدأت بعزف أغنية (ليدي إن ريد) فرت دموعي دون وعي مني حين رأيت سلمى تقف بجوارها على المسرح. وكأنني عشت حياتي سكيرًا، والآن أبكي صحوًا؛ مسحت دموعي بإصبعي وأشحت بنظري بعيدًا لأجد أروى- أو أيا ما تكن تجلس بالصفوف الأخيرة تتابع المشهد بابتسامة خبيثة.. تذكرت رقم هاتف الفتاة التي اتصلت بدار النشر لتسأل عن رواية يونس، لقد ظننت وقتها أنها سلمى، أخرجت الورقة التي دونت عليها الرقم من محفظتي، وكتبته

علـــى هاتفي وضغطت على الزر الأخضر فظهر لي اســـم أروى مجدي..

حين انتهت ياسمين من عزف الأغنية، التفتت تبحث عني وأرسلت لي قُبلة بالهواء.

-النهاية-

الكنزي
ALKANZY